كسر أصنام الجاهلية

في الرد على الصوفية

صدر المتألهين الشيرازي

صححه وعلق عليه : حسين الطقش



معهد المعارف الحكمية
(للدراسات الدينية والفلسفية)
THE SAPIENTIAL KNOWLEDGES INSTITUTE
(FOR RELIGIOUS & PHILOSOPHICAL STUDIES)

كسر أصنام الجاهلية

في الرد على الصوفية



معهد المعارف الحكمية

(للدراسات الدينية والفلسفية)

كسر أصنام الجاهلية

في الرد على الصوفية

تاليف: محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي

صححه وعلق عليه: الشيخ حسين الطقش

الكاتب: صدر المتألهين(محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي)
صححه وعلق عليه: الشيخ حسين الطقش
الكتاب: كسر أصنام الجاهلية في الرد على الصوفية

الطبعة الأولى

1425هـ - 2004 م





بيروت. حارة حريك. قرب البنك اللبناني الفرنسي. سنتر صولي
هاتف: 544622 -01 ص.ب الشياح 20
Email.almaaref@shuroouk.org-mahaad@shurouk.org


بسم الله الرحمن الرحیم



مدخل

علاقة التصوف بالتشيع

يتضمن التصوف، كحقل اختصاصي علمي، مجموعة من المقدمات الدراسية الـــتي لابد منها في الإفصاح عن ماهية هذا العلم، وذلك من خلال الرجوع إلى الجذر الاشتقاقي لكلمة التصوف، وتعريفه، وبيان نشأته ومراحل نموه، والمؤثرات الخارجية التي ساهمت في تطوره، والطرق التي انبثقت منه...

فقد كان اشتقاق لفظ الصوفي موضع خلاف بين أهل الفـــن، وقـــد تراوحـــت فرضياتهم بين ان يكون الصوفي مأخوذا من أهل الصفة، أو الصفاء، أو الصـــف، أو بـــني صوفة (نسبة إلى الغوث بن المر)، أو من كلمة سوفيا اليونانية والتي تعني الحكمـــة، أو ان تكون لقباً، أو غير ذلك.

ويرى جان شو فليي في كتابه " التصوف والمتصوفة" ان ارجح اشتقاقات التصوف تربط الكملة بالصوف وارتدائه (الانقطاع) وهناك اشتقاق اخر يربط الكلمة بالصـــفاء التطهر، والمعنى الثالث للصوفية يرجع اشتقاقه اللغوي إلى اللفـــظ الإغريقـــي ســـوفيا أي الحكمة تلم هي الخصائص الثلاثة الأساسية التي يثيرها معنى التصوف الانقطاع والتطهـــر والحكمة، وسيعمل التاريخ على ان ينوعها في شتى الإنحاء والاتجاهات.

ولئن اشتهر بين أهل العلم ان التصوف مأخوذ من لبس الصوف بما يعنيه ذلك من دلالة على الزهد والانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى، إلا ان ذلك لم يكن ملحوظاً في سيرة الأئمة (عليهم السلام) والصحابة الأوائل الذين مثلوا المعنويات العاليـــة والروحانيـــة القصـــوى في

الإسلام، وإنما كانوا يأخذون بالزينة ويدعون إلى التجمل بل ثمة نصوص تشير إلى ان ارتداء الصوف ليس من السنة في شيء. وما كان يفعله أهل الصفة من ارتداء الصوف مثلاً ليس إلا من جهة فقرهم وعوزهم.

أثيرت جملة من المقاربات التي من شأنها ان تعين على تحديد مفهوم التصوف، كتعريفه بأنه (خلق)؛ حيث يرى أبو الحسين النوري (ت265هـ.) ان التصوف ليس رسماً ولا علماً، ولكنه خلق. ويميل البعض إلى تعريف التصوف بالزهد، بينما عرفه ابن خلدون بأنه حسن رعاية الأدب مع الله في الأعمال الظاهرة والباطنة بالوقوف عند حدود مقدما الاهتمام بأعمال القلوب، مراقبا خفاياها، حريصا على النجاة فهذا الرسم هو الذي يميز هذه الطريقة، وذهب البعض الأخر إلى تعريف التصوف بكثرة العبادة الأمر الذي لم يرتضه ابن سينا في كتاب الإشارات حيث قال: " المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف " والى هذا المعنى يومئ كل من معروف الكرخي (ت 200هـ.) في تعريفه المشهور " التصوف صفاء ومشاهدة".

ومن الملفت للنظر وجود صعوبة في تعريف التصوف، وان التعاريف التي ذكرها المتصوفة لم يقصدوا بها تعريف التصوف تعريفا علميا شاملا يستوعب كل صوره وجزئياته، بل قصدوا بها التعبير عن أحوالهم الخاصة في لحظة معينة محدود فكل واحد منهم عبر عما وجد، ونطق بحسب مقامه.

مر التصوف بمراحل وأشواط لا تشكل بالضرورة تقطيعات زمنية بمقدار ما تعبر عن النهج والنزعة التي سادت المرحلة مما يوقعنا في مشكلة التداخل الزمني فيما بين المراحل، فقد كان لكل مرحلة طابعها الخاص الذي اصطبغت به فميزها عن غيرها من المراحل وذلك بسبب من تطرف أصحاب النزعات وميلهم الخاص عن الوسطية المعتدلة

التي أمر بها الدين في العلاقة مع الله تعالى، وقد أدى ذلك إلى ظهور نتوءات وتشـوهات اعتبرت فيما بعد علامات فاصلة للتمييز بين المراحل، ومن هنا يكاد ان يكـون تـاريخ التصوف المكتوب تاريخ للانحرافات والتشوهات المتراكمة في نطاق الرؤى والمسـلكيات التي يمكن ان تصور علاقة الإنسان بالله تعالى.

وعلى هذا الأساس سيطرت نزعة الخوف والحزن على التصوف في القـرن الثـاني للهجرة وما تلاه بالشكل الذي نجده عند الحسن البصري وأمثاله، واصطبغت هذه المرحلة بالدعوة إلى " العزلة"، و " قطع العلائق"، و الفرار من الدنيا "، و "اليـأس مـن النـاس لتتجاوز الأنفس قلقها ويعود إليها انسها وصفاؤها.

كما سيطر على هذه المرحلة نزعة الحب والعشق الإلهي، وذلك مع رابعة العدويـة في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة، وقد تبلورت هذه الترعة الصوفية فيما بعد مـن خلال منهج استقطاب كامل للنفس في علاقتها مع الله تعالى على أساس محاولة الاتحـاد بالمطلق تتمثل بالعشق الإلهي.

ويكاد يكون من المجمع عليه عند الباحثين بأن أول من تسموا بالصوفية ظهـورا في الكوفة، منهم أبو هاشم الكوفي (ت 150هـ.)، وجابر بن حيـان (ت208هـ.)، وعبدك الصوفي (210هـ.) وعلى الرغم مما يوصف به تصوف هؤلاء من التطرف، فقد وصفت هذه المرحلة في المصادر السنية عموماً بالاعتدال، ورأت ان هذه المرحلة عبارة عن الزهد الصادر عن جوهر الإسلام وحقيقته والموافق لما دعا إليه القرآن الكـريم وانتهجـه الرسول ﷺ في حياته الخاصة والعامة.

و لم يلبث ان ظهر الميل إلى المزج بين التجربة الروحية والعقل مع سفيان الثـوري، والحارث بن أسد المحاسبي، فكان لجمع الأخير بين النظر العقل والتصوف اثر في خصومه ابن حنبل له ويبدو ان هذا الاتجاه كان رائجاً آنذاك فقد دعا الجنيد البغدادي لربط الحقيقة

بالشريعة واشتهر عنه قوله: "من لم يحفظ القران ويكتب الحديث لا يقتدى بـه في هـذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"، وقد ترك هذا الربط تأثيراً واضحاً على التشكلات اللاحقة للتصوف نلمسه بوضوح عند أبي حامد الغزالي.

وأطلق على هذه الجهود اسم " التصوف العملي" في مقابل " التصوفي الفلسفي"الذي جاء بعد بنظريات لا تقع برأي الغزالي في تقدير الإسلام ولا تدخل في تعاليمه.

ومع حلول القرن الثالث الهجري أخذت ملامح التصوف " الفلسفي " تظهر إلى العلن، سيما مع القول بالاتحاد والحلول والمشاهدة وفكرة العشق الإلهي والمعرفة المباشرة، وكانت المعرفة عندهم تسمى الوجدان أو الذوق، وهي معرفة مباشرة تتخطى العقل إلى الإلهام المباشر، وتتخطى الشريعة بطريقة المشاهدة القلبية نجد بدايات هذا الاتجاه بقوة عند رابعة العدوية، المحاسبي، البسطامي، الجنيد، الحلاج.

إذا، تعود الارهاصات الأولى للتصوف الفلسفي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، إلا انه لم يكتمل المنحى التصوفي كفكرة فلسفية وفي مذاهب كاملة ومراتب منتظمة للعالم الروحي إلا بعد نهاية القرن الثاني الهجري، فبرز أبو يزيد البسطامي (ت261هـ.) صاحب فكرة " الشح والفناء" وأبو منصور الحلاج (ت 309 هـ.) الذي تنتسب إليه عقيدة " الحلول والاتحاد".

على ان المرحلة السابقة وان أطلق عليها التصوف الفلسفي إلا ان ذلك لا يرتبط بالضرورة بالاتجاه الفلسفي اللاحق والشامل لفلاسفة الإسلام الأوائل كالكندي، والفارابي وابن سينا وإضراهم، فالميل إلى التصوف الروحي نجده بوضوح في فلسفة ابن سينا " المشرقية" القائمة على الذوق والكشف، والتي افتتحها الفارابي وأبرزها في شكلها الممتاز السهروردي الحلبي (ت 587هـ.) صاحب كتاب "حكمة الإشراق".

وفي القرنين السادس والسابع ظهر فلاسفة ومفكرون صوفيون ادخلوا على التصوف عقائد وتصورات فكرية كوحدة الوجود والإنسان الكامل ثم إشراق السهروردي مما رفع التصوف من مستوى المقولات الوجدانية والانفعالات النفسية إلى مستوى الخوض في معرفة الله تعالى والكشف عن أسرار علاقة الإنسان بخالقه ومركزه من الكون.

والوجوه البارزة في هذه المرحلة هي: ابن عربي (669هـ.) السهروردي الحلبي (587هـ.) ابن سبعين (669هـ.) ابن طفيل (580هـ.)، عبد الكريم الجيلي (26هـ.)، الشاعر فريد الدين العطار (605هـ.)، ابن الفارض (632هـ.)، جلال الدين الرومي (672هـ.). وقد شهدت هذه المرحلة نواة تشكل العرفان النظري والعملي بشكله المتداول في عصرنا الحاضر.

بعد ذلك ظهر التصوف بشكله الاجتماعي والمتمثل بالطرق والتنظيمات الخاصة، وتحلق المتصوفة في الخوانق والزوايا والرباطات والتكايا، وكان التصوف حتى القرن الخامس أو السادس الهجري يمثل اتجاها فردياً أو فرقاً صغيرة لا رابط بينهما أو قاعدة موحدة أو غاية، إلا الزهد وعبادة الله، وبعد الاحتلال الايوبي لمصر وبلاد الشام، وتبدد العقيدة الإسماعيلية التي كانت ترفض التصوف لاعتقادهم انه يلغي دور الإمامة، وانتشار المذهب الشافعي الذي فتح الباب على مصراعيه أمام الحركة الصوفية، ظهرت الطرق الصوفية، فكانت للصوفية خانقاه " سعيد السعداء" التي دعمها صلاح الدين في القاهرة وكانت أول خانقاه أسست في مصر. وخلال العهدين الايوبي والمملوكي برزت الطرق الصوفية الأساسية، وأهمها: الشاذلية، القادرية، القلندرية، العيسوية، المولوية، النقشبندية.. وتحولت الصوفية من حركة فردية ذاتية إلى نظم وفرق وتجمعات لها عقائد ومسالك وقيود همها عبادة الله، وقد ساد في أوساط هذه الفرق الخمول والاعتماد على الغير في المعاش.

وقد واكب هذه المرحلة ما يسمى بظاهرة شعراء الحب والرومانسية والدروشة، واشتهر من هؤلاء عمر الخيام، الشيخ فريد الدين العطار (627هـ.)، ابن الفارض المصري (632هـ.)، جلال الدين الرومي (672هـ.)، سعدي الشيرازي، حافظ الشيرازي (791هـ.)، نور الدين عبد الرحمن جامي (898هـ.)، مجد الدين سنائي، فردوسي...

يرى المستشرقون ان التصوف الإسلامي استمد عناصره من الحضارات الدينية والفلسفية المتقدمة عليه، ويستندون في ذلك على مجرد التشابه القائم بين التصوف الإسلامي والأديان والفلسفات السابقة... من ذلك التأثير اليوناني المتمثل بكتاب اثولوجيا الذي تحدث عن فلسفة الفيض والتي سوف نجد خطوطها العريضة في فلسفة ابن عربي حول وحدة الوجود والحقيقة المحمدية وأيضا في الحكمة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردي الذي جعل من الله نورا للأنوار، فاض بالأنوار القاهرة وهي العقول والنفوس والأجسام. ومن ذلك التأثير المسيحي المتمثل بالتشابه في بعض المظاهر، مثل استعمال الخرقة وبعض الكلمات السريانية والآرامية مثل لاهوت، ناسوت، رحموت، رهبوت، ونحوها. ونظام الرهبنة الذي يقوم على احتقار البدن، وهجر الدنيا، واعتزال الناس، والامتناع عن الزواج، والرضا بالقليل من لباس وطعام. والحلولية، وهي حلول اللاهوت في الناسوت، وقد برزت هذه الحلولية عند الحلاج البسطامي، والتشابه في الدعوة إلى المحبة، وهو مذهب رابعة العدوية المعرفة بالعشق الإلهي وأخيرا فان كلمة صوفي المشتقة من لبس الصوف الأمر الذي كانت عليه النصارى. ومن ذلك التأثير الفارسي حيث يذكر الشاعر الصوفي ابن الفارض مثلاً ان مذهب الصوفية في الحقيقة المحمدية، وانه أول مخلوق خلقه الله ومنه تفرغت كل المخلوقات الأخرى، تشبه إلى حد بعيد ما ورد في الكتاب الزرادشتي " زندا افستا". كما ان هناك شبهاً كبيراً بين بعض التعاليم الصوفية والزهد والرهبنة في الديانة المانوية، كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة المزدكية. كما ان معظم مشايخ الصوفية الكبار كانوا من الفرس: كإبراهيم بن الأدهم

وأبي يزيد البسطامي، ومعروف الكرخي، وشقيق البلخي، وحاتم الأصم، وسهل التستري، والجنيد، والحكيم الترمذي، والحلاج، والغزالي، والسهروردي الفيلسوف... ومن ذلك التأثير الصيني المتمثل في التشابه الحاصل بين بعض تعاليم التصوف والفلسفات الدينية الصينية القديمة، فقد عرف عن كونفوشيوس قوله: كل شيء يخسره الإنسان يمكن تعويضه إلا الوقت وكان لاوتسه الفيلسوف الصيني من ذوي الاتجاه الصوفي البارز، يؤمن بضرورة ترك العمل وشؤون الحياة والتخلي عن الشهوات وحاجات الجسم كي يستطيع الإنسان الاتصال بـ" التاوي" (القدرة الغيبية التي يجب الايمان بها).. ومن ذلك التأثير الهندي المتمثل في وجود تشابه بين تعاليم التصوفي ومعتقدات فرق البراهمة والبوذية الهندية، ففي العقيدة البرهمية دعوة إلى تخليص النفس من سيطرة الجسد والسعي للاتحاد بالروح الكلية " البراهما" كما ان القول بوحدة الوجود وان الهداية تحصل بالبصيرة والروح وليس بالعقل والمنطق وتقوم العقيدة البوذية على مسألة الفناء الصوفي والنرفانا البوذية، وهو يوجب على الإنسان ان يطهر نفسه من دنس البدن حتى ترقى في الكمال وصولا إلى الانفصال للروح عن عالم الابدان، واتحادها بالروح الكلية للعالم.

ان كان ما تقدم من مؤثرات خارجية لا يوجد دليل على كونه مؤثراً مباشراً في نشأة التصوف الإسلامي سوى ما يظهر من مجرد التشابه في بعض التفاصيل والالتقاء العابر مما لا يفيد علما لا يصلح دليلاً قاطعاً، بل ان التدقيق في الأمر بالمعايير العلمية، كما يرى بعض المستشرقين، يجعل من تلك المدعيات اموراً تافهة لا تستحق النظر، وقد ارجع المستشرقون في حكمهم على التصوف الإسلامي، فيصرح المستشرق " ديلاسي اوليري" في حديثه عن هذا الأمر بأنه مملوء بأوهام ملفقة وادعاءات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ويرى ان ما يبرهن على التحيز في دراسة المستشرقين هو ان كل ما يتصورونه امراً حسنا في الإسلام يرجعونه إلى مصدر اجنبي ويجب عندهم ان يلتمسوا له اصلا أو اخر غير اسلامي، ولا توجد صورة غير امينة للبحث العلمي اكثر سوءاً من هذا التعصب الطائفي الاعمى.

ان الناظر في ايات القرآن الكريم، واحاديث النبي ﷺ، وما تناقله الأئمة عليهم السلام من أقوال ومارسوه من افعال، سيما نهج البلاغة والصحيفة السجادية، وكيفية سلوك الخواص من الاصحاب والاتباع يجد في كل ذلك معينا لا ينضب ومنهلا عذبا اجاجا لحركة العرفان الإسلامي. يقول الشهيد مطهري في فصل (جذور العرفان) من كتابه العرفان: تساءل بعض المستشرقين عن السبب المحرك لأبي ذر في معارضة الظالمين في عصره، كان هؤلاء بصدد الباحث عن عامل خارج عالم الإسلام دفع ابا ذر وحركه في هذا المجال. يقول جورج جرداق المسيحي في كتاب " الامام على صوت العدالة الانسانية" متعجباً من هؤلاء المستشرقين: ان ذلك مثل الذي نراه قرب النهر أو شاطئ البحر ثم نتساءل من اين احضر هذا الشخص الماء، ونتساءل عن مصدر الماء متجاهلين النهر أو البحر. من اين يمكن لأبي ذر ان يستلهم خارج عالم الإسلام، نفس هذا الواقع نشاهده في موضوع العرفان فالمستشرقون يبحثون عن مصدر ومنبع اخر غير الإسلام الهم وحرك عالم المعنويات في العرفان غافلين أو متغافلين عن هذا البحر العظيم، ايمكننا ان ننكر كل هذه المصادر بدءا من القرآن الكريم والاحاديث والخطب والاحتجاجات والادعية والسيرة لنؤيد بعض الفرضيات التي قدمها اولئك المستشرقون وابتاعهم. ولحسن الحظ فقد جاء اخيراً افراد مثل نيكلسون الانكليزي وماسينيون الفرنسي من الذين كانت لهم مطالعات واسعة في العرفان الإسلامي ليعترفوا بصراحة ان المصدر الاصلي للعرفان الإسلامي هو القرآن والسنة، يقول نيكلسون: اننا نشاهد في القرآن تلك الايات التي تقول:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾، ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾، و﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

وفي الحقيقة فان اصل وبذرة التصوف في هذه الايات، فالقرآن لم يكن عند الصوفيين الأوائل مجرد كلمات من الله، بل وسيلة للقرب منه، وبواسطة العبادة والتعمق في الاجزاء المختلفة للقرآن، وخاصة تلك الايات اللطيفة التي ترتبط بالمعراج، كان الصوفيون يسعون للوصول إلى تلك الحالة الصوفية للنبي وتحققها في ذواتهم.

يجب على السالك ان يقطع في طريقه إلى الله ما اصطلح عليه بالمقامات والاحوال، والمقامات مكاسب والاحوال مواهب، والسالك يجب عليه بالرياضة والمجاهدة ان يحصل على المقام، ويبقى فيه، ولأنه اتى بشروطه يجب عليه الارتقاء إلى مقام اخر، اما الحال فهو لمحات ونفحات غيبية حالة تحدث في قلب السالك وهي مثل البرق تعبر وليس لها دوام.

والمقامات عند الصوفية سبعة، ذكرها أبو نصر السراج في كتاب " اللمع"، وهي:

1. **التوبة**: وهي الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه، والسالك يجب ان يتوب توبة نصوحا من جميع الامور المخالفة للشريعة، فاذا تاب فقد تحقق الرجوع إلى الخالق.
2. **الورع**: وهو الابتعاد عن جميع الشبهات، وعما لا ينفع، فهو الاحتراز من كل شيء ما عدا الخالق.
3. **الزهد**: وهو ابعاد الرغبة عن متاع الدنيا واعراض القلب عنها، وهو واجب في الحرام وحلال في الفضيلة.
4. **الفقر**: وهو الاحتياج للخالق تبارك وتعالى وعدم الاحتياج لمن سواه. ومن وصل إلى مقام الفقر اصبح لا يحتاج إلا إلى الخالق تعالى وغنياً عن كل ما عداه.
5. **الصبر**: وهو يطهر النفس من جميع الوان الظلمات والكدورات والامال والاماني، وبتركها للتعلقات يخلص القلب.

6. **التوكل**: وهو ان يكون الإنسان بيد الخالق مثل الميت بيد الغسال، يفعل به ما يريد، لا يملك تجاهه ارادة ولا تدبيرا ولا حركة، وهو لا ينافي السعي والعمل والتوسل بالأسباب.

7. **الرضا**: مقام الرضا مقام الواصلين وليس مترل السالكين.

والاحوال المشهورة عند الصوفية عشرة وهي حسب ما ذكر في " اللمع".

1. **المراقبة**: علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه.

2. **القرب**: استغراق وجود السالك وقربه من الله تعالى، وهذا يحصل من خلال الابتعاد عن الصفات النفسانية، إلى الحد الذي يغيب فيه عن نفسه ويصل إلى الفناء.

3. **المولى في كل شيء**، وان تكون ارادته وكل ما يختار في طلب رضا المحبوب.

4. **الخوف**: وهو انزعاج القلب وانسلاخه من طمأنينة الامن بتوقعه امكان حصول مكروه.

5. **الرجاء**: الامل برحمة الله وعفوه.

6. **الشوق**: هيام داعية لقاء المحبوب في نفس المحب، ويحصل الشوق بعد المحبة.

7. **الانس**: التذاذ الباطن بالنظر إلى كمال جمال المحبوب، ويحصل بعد الشوق.

8. **الاطمئنان**: بذكر الحق تعالى، فالذكر يطمئن السالك، ويخلق فيه اليقين، ويؤهله للمشاهدة.

9. **المشاهدة**: رؤية الحق تعالى ببصيرة القلب.

10. **اليقين**: العلم الإلهي المستودع في القلوب، وهو رؤية العيان بقوة الايمـان لا بحجة البرهان.

وان كان ثمة ملاحظات على هذه المراحل السلوكية المتبعة، فهي ان التعبير عنـها بعدد معين انما هو الاجمال وليس التفصيل، والا فان تعداد الطرق يختلف من كتاب لآخر، فبعضها يشير إلى ثلاثة طرق، وبعضها إلى أربعين طريقاً، وبعضا يحدد مائة مرحلة وبعضها يصل إلى الالف؛ مما يعني ان تحديد المراحل انما هو أمر نظري قد لا ينطبق على التقطيـع العملي الذي يعايشه الصوفي تماماً.

إشكالية العلاقة بين التصوف بالتشيع:

أثيرت قضية العلاقة بين التصوف والتشيع على اكثر من صعيد، ودونت في هــذا المجال المؤلفات العديدة، تمثلت فيها الاراء والنظريات المتفاوتة سلباً وايجابــاً، فأســاءت التقدير في الوصل والفصل بينهما غالباً، وقد تمحضت بعض هذه المؤلفات في البحث عن طبيعة العلاقة بين التصوف والتشيع، ككتابي (الصلة بين التصوف والتشيع) و (النزعــة الصوفية في الفكر الشيعي) لمصطفى كامل الشيبي، وكتاب (بين التصوف والتشيع) لهاشم معروف الحسيني، بينما أفسح البعض الأخر نطاقاً واسعاً أو ضيقاً للبحث في هذا المجال.

هذا، وينبغي ان نعلم ابتداءً ان التصوف لا يختص بمذهب دون اخر، فالشيعة منهم متصوفة ومنهم غير متصوفة، والمتصوفة فيهم الشيعة وفيهم غير الشيعة. واذا كان المتصوفة من الشيعة هم قلة بالنسبة إلى المتصوفة السنة بحسب ما نقل المستشرق نيكلسون عن عبد الله الانصاري[1]. فهذا يرجع إلى اعتبارات تاريخية معينة تحكمت بذاكرة تاريخ سلبا، كما يرجع إلى الاعتبارات الخاصة التي كانت تحكم النظرة إلى مفهــوم التشــيع[2]، ومفهــوم التصوف في التصنيف المذهبي بحسب الاستعمالات المتعاقبة والمتقلبة والمتفاوتــة، ومهمــا يكن، ليس التصوف مذهب من مذاهب السنة، كما ليس هو فرقة مستقلة عــن ســائر الفرق الاسلامية. نعم اخذ التصوف طابعه "السني" حين انتظم في طرق، وتمثل في خوانق، وذلك لاسباب سلطوية ـــ مذهبية تعود إلى زمن الايوبيين والمماليك تحديدا.

---

[1] نقل عنه قوله: كل من القي شيخ صوفي عرفتهم شيعيان اثنان او اكثر.

[2] وعلى سبيل المثال كان التشيع يطلق على محي امير المومنين ﷺولو لم يكن المحب معتقدا باصول المذهب، ف يحبن كان يعتبر الاخير رافضي. هذا في الذهنية العامة للعامة.

إشكالية الوصل:

ومما يثير الانتباه في مجال ترسيم العلاقة بين التشيع والتصوف ان هـذه العلاقـة كانت تخضع للموقف من التصوف، وحيث تكون النظرة من التصوف سـوداوية، فانـه يجري ربط التصوف بالتشيع ربطا مفتعلا يقوم على مجرد التشابه العابر ولو مـن بعـض الوجوه (الإمامة والقطبية، العصمة والحفظ، المهدوية، زيارة الاولياء..). وفي المجال الـذي لا تكون النظرة فيها إلى التصوف سوداوية، يستبعد التشيع تماما عن مجالات البحث.

إذاً، فقد عمدت الدراسات القديمة والمعاصر إلى تصوير الحدث العلائقي بين التشيع والتصوف تصويرا مشبوها في الغالب، فاساءت إلى المعايير العلمية والموضوعية في الوصل والربط على نحو كان الهدف "مسّيسا" وموجها منذ البدء.

ومهما يكن، فقد ربط السراج الطوسي في كتابه اللمع خلق الصـوفية وعلمهـم بالامام علي(عليه السلام)، مهملا للفرق الفارق في هذا المجال، فالائمـة اعطـوا العلـم اللـدني لاختصاصهم بمهمة خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في قيادة المسلمين دينيا ودنيويا، والمتصوفة هـم كبقية الناس يحصلون علومهم بالكسب.. وهم أصحاب احوال لا أصحاب علوم كمـا يقول السراج نفسه. والعلم اللدني ينسب عند الشيعة إلى الأئمة الاثني عشر، في حـين ان العلم اللدني الذي تقول به الصوفية لا تحصره بعدد معين.

ومن جهة ثانية ربط عبد الرحمن بن خلدون في "المقدمة" مفهـوم قطـب عنـد المتصوفة بمسالة الإمامة عند الشيعة، متجاوزا للمساحة التي تفصل بينهما، فالقطب عنـد الصوفية يتربع على مملكة باطنية اصطنعها المتصوفة، بينما الامام عند الشيعة يرعى امـور المسلمين السياسية والدينية.

ومن جهة ثالثة استغل احمد امين في كتابه "ضحى الإسلام" فكرة مهدوية موظفـا لها في خدمة الفكر الصوفي، مع ما في ذلك من القفز فوق الحقائق والوقائع القائمة، لا اقل

فان المهدوية ليست من اختصاص الشيعة، بل هي عقيدة اسلامية يؤمن بها جميع المسلمين من حيث اصل المعتقد.

ومن جهة رابعة ذهب كامل مصطفى الشيي في كتابة "الصلة بين التصوف والتشيع" إلى ربط التصوف بفكرة العصمة والشفاعة وزيارة قبور الاولياء عند الشيعة. متجاهلا حقيقة ان العصمة عند الشيعة وان كان يقابلها الحفظ عند الصوفية، إلا ان اكثر الصوفية لا يعتبرون بالحفظ ولا بالقطب وإنما يكتفون باتباع الشيوخ، فلا وجه لاطلاق القول بان الصوفية متأثرة بفكرة العصمة عند الشيعة.

وعليه فهذه المحاولات تستند في الربط بين التصوف والتشيع على مجرد التشابه العابر، وذلك من خلال العبث بالمفاهيم الخاصة بعيدا عن المعايير العلمية الموضوعية، اذ مجرد التشابه لا يجعل احد الفرقتين مرتبط بالاخر هذا النحو من الارتباط، والا فلا تكاد تخلو المذاهب الإسلامية من تشابه مع غيرها من مذاهب الاديان الأخرى في تنويعاتها العامة ولو في بعض الوجوه، ولا يعني ذلك بالضرورة وجود ارتباط بينهما كما لا يخفى على المنصف اللبيب.

إشكالية الفصل:

كما وقع اللغط في الربط بين التصوف والتشيع، وقع ايضا في الفصل بينهما، فقد ذهب البعض إلى الفصل بين التشيع والتصوف على أساس موقف الأئمة(عليهم السلام) الرافض للتصوف، مستندين في ذلك إلى الرصد الكبير في بيانات الأئمة(عليهم السلام) التي يتجلى فيها الموقف الرافض للتصوف بوضوح، من تلك البيانات:" انهم اعداؤنا، فمن مال اليهم فهو منهم ويحشر معهم، وسيكون اقواما يدعون حبنا ويميلون اليهم ويتشبهون بهم ويلقبون انفسهم بلقبهم واقوالهم، إلا فمن مال اليهم فليس منا، وانا منه براء ومن تنكر لهم ورد

عليهم، كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله ﷺ". أو "لا يقول بالتصوف احد إلا لخدعة أو ضلالة وحماقة" أو "لا تلتقوا إلى هؤلاء الخداعين فانهم شياطين، فخربوا قواعد الدين يتزهدون لراحة الاجسام ويتهجدون لصيد الانعام ويتجوعون عمرا حتى يرخوا الاركان حمرا، لا يهللون إلا لغرور الناس، ولا يقللون الغذاء إلا لمنع العساس واختلاس قلب الدفناس (الغبي)، ويتكلمون باملائهم في الحب ويطرحونهم بادلائهم في الجب، اورادهم الرقص والتصدية، وأذكارهم الترنم والتغنية، فلا يتبعهم إلا السفهاء، ولا يعتقد بهم إلا الحمقاء، فمن ذهب إلى زيارة احد منهم حيا أو ميتا فكأنما اعان (يزيد ومعاوية وابا سفيان).

وهذه الروايات لا تتم من جهة الدلالة على المقصود بتوجيه الدلالة وجهة نبذ التصوف بالمطلق، اما إذا كانت تنبذ أصحاب السلوكيات المنحرفة في عالم التصوف والتي كانت سائدة زمن الأئمة عليهم السلام، فانها تكون حينئذ واردة على نحو القضية الخارجية لا الحقيقية كما قد يستفاد من القرائن المحتفة بها.

وإذا انتقلنا من الناحية الروائية إلى الناحية التاريخية، نجد كثرة وافرة من كتب ومصنفات شيعية كتبت بعنوان "الرد على الصوفية"، وهي لا تبتعد عن التوجيه المتقدم، والا فلو تاملنا في المرحلة التاريخية الأولى لظهور التصوف نجد ان التصوف في نشأته قد تمثل بالنبي ﷺ وبالائمة عليهم السلام وبالشخصيات الشيعية من الطراز الاول، ففي مرحلة ظهور الدعوة الاسلامية والتي تمتد خلال القرن الاول هجري، كان المتصوف مفعما بالمعنويات، مصطبغا بمنحى باطني عميق، مشتملا على الجهاد في سبيل الله، وكل ما يحمله العرفان من قيم ودلالات راقية. واشخاص هذه المرحلة هم النبي ﷺ نفسه، والأئمة عليهم السلام وجملة من الصحابة والخواص، من قبيل أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر والمقداد وكثير من الشخصيات العرفانية المبكرة التي تتحدث المصادر عنها كثيرا، من امثال مالك بن حارثة ورشيد الهجري واويس القرني وكميل بن زياد وبرير وحبيب بن مظاهر

وامثالهم، وقد نقلت المصادر الروائية اشارات عابرة عن بعد هؤلاء كما في قصة همام الذي قضى نتيجة تأثره بوصف المتقين في خطبة امير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) ومنهم الربيع بن خثيم خال همام واحد الزهاد الثمانية الذي صعق ووقع مغشيا عليه عندما سمع قوله تعالى :﴿ **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً** ﴾، ومنهم اويس القرني الذي شهق شهقة غاشية عندما سمع قوله تعالى : ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ**﴾ ، وأمثال هؤلاء كثر ممن عاشوا الروحانية الاسلامية العالية بما تلقوه من مولاهم علي بن أبي طالب(عليه السلام).

ومن الجدير بالذكر ان التصوف الشيعي ازدهر ابان الحكم الصفوي في ايران والذي اعتمد مذهب التشيع مذهبا رسميا للدولة، فقد شجعت الدولة الصفوية من انتشار هذا التيار، وان كان ذلك ــ بحسب المحللين ــ بدافع من العوامل التاريخية والاجتماعية والمذهبية. ومهما يكن فقد عملت هذه الدولة الفتية على جمع وحماية رجال الفكر وبخاصة أصحاب المنحى العرفاني منهم. وصادف المذهب الباطني في ايران تربة خصبة صالحة للنمو والازدهار. ثم ما لبث ان اصابه الضمور والذبول أمام سلطان الفقه المتمدن آنذاك. وبذلك يتضح ان القطيعة الطارئة بين التشيع والتصوف يعود سببها إلى التوظيف السلطوي للتصوف في مناهضة التشيع، فالطرق الصوفية كانت قد انتشرت بفعل الترويج الدعائي المذهبي الذي افتعله السلطان لخدمة اهدافه، ومذاك كان التصوف يدعم مذهب لصالح اخر[1]. وادى بعد ذلك إلى حركة ارتدادية تجاه الشريعة تدعو إلى نبذ الظاهر واستباحت المحرمات، وعلى هذا الأساس اعتبر التشيع موقفا مؤسسا من التصوف عامة ويمكن تلخيصه بانه موقف أهل الشريعة التقليدي. وعليه، فان التشيع وقف بوجه التصوف الاخذ في الانحراف بفعل الاستخدام السلطوي له، لا مطلق التصوف.

---

[1] ولا يمنع من ذلك ظهور بعض الطرق المنسوبة للتشيع ولو في نطاق ضيق جدا كالطريقة النور بخشية التي كانت ذات طابع شيعي.

لا نكاد نلمس اثر للتصوف السني في الكتابات المعاصرة، حيث بات التصوف لوثة وتهمة وبدعة وانحرافا لا نجد له مصدرا بحسب كتابات الجابري وامثاله من المعاصرين، إلا في التشيع الذي اختلط في كلماتهم بالاسماعيلية حتى بات الموقف من الإسماعيلية هو الموقف من التشيع عموما.

وهل من الانصاف المنهجي ان نؤاخذ الاشاعرة بم اقترفته بعض فرقهم من الحشوية وامثالها، فيكتب الجابري مثلا عن التصوف الشيعي وعن الجماعة، وكان التشيع يوازي التصوف بخلاف الجماعة التي لا تقلب الانقسام إلى متصوفة وغير متصوفة.والجماعة عنده بريئة من اقتراف تهمة التصوف كل البراءة، والعجب ان الجابري يستشهد في كتاباته باقوال كبار المتصوفة من السنة ويتعمق فيها ذلك في معرض حديثه عن التصوف الشيعي ويستنتج منها ما يحلو له ان ينسبه إلى التشيع دون ان يكلف نفسه عناء البحث عن المصادر الشيعية التي تحدد النظرة إلى التصوف.

ويكاد يكون الجابري وامثاله معذورين فيما وقعوا فيه، ذلك اننا إذا رجعنا إلى المصادر الشيعية نجد انه يندر ان نقع على كتاب اختصاصي يتحث عن التصوف الشيعي، بل نجد كما هائلا من المدونات التي تهاجم التصوف والمتصوفة وقد تقدم اعلاه ما يشير إلى ذلك، ومع ذلك يحلو لهم ان يتشدقوا بمقولة ان التشيع هو مصدر الهرمسية والغنوصية والتصوف والباطنية في الإسلام. من هنا فان النظرة الموضوعية التي يدعيها الكتاب المحدثون تستدعي منهم الرجوع إلى المصادر الشيعية وليس السنية كميزان في الاحتكام الموضوعي والمنطق العقلاني.

وفي هذا المجال تبرز الاهمية القصوى التي تحتلها مؤلفات مثل كتاب " أسرار الشريعة واطوار الطريقة وانوار الحقيقية" للسيد حيدر الاملي" وكتاب" كسر اصنام الجاهلية" للفيلسوف الكبير ملا صدرا الشيرازي ونحوها من مؤلفات ما زالت مغمورة تبحث عمن يزيل الغبار الكثيف عنها ويخرجها إلى حيز النور.

ويمارس الكتاب الأخير " كسر اصنام الجاهلية" نقدا موجها وتنظيرا مؤطرا من التصوف لا يكاد يكون مسبوقا في تاريخ التصوف بعامة، قام به احد رجالات التصوف الشيعة الكبار وشكل بالتالي قفزة نوعية وتحولا جذريا في النظرة إلى التصوف مما جعل هذا الكتاب يعتبر بحق مفصلا اساسيا ما بين التصوف المنبوذ والعرفان الصاعد الذي يكاد يحتوي العقيدة الكاملة في النظرة الشيعية من التصوف.

يدعو مؤلف الكتاب في مطلع الديباجة إلى الحذر من جماعة كثيرة من الناس في هذا الزمان ويقصد بذلك الزمان الذي عاصره الذي تفشت فيه ظلمات الجهل والعماء في البلدان فهم يظنون مع افلاسهم عن العلم والعمل بانهم متشبهون باربـاب التوحيد واصحاب التفريد، وما ذلك إلا لانهم تركوا تعلم العلم والعرفان، ورفضوا اكتساب العمل بمقتضى الحديث والقران.

وبعض هؤلاء تشبثوا بذيل ناقص في العلم والعرفان، قاصر مثلهم في العمل والايمان ومع ذلك ادعوا علم معرفة ومشاهدة في الحق الأولى ومجاورة المقامات عن الاحوال، والوصول إلى المعبود.. وايم الله انهم لا يعرفون شيئا من هذه المعاني إلا بالاسامي والمعاني.

وربما يقول بعضهم: "الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله.. وانما نخوض في الشهوات واللذات بالظواهر والابدان لا بالبواطن والقلوب. فوظيفة السالك الأدق بل الواصل المحقق أن لا يغلق على نفسه أبواب المجاهدات والرياضات ومخالفات النفس وهواها في أي حال ما دام في الدنيا، كما كان حال النبي والائمة المعصومين(عليهم السلام).

وسوف نجد - ونحن نخوض في طيات الكتاب - ان الهاجس المعياري الذي يحكم المصنف على مدى الصفحات التالية هو ميزان العلم والمعرفة والعمل بما يقتضيه القران

والسنة، فالشريعة هي الطريق والزاد والغاية، والمعرفة شرط أساس في فهم الشريعة والعمل بها.

وبالتالي ليس هناك من ميزان خاص في الحكم على المتصوفة سوى الميزان العام،وهو المعارف الشرعية والعمل بالقران والسنة. لذلك يحمل المصنف في اكثر من موضع على اؤلئك الذين تظاهروا بالمعرفة وادعوا الاحاطة بالشرع، أو نبذوا العقل والشريعة جانبا، بدعوى عدم امكان المعرفة بشيء وان المعرفة هي الحجاب.. هذه هي رسالة الكتاب الرئيسية، وهي تعتبر الأساس لكل نزعة صوفية عرفانية صحيحة بنظر المؤلف، وهذا ما سوف نلتمسه في طيات الكتاب بوضوح كبير.

حسن بدران

معهد المعارف الحكمية

(للدراسات الدينية والفلسفية)



المقدمة

*شخصية صدر المتألهين تَدِّسُّ :

هو محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بصدر المتألهين وملا صدرا، أحد كبار الفلاسفة الإلهيين، ولد من أسرة عريقة في النسب والشرف في مدينة شيراز في عام 979هـ/ 1572م.

وأما والده فاسمه إبراهيم بن يحي القوامي، وكان أحد وزراء فارس (شيراز) وهذا الوزير لم يرزق بولد ذكر، فنذر لله أن ينفق مالاً خطيراً على الفقراء وأهل العلم إذا رزق ولداً ذكراً صالحاً، فكان ما أراد حيث رزقه الله صبياً_ محمد صدر الدين_ .

فتربى هذا الولد الوحيد لأبويه في حجر والده معززاً مكرماً، وقد وجهه والده لطلب العلم. ولما توفي والده رحل صدر المتألهين تَدِّسُّ لتكميل معارفه إلى أصفهان عاصمة العلم والسلطان يومئذ في عهد الدولة الصفوية.

وفي أصفهان التقى بالسيد أبي القاسم الفندرسكي ،الذي كان يعدّ من أكابر العلماء في عصره. فأشار عليه بحضور درس الشيخ بهاء الدين العاملي، الذي كان يعدّ فيلسوفاً، ورياضياً، شاعراً، ومتألهاً صوفياً... فاستفاد منه صدر المتألهين في العلوم العقلية والنقلية، ونال منه إجازة تدريس جميع العلوم التي درسها عنده.

أما الأستاذ الثاني الذي أفاد منه صدر المتاهين جُل فلسفته فهو الشيخ محمد باقر الميرداماد الملقب بـ(المعلم الثالث) الذي كان على اطلاع واسع على فلسفة المشائية، ومتأثراً بتعاليم الفلسفة الإشراقية، وهذا ما ترك تأثيره على تلميذه صدر المتألهين في حياته الشخصية والعلمية.

- **أهمية كتاب كسر أصنام الجاهلية :**

تنبع أهمية هذا الكتاب من خلال الموضوع الذي تمت معالجته فيه، ألا وهو التصوّف والمتصوفة، لما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة، سواء على السلوك الفردي أو على المجتمع الإسلامي، حيث نجد من خلال التتبع، أن هناك مجتمعات قامت وتأسست على الأصول الصوفية ،كما نجد أفراداً كان لهم الدور البارز في التاريخ الإسلامي وكانوا من سالكي طرق الصوفية.

وعلى هذا الأساس فإن مقاربة هكذا موضوع تعتبر قضية بالغة الأهمية، وهذا ما قام به صدر المتألهين في كتابه (**كسر أصنام الجاهلية**) حيث انه قارب موضوع التصوف والمتصوفة، ولكن من خلال استعراضه لمتصوفي أهل زمانه، أو بالأحرى لمدّعي التصوف من أهل زمانه، حيث صدر المتألهين قد فرّق بين صنفين من المتصوفة، وهذا ما يجده المتتبع لآرائه سواءً في هذا الكتاب، أو في غيره مما كتب.

1. الصنف الأول: وهم الذين ادعوا التصوّف واتخذوه حرفة لهم، من أجل الوصول إلى قلوب الحكام والناس، وقد يصل هم الأمر إلى إدعاء المقامات العالية، كالوصول إلى المعبود، والملازمة في عين الشهود، مع أهم أبعد الناس عن الله تعالى، وأكثرهم جهلاً به، وما ذلك إلا لسلوكهم الرياضات غير الشرعية،وابتعادهم عن مدرسة أهل بيت النبوة (عليهم السلام)، يقول صدر المتألهين (قدس سره) :" ومع هذه الآفة الشديدة، والداهية العظيمة، وجدت جماعة من العميان، وطائفةً من أهل السفه والخذلان، ادّعوا فيه علم

المعرفة، ومشاهدة الحق الأول، ومجاورة المقامات عن الأحوال، والوصـــول إلى المعبـــود، والملازمة في عين الشهود، ومعاينة الجمال الأحدي، والفوز باللقاء السرمدي، وحصـــول الفناء والبقاء.

وأيم الله أهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني، إلا بالأسامي والمعاني، وربمـــا ينظـــر أحدهم إلى أصناف العلماء بعين الأزدراء...

والحال أهم عند الله من الفجار المنافقين.﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَـــاذِبُونَ﴾[1].

وهو عند أهل الله وأرباب القلوب في الحمقاء المجانين، الأشقياء المردودين"[2].

ثم إن جميع الروايات التي وردت في ذم الصوفيّة يراد بها هذا الصنف من المتصـــوفة، وهذا ما سنلاحظه في الأمر الرابع من هذه المقدمة.

2. الصف الثاني: هم أهل التصوف الحقيقين، والعرفاء الربانيّين والذي يعد صـــدر المتألهين أحدهم، بل أعظمهم. وهذا الصنف من المتصوفة والعرفاء هم الـــذين ورد المـــدح فيهم. ومن أجل التفريق بين الصنفين نجدهم يفرّقون في تسميتهم، فيسموّن الصنف الأول بـــ(المتصوفة)، والصف الثاني بـــ(العرفاء) وإن كان هناك مجال لمناقشة ذلك إلا أن محلـــها ليس هنا.

نقده للمتصوفة:

قام صدر المتألهين في هذا الكتاب كما في غيره من كتبه، بنقد وردّ أقوال المتصوّفة - الصنف الأول- وكان رده قاسياً، وذلك للادعاءات التي كانوا يـــدّعونها؛ مـــن مقامات، وأحوال، ومعاينة، ومشاهدة... و كان كل ذلك يؤدي إلى جذب الناس إليهم،

---

[1] سورة المنافقين

[2] كسر أصنام الجاهلية، ص39

ومن ثم الإقتداء بهم، وسلوك طريقتهم المخالفة لظواهر الشريعة الغرّاء، التي أُمرنا بالمحافظة عليها، ولهذا يقول صدر المتألهين:"... أنه لا يجوز ولا يتيّسر للإنسان متى كان مقصراً في العبادات الشرعية، أن يتعرّض بشيءٍ من العبادات الحكمية، والرياضيات السلوكية، والمجاهدات التصوفية، وإلا هلك وأهلك، وضلّ وأضلّ، وغوى في غيابت جب الهوى"[1].

والذي تحدث عنه صدر المتألهين في ذم الصوفية هو المراد من الروايات التي تذم المتصوفة، حيث انه عند مراجعتنا لروايات أهل بيت العصمة (عليهم السلام) نجد في الكثير منها ذماً للتصوّف والمتصوّفة، ومن ذلك :

أ- ما رواه المولى الأجلّ الأكملّ، ملا أحمد الأردبيلي في كتاب حديقة الشيعة، قال: نقل الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب أنه قال:" كنت مع الهادي علي بن محمد(عليه السلام) في مسجد النبي(صلى الله عليه وآله)، فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري، وكان رجلاً بليغاً وكانت له مترلة عنده(عليه السلام)، ثم دخل المسجد جماعة من الصوفيّة وجلسوا في ناحية مستديراً وأخذوا بالتهليل، فقال(عليه السلام):لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين، فإنهم خلفاء الشيطان، ومخرّبو قواعد الدين، يتزهدون لراحة الأجسام، ويتهجدون لصيد الأنعام. يتجوعون عمراً حتى يديخوا للإيكاف[2] حمراً،لا يهللون إلا لغرور الناس، ولا يقللون الغذاء إلا لملاء العساس[3]، وإختلاس قلوب الدفناس[4]، يكلمون الناس باملائهم في الحب، ويطرحوهم باذليلائهم في الجب. أورادهم الرقص والتصديّة وأذكارهم الترنم والتغنيّة، فلا يتبعهم إلا السفهاء، ولا يعتقدهم إلا الحمقى [الحمقاء -خ] فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حياً وميتاً، فكأنما ذهب

[1] كسر أصنام الجاهلية، ص..

[2] يديخوا: يذلوا ويقهروا. والإيكاف : الإيقاع في الألم، ويقال: وضع الوكاف على الحمار، والوكاف:البرذعة.

[3] العسعاس: الذئب الذي لا يستقر. (لسان العرب، ج2، ص627)

[4] الدفناس : البخيل، وقيل : الراعي الكسلان الذي ينام ويترك أبله وحدها ترعى .

إلى زيارة الشيطان وعبادة الأوثان، ومن أعان أحداً منهم فكأنما أعان يزيد ومعاوية وأبا سفيان"[1].

ب - عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، ومحمد بن إسماعيل بن بزيع ،عن الرضا (عليه السلام) أنه قال:" من ذكر عنده الصوفيّة و لم ينكرهم بلسانه أو قلبه فليس منّا، ومن أنكرهم فكأنما جاهد الكفار بين يدي رسول الله"[2].

ج - ما رواه علي بن الحسين بن بابويه القمي في قرب الاسناد، الذي صنّفه عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عبد الجبار، عن العسكري(عليه السلام) أنه قال: سئل الصادق (عليه السلام) عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي فقال(عليه السلام) أنه فاسد العقيدة جداً، وهو الذي أبتدع مذهباً يقال له التصوّف، وجعله مفراً لعقيدته الخبيثة "[3].

د - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: " لا تقوم الساعة على أمتي حتى يخرج قوم منّا أسمهم صوفية ليسوا مني وإنهم يهود أمتي، يحلّقون للذكر، ويرفعون أصواتهم بالذكر، يظنون أنهم على طريق الأبرار، بل هم أضل من الكفار، وهم أهل النار، لهم شهقة كشهقة الحمير، وقولهم قول الأبرار، وعملهم عمل الفجار، وهم منازعون للعلماء ليس لهم إيمان، وهم معجبون بأعمالهم ليس لهم من عملهم إلا التعب"[4].

إلى غيرها من الروايات التي وردت في ذمّهم. ثم ان العديد من العلماء قد ألّف كتباً في ذمهم، ومنها:

1. كتاب الإثنا عشرية في الرد على الصوفية: للعلامة الشيخ الحرّ العاملي.

---

[1] -العاملي، الشيخ الحر، الأثنا عشرية في الرد على الصوفية، العلمية، قم، ط2، ص28-29

[2] -م.ن. ص32

[3] م.ن. ص33

[4] م.ن. ص34

2. الرد على الصوفية: للمحقق القمي.

3. فضائح الصوفية: للعلامة محمد جعفر بن آغا محمد علي (فارسي).

في المقابل نجد أن هناك بعض الروايات التي فيها مدح للتصوّف، فمنها: أنه سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الصوفي، فقال عليه السلام: "الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وجعل الدنيا خلف القفا، وسلك طريق المصطفى، واستوى عنده الذهب والحجر والفضة والمدر..."[1].

والمراد من الصوفي هنا – في الروايات المادحة – من سلك طريق تهذيب النفس، والرياضات الشرعية لاجل تحصيل العلوم اللدّنيَة، والمعارف الإلهية، والمكاشفات الربانية،من دون أن ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفيّة، كالسيد بحر العلوم، وصدر المتألهين، والقاضي سعيد القمي، والفيض الكاشاني، وغيرهم من كبار متصوفي وعرفاء الإمامية.

أسلوبنا في تحقيق هذا الكتاب : لقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على نسخة وحيدة وهي الصادرة عن كلية المعقول والمنقول سنة 1340هـ ش في طهران. مع أن هذه النسخة لم تحقق تحقيقاً جيداً، بل فيها أخطاء كثيرة، ولكن قمنا بعدّة أمور في سبيل تحقيقها:

أولاً: التصحيح اللغوي، حيث إن هذه النسخة تحتوي على أخطاء لغويّة ونحوية وكلمات أعجمية، وهذا ما جعل البعض يشككّ في نسبة هذا الكتاب لصدر المتألهين.

ثانياً: تصحيح الآيات والروايات التي استشهد بها المصنف قدس سره.

[1] الطهراني، آغا برزك، الذريعة الى تصانيف الشيعة، ط3، دار الأضواء، بيروت، ج7،ص286.

ثالثاً: تخريج الآيات والروايات، من خلال الاعتماد على القرآن الكريم والكتب الروائية عند الفريقين.

رابعاً: تصحيح بعض النصوص التي استشهد بها صدر المتألهين وذلك من خلال الرجوع إلى المصادر الاساسية، كما فعلنا عندما رجعنا إلى كتاب الافلاطونية المحدثة للدكتور بدوى في تصحيح وصايا فيثاغورس.

خامساً: ترجمة الشخصيات التي ورد ذكرها في الكتاب.

سادساً: شرح المصطلحات العرفانيّة والفلسفيّة والكلاميّة التي وردت في الكتاب.

سابعاً: ترجمة الفرق الفلسفية والكلامية الواردة في الكتاب.

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منّا هذا العمل المتواضع بحق محمد وآله إنه سميع مجيب.

حسين علي الطقش

بيروت 4 - 1 - 1425هـ.

الموافق 25- 2- 2004

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي أرشدنا سبيل الهداية، وهدانا طريق الوصول إلى المبدأ والمعاد، ونهانا عن سلوك الغي والضلال، وأحرسنا عن الخطأ والزلل في الأقوال والأفعال، وأنجانا عن متابعة أصحاب الوهم[1]

---

[1] الوهم: وهو الاعتقاد المرجوح، وقد يقال أنه عبارة عن الحكم بأمور جزئية غير محسوسة لأشخاص جزئية جسمانية..) را: الشيرازي: صدر المتألهين،الحكمة المتعالية،ج3،ص517.

ثم إن الكلام في الوهم يقع في جهتين :

الجهة الأولى: في وجود هذه القوة الواهمة.

والجهة الثانية: في استقلاليتها عن القوى الأخرى.

أما بالنسبة للجهة الأولى فإن تتبع أقوال كبار الفلاسفة والحكماء يجد أن هذه القوة لها وجود، قال الشيخ الرئيس: "الوهميات هي آراء أوجب اعتقادها قوة الوهم التابعة للحس مصروفة إلى حكم المحسوسات لأن قوة الوهم لا تتصور فيها خلافها)، النجاة ص 115-116، جامعة طهران. را: النجاة، ص 342، 344، وأيضاً:الإشارات، النمط الثالث وقال شيخ الإشراق: (وأثبت بعض الناس في الإنسان قوة وهمية هي الحاكمة في الجزئيات". حكمة الإشراق، ص209 تصحيح هنري كوربان .

وقال صدر المتألهين(قدس):"والتوهم إدراك لمعنى غير محسوس بل معقول، لكن لا يتصوره كليا، بل مضافا إلى جزئي محسوس..."را:الأسفار، ج3،ص،360-362 .

ويقول السيد الطباطبائي(قدس):"لا ينال الوهم كل صورة عقلية مضافة إلى الجزئي، كالإنسان والفرس، والسواد والبياض مثلا، وإنما ينال أمورا جزئية موجودة في باطن الإنسان كالمحبة والعداوة، والسرور والحزن، ولا مانع من نسبة إدراكها إلى الحس المشترك.." تعليقة على الأسفار ج3، ذيل صفحة 362.

هذا بالنسبة للجهة الأولى. أما الجهة الثانية: فقد وقع الخلاف بين الفلاسفة، فمنهم من قال باستقلالية هذه القوة (الوهم) ومنهم من جعلها ضمن قوة أخرى. ذهب المشهور إلى كون القوة الوهمية قوة مستقلة، لكن احتمل الشيخ الرئيس كون المتوهمة هي المفكرة والمتخيلة بعينها، را: طبيعيات الشفاء وذهب شيخ الإشراق إلى وحدة الواهمة والمتخيلة والحس المشترك. وذهب العلامة الطباطبائي في تعليقته على الأسفار إلى كونها هي الحس المشترك لكنه نسب إليها إدراك المحبة ونحوها.وذهب صدر المتألهين(قدس) إلى أن الوهم هو العقل المنزل عن مرتبته، يقول(قدس):" اعلم أن الفرق بين الإدراك الوهمي والعقلي ليس بالذات بل بأمر خارج عنه وهو الإضافة إلى الجزئي وعدمها، فبالحقيقة الإدراك ثلاثة أنواع كما أن العوالم ثلاثة، والوهم كأنه عقل ساقط عن مرتبته".نقلا عن كتاب سرح العيون، للشيخ حسن زاده آملي،ص553 .

وللوهم معنى آخر وهو الشيء الخرافي (Fantasik) أو التوهمات.

والخيال[1]، ومرافقة أرباب الحجب والجهال، المقشعين من سمات الأبطال من الرجال وأهبتهم، بصفات الناعمات في الحجال[2] وحليتهم الهابطين في مهوى الغفلات والجهالات، الخائضين في أبحر الشهوات، الهائمين في أودية الزيغ والضلالات.

ونصلي على سيدنا ومقتدانا، سيد الأولين والآخرين، وآله صفوة الخلائق أجمعين، المعصومين عن الخطايا والعصيان، المقدسين عن السفه والبطلان، صلاة توازي وفاء أرشادهم وتأديبهم، وتحاذي كفاء هدايتهم.

وبعد فيقول المفتقر إلى تأييد الله الاعتصامي **صدر الدين محمد الشيرازي** القوامي لما رأيت جماعة كثيرة من الناس في هذا الزمان، الذي تفشت فيه ظلمات الجهل والعمى في البلدان، وانتشرت فيه غياهب السفه والبطلان في أكناف المساكن والعمران، مكبين بتمام الجهد على ملازمة الجهل والهذيان في العقائد والأقوال، ومباشرة التعضل والفساد في الأعمال والأفعال؛ وكان منشأ سفههم وعبثهم في القول والعمل؛ وهو الأمر الذي قد عمت داهيته، وعظمت فتنته، واشتدت آفته، وانتشرت مصيبته، وغلبت على أكثر الطبائع المألوفة ضره، وكثر على الفطرة العامية والعقول القاصرة الهيولانية[3] شره؛ من حسباهم دعابة شيطان الخيال نهاية وجدان أرباب الكمال؛ وظنهم أنهم مع إفلاسهم عن العلم العمل متشبهون بأرباب التوحيد وأصحاب التفريد[4]، وجهلهم بأن أهل البصائر والأبصار

---

[1] لخيال: وهو عبارة عن الصورة الباقية في النفس بعد غيبة المحسوسات، سواء أكانت في المنام أم في اليقظة.

قال صدر المتألهين: "والقوة الخيالية المدركة لها أيضا جوهر مجرد عن هذا العالم وأجسامه وأعراضه، وهي من بعض درجات النفس، متوسطة بين درجة الحس ودرجة العقل".ر: الشيرازي، صدر المتألهين،مفاتيح الغيب.

ثم أن هناك مصطلح آخر في علم النفس ويسمى (قوة المتخيلة) وقد تسمى (بالمتصرفة) وهذه القوة هي غير قوة (الخيال)، والمراد من (المتخيلة) هو التصرف وتركيب الصور المخزونة في الذهن، كتصور موجود له رأس إنسان وجسم فرس مثلا.

[2] الحجال: جمع الحجلة، وهو ستر يضرب للعروس في جوف البيت، والبيت الذي يزين للعروس.

[3] هو استعداد التعقل، وهي قوة استعدادية من شأنها ادراك المعقولات الأولى، وتسمى العقل الهيولاني.(نقلاً عن كتاب شرح المصطلحات الفلسفية ص223).

[4] التفريد : هو شهود الحق ولا شيء معه، فيشهده متفرداً، وذلك بفناء الشاهد في المشهود.. ولهذا قال الشيخ ابن عربي:التفريد وقوفك بالحق معك (لطائف الاعلام في شرح اشارات الالهام ص176)

(الأنظار) يعرفون سنن الرجال، من حلية الناعمات في الحجال، وعماهم عن انكشاف حقيقة الحال، وطريقة أهل الله المستحسنة عند المهيمن المتعال، وأتباعهم واقتدائهم واحدا منهم يدّعي لنفسه ولاية اللّه وقربه ومترلته، وكونه من الأبدال[1] المقربين، والأوتاد[2] والواصلين؛ لما سمعوا كلمات واهية، ومزخرفات شطحية، يخيل له وهم أن فيها شيئاً من الكرامات والمكاشفات، ويسمعه أخباراً إلهية وأسراراً ربانية.

فلهذا تركوا تعلّم العلم والعرفان، ورفضوا اكتساب العمل بمقتضى الحديث والقرآن، وعطّلوا ما أعطاهم الله تعالى من المشاعر والمدارك عن أعمالها في سبيل الهداية والرشاد، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً عليه بصرفها في غير ما خلق الله لأجله، بسبب الجهل والفساد.

ثم لا يخفى على أولي الدراية والنهى: إن العقول السليمة والنفوس الساذجة مما لا خير لهم في ترك الظواهر من الأعمال والأفعال البدنية، التي يحضر فيها ضرب من النجاة، ولا ثمرة لوجودهم إلا ثمرة في مزاولة المكاسب والصنائع المدنية، التي فيها نوع معاونة لأبناء جنسهم ومعاملة ومكافآت، وبها يتخلّصون عن عذاب الله تعالى في المعاد، وينجون عن عقوبته على المعاصي والسيئات، لقصور الفطرة والاستعداد.

وقد نرى جماعة من هؤلاء العميان، وأمثالهم ونظائرهم في العقل والاستدلال والاستعداد، أو أعلى منهم قليلاً في درجة المعرفة والسداد؛ تشبّثوا بذيل ناقص منهم في العلم والعرفان، قاصر مثلهم في العمل والإيمان.

---

[1] الأبدال : البدل من الشيء يقوم مقامه ويوجب له أحكامه. (ابن عربي، محي الدين، الفتوحات المكية، ج1، ص40) ."ثم ان رجالاً سبعة يقال لهم الابدال يحفظ الله بهم الاقاليم السبعة، لكل بدل أقليم، واليهم تنظر روحانيات السماوات السبع، ولكل شخص منهم قوة من روحانيات الانبياء الكائنين في هذه السماوات " (م.ن.ص 154-155)

[2] الاوتاد : عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة أركان الجهات من العالم، وهو (1): الشرق، و(2)الغرب، و(3)الشمال، و(4) الجنوب، مقام كل واحد منهم مقام تلك الجهة، وبهم يحفظ الله تعالى جهات العالم لكونهم هم محل نظره عز وجل. (لطائف الاعلام، م.س. ص127).

أما نقصانه في العلم والمعرفة، فلشهادة جهله وإصراره وضلاله واغتراره، وكثرة سهوه وخطئه، وفور غلطه وعمائه.

وأمّا قصوره في العمل فلكونه محترقاً بنار الشهوات، مستغرقاً في بحر اللّذات، أسيراً في أيدي الظّلمات، ملسوعاً بلسع حيات النعومات، نهشته ثعابين الشهوات، وتماسيح الهوى واللّهوات، فلا يزال يملأ من الشهوات والمحارم الحشا، ويوفى الجلاس والندماء من الجشا. وأكثر أوقاته في التلاعب والتملاق بالصبيان والمردان، والمنادمة مع السّفهاء والولدان، واستماع التغنّي ومزاولة آلات اللهو واللعب والخسران، وأسباب السهو والخطأ والنسيان، والمبّعدات عن الرحمة والرحمن، والجنّة والرضوان.

سومع هذه الآفة الشديدة والداهية العظيمة وجدت جماعة من العميان، وطائفة من أهل السفه والخذلان، ادّعوا فيه علم المعرفة ومشاهدة الحق الأول، ومجاورة المقامات[1] عن الأحوال[2]

---

[1] المقامات: هو استيفاء حقوق المراسم، فانه من لم يستوف حقوق ما فيه من المنازل لم يصح له الترقّي إلى ما فوقه، كما أن من لم يتحقق بالقناعة حتى تكون له ملكة لم يصح لها التوكل ومن لم يتحقق بحقوق التوكل لم يصح له التسليم، وهلّم جراً في جميعها.
وليس المراد من هذا الاستيفاء أنه لم يبق عليه بقية من درجات المقام السافل حتى يمكن له الترقي إلى المقام العالي، فإن أكثر بقايا السافل ودرجاته الرفيعة إنما يستدرك في العالي. بل المراد تملكه على المقام بالتثبت فيه بحيث لا يحول فيكون حالاً،ويصدق اسمه عليه بحصول معناه بأن يسمى قانعاً ومتوكلاً، وكذا في الجميع فإنه يسمى مقاما لإقامة السالك فيه. (الكاشاني،كمال الدين، أصطلاحات الصوفية، ط 1،1995 دمشق، الحكمة، ص 98).
ثم إن هذه المقامات قد جعلها بعض المتصوفة سبع مقامات، وسماها بالأودية السبع، كالرومي في كتابه منطق الطير، والبعض الآخر جعلها عشرة مقامات، أما الخواجه الأنصاري صاحب كتاب منازل السائرين فقد جعلها ألف مقام، وأرجع الألف إلى المائة، وأرجع المائة إلى عشرة أقسام: البدايات، الأبواب، المعاملات، الأخلاق، الأصول، الأودية، الأحوال، الولايات، الحقائق، النهايات.(را: منازل السائرين للخواجه الأنصاري، وأيضاً: را: السهروردي،محمد بن عبدالله، عوارف المعارف، ط1، 1999 بيروت،دار الكتب العلمية، ص276 وما بعد)

[2]- الأحوال : يشيرون بها الى الواردات التي يحصل بعضها من ثمرات الاعمال الصالحة الخالصة من الاكدار، وبعضها من آثار وهب الإلهية عن التعمل والاكتساب. والاحوال اسم لعشرة منازل ينزل فيها السائرون الى الله، وهي: (1):المحبة،و(2):الغيرة،و(3):الشوق،و(4):القلق،و(5):العطش،و(6):الوجد،و(7):الدهش،و(8):الهيمان،و(9)البرق،و(10):الذوق. وانما سميت هذه المنازل أحوالاً لتحول العبد فيها عن التقيدات بالاوصاف ....له عن الترقي في حضرات القرب، مترقياً منها بسره من مدركات فيها نازلة جزئية الى حضرات عالية كلية. (لطائف الاعلام، م.س. ص77-78) ثم للفرق بين الحال والمقام مراجعة كتاب عوارف المعارف ص273-276.

والوصول إلى المعبود، والملازمة في عين الشهود[1] ومعاينة الجمال الأحدي[2]، والفوز باللقاء السرمدي،وحصول الفناء[3] والبقاء [4] وأيم الله أنهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني إلا بالأسامي والمعاني، وربما ينظر أحدهم إلى أصناف العلماء بعين الإزدراء، حتى إن أرباب الصناعات والحرف يتركون صنائعهم وحرفهم، ويلازمونهم أياماً عديدة، وتلقنوا منهم تلك الكلمات المزيفة المزخرفة، واستحسنوها، فضلاً عن غيرهم من العوام.فهو يرددها لهم، كأنه يتكلم عن الوحي، ويخبر عن أسرار الحقائق، وضمائر القلوب، بل يُخبر عن سر الأسرار.

---

[1] عين الشهود: الشهود هو الحضور مع المشهود، ويطلق أيضاً بمعنى الادراك الذي يجتمع فيه الحواس الظاهرة والباطنة وتتحد في ادراكها. وان الموجب لاتحادها نور من جانب المشهود يمحو ظلمة حجابيتها ويقوم مقامها، فيرى الحق بنوره ويفنى كل ما سواه بظهوره. وقد قسم الى

أ - شهود المتوسطين: وهو المقام المتوسط بين المريد والمنتهى، ويحصل من هذا الشهود الفناء، فإذا أعقبه البقاء بالله تعالى كن ذلك شهود أهل النهاية.

ب - شهود المنتهين : وهو أعلى مراتب الشهود، بحيث يحصل للسالك في هذه المرتبة رؤية الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة .(لطائف الاعلام، م.س. بتصرف ص 343)

[2] الجمال الاحدي : ان معاينة الجمال الاحدي مما مطمع للوصول اليه حتى أشرف الخلائق لم يدع الوصول الى هذه المرتبة (إلهي ما عرفناك حق معرفتك) .

[3] الفناء : وهو الزوال والاضمحلال، وقد جعله القشيري على ثلاث مراتب :

أ- فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق.

ب- فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق .

ج- فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق .

والمرتبة الاخيرة هي المعبر عنها بفناء الفناء، أي الفناء عن شهود هذا الفناء .

قال الكاشاني : وذلك انهم يسيرون بالمحو والطمس والمحق الى مراتب الفناء الثلاثة، التي هي فناء الافعال وفناء الصفات وفناء الذات، فالمحو فناء الافعال بحيث يمحى نسبتها الى غير الحق عز شأنه، والطمس فناء الصفات كذلك، والمحق فناء العين في العين بحيث لا يرى سوى ذات الحق. وانما اصطلحوا على هذه المعاني بهذه الالقاب لكون المحو في اللغة زوال الأثر، والطمس مبالغة فيه، والمحق العدم بالكلية، فلهذ اصطلحوا بالمحو على فناء رؤية الافعال لغير الحق، والطمس على فناء الصفات، والمحق على ذهاب الذوات. (لطائف الاعلام، م.س. ص512-513).

[4] البقاء: يطلق ويراد به رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء، والبقاء أحد المقامات العشرة التي يشتمل عليها قسم النهايات لأهل السلوك في منازل السائر الى الحق... ولهذا كان مقام البقاء بعد الحالة المسماة بالفناء. والبقاء مرتبة من يسمع بالحق ويبصر به المشار الى هذه الرتبة بقوله: فبي يسمع وبي يبصر. (م.ن. ص143-144).

فيستحقر بذلك جميع العلماء والعُبّاد، فيقول في العباد: أهم أُجراء مُتبعون، ويقول في حق أهل العلم أهم بعلومهم عن الشهود لمحجوبون، وبالحديث عن الله من غير الوصول مشبعون، ويدّعي لنفسه ولبعض الحمقاء من مريديه أهم الواصلون إلى الحق، وأهم من المقربين.

والحال أهم عند الله من الفجّار المنافقين، ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1] وهو عند أهل الله وأرباب القلوب من الحمقاء المجانين، والأشقياء المردودين، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ... ﴾[2]، ﴿... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَ تَخْرُصُونَ﴾[3].

وذلك لأن أحداً منهم لم يكن له علم يترتب، ولا قلب يراقب، ولا عمل يهذّب ولا خلق يؤدّب، سوى اتباع الهوى والشيطان، واتصال الشهوات، ومنادمة المنافقين من أهل اللهو والهذيان والخسران.

وربما يقول بعضهم: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب. وقلوبنا والهة بحب الله، واصلة إلى معرفة الله، عاكفة في حظائر القدس. وإنما نخوض في الشهوات واللذات بالظواهر والأبدان، لا بالبواطن والقلوب. ويزعمون أن مباشرة الشهوات ومزاولة المعاصي والخطيئات لا يسدهم عن طريق الله، لقربهم منه، ومترلتهم لديه. ولا يعلم الأحمق السفيه الزنديق أن بهذا الكلام المزخرف المنتج لعذاب الحريق، يرفع درجة نفسه الخسيسة عن درجة الأنبياء، عليهم الصلوات والتسليمات! إذ كانت صدهم عن طريق الله خطيئة واحدة، حتى كانوا يبكون على ما يعدونه معصية وذنباً، وينوحون عليه سنين متوالية.

---

[1] سورة المنافقين، الآية 1

[2] سورة الأنعام، الآية 93

[3] سورة الأنعام، الآية 148

وقد نبه الله تعالى السلوك العلمي والعملي، وحذرهم بأبلغ وجه وأغلظه عن الميل إلى المرغوبات والمشتهيات الدنيويّة، في حكاية **بلعم بن باعورا**[1]، إذ قد شبهه بالكلب بقوله تعالى:﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا**﴾[2]، الآية إشارة إلى من خصه الله تعالى بآياته من الكتاب والحكمة والعبادة والطاعة، ثم وكله إلى نفسه. فمن خاصية نفسه الأمارة بالسوء أن تنسلخ منها، وتميل إلى الدنيا وزخارفها وشهواتها. وتتبع هواها في طلب المال والجاه والشهوة والرئاسة. فلما وقع فرخ همته العلية عن ذكر طلب الحق ومحبته، أدركه هذه الشيطان، وجعله من الهالكين الضالين عن الحق وطلبه. ليعلم أن المعصوم من عصمه الله تعالى، كما قال:﴿...**وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**..﴾[3].

وفيه إشارة إلى أن لا يأمن السالك المحقق مكر الله، ولو بلغ أقصى المقامات، فكيف لمن لم يسلك سبيل الله عملاً، وكان غريق بحر الشهوات، أسير أيدي الذنوب،محترق نار الظلمات.

فوظيفة السالك الصادق، بل الواصل المحقق، أن لا تغلق على نفسه —مادام كونه في الدنيا- أبواب المجاهدات والرياضات ومخالفات النفس وهواها، في أي حال؛ كما كان حال النبي، والأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين! والأكابر الماضين من حكماء

---

[1] ففي تفسير القمي في قوله تعالى : "وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا)الآية. قال : حدثني أبي عن الحسن(الحسين ط) بن خالد عن أبي الحسن الرضا ﷺ:أنه أعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم، فكان يدعو به فيستجاب له فمال الى فرعون. فلما مرّ فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم:أدع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمرّ في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز وجلّ فقالت :ويلك على ما تضربني ؟ أتريد ان أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين ؟ و لم يزل يضربها حتى قتلها فانسلخ الأسم الاعظم من لسانه ،وهو قوله تعالى : (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكن أخلد الى الارض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)وهومثل ضربه الله "(تفسير القمي، ج1، ص248).

[2] سورة الاعراف الآية 176

[3] سورة يوسف الآية 24

أمته، والعارفين الفائزين بنور متابعته؛ ولا يفتح على نفسه أبواب التنعّمات والتمتعات الدنيوية، من المأكل والمشرب والملبس والمركوب، وليحترز من أكل الشبهات، والتوسع في الدنيا، والتبسط في البلاء، وتبع الهوى، والإخلاد إلى الأرض؛ فإن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**...﴾[1] تنبيه بليغ في سيره وفكره إلى الدرجة العليا، والرتبة القصوى، بحيث يستحق الرحمة العليا، والدرجة الأعلى.

فإذا التفت إلى ما سوى الحق، وركن إلى أهل الدنيا، ومال إلى الشهوة والجاه فيها؛ تستنزله الغيرة الإلهية، وتستدرجه إلى أسفل دركه، يماثل فيه الكلب، كما قال تعالى: ﴿... **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**...﴾[2] في شهوته وحرصه ﴿... **إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**...﴾[3] أن يصير بالاستدراج، بحيث ان نصحته ووعظته ونبهته عن خباثة حاله وضلالته؛ لم يقبل، ولم يتنبه؛ بل يستقبلك بالدعاوى، ويتشبث بالأعذار، ويقابلك بالإنكار، وينسبك إلى سوء الخلق. وان تركته يخلد إلى أرض الشهوات، ويتبع الهوى، فما أشد سخافة عقل من يدعي العلم والتقوى، ويزعم أن لا يضر اتباع الهوى. أو ما نظر هذا السفيه الأحمق إلى كتاب الله، أو ما تلى آيات القرآن تلاوة فهم وإيقان، ليعلم أن الله تعالى كيف حذر أنبياءه الذين هم أحب خلق الله عن اتباع الهوى، واوعدهم عليه بالضلال، كقوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**... ﴾[4] ﴿...**ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**... ﴾[5] والمراد من التكذيب بالآيات ترك العمل بها، والغرور والحسبان.

---

[1] سورة الأعراف الآية 176

[2] سورة الأعراف الآية 176

[3] سورة الأعراف الآية 176

[4] سورة ص الآية 26

[5] سورة الأعراف الآية 176

وقوله تعالى: ﴿... **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1] أي أخبرهم عن أحوال المغرورين الممكورين، لعلهم يتحرزون عما هم عليه من أعمالهم وأفعالهم.

ثم إن كثيراً ما رأينا جماعة من المتكايسين كياسة عوجاء، وفطانة بتراء ،بعدما اشتغلوا بفنون المقدمات العقلية، والأبحاث الكلامية؛ تشوشت عليهم الظواهر، وتطرقت إليهم اعتراضات، وتخاطرت لهم تناقضات في أصول العقلاء التي تلقفوها منذ أول الصبا تقليداً، وياليتهم اكتفوا بها، و لم يشرعوا في التعرفات الخيالية لأذهانهم القاصرة، فانسلخوا عن التقليد الذي هو أولى للناقصين عن مراتب الوصول إلى اليقين، و لم يصلوا إلى مقام الرجال البالغين العارفين بالمبدأ الحق، العالمين بيوم الدين، فاختل أصل اعتقادهم في الدين اختلالاً عظيماً، وفسد إيمانهم بالآخرة والرجوع إلى الله تعالى بعد الموت فساداً مبيناً، فأضمروا بذلك ضمائرهم، وانحل عنهم عقال الشرع ولجام التقوى، فاسترسلوا في الشهوات، واتباع هوى النفس.

وهذا كله لأن نظر عقلهم كان أمراً مغموراً على صور الأشياء وقوالبها الخيالية، و لم يمد نظرهم إلى أسرارها وحقائقها، و لم يدركوا الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الغيب. ففات عنهم ذلك، وتناقضت لديهم الأمثلة الواردة في لسان الشرائع والنبوات. فلا هم أدركوا شيئاً من حقائق الإيمان بالله، وصفاته، وآياته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، إدراك الخواص، ولا هم آمنوا بالغيب إيمان العوام، فأهلكتهم كياستهم البتراء، وأضلتهم بصيرتهم الحولاء، وتبعهم الآخرون من الحمقى المنافقين والعمى الجاهلين. والعجب من أعمى ناقص أوجب له عماه ونقصانه تقليداً للغير، ثم لم يقلد هادياً ومرشداً، بل قلّد غاوياً هالكاً، فضلّ وأضلّ وغوى وأغوى.

---

[1] سورة الأعراف الآية 176

جون ديدهء دانا بين نداری قايد قرشی به از بخاری[1]

وجملة الأمر أن أكثر أسباب أغاليطهم، ووساوس الشيطان في صدورهم، وخدع الوهم لقلوبهم أمران:

الأول: أن بعضهم ربما اشتغل بالمجاهدة والدخول في الأربعينات[2] والتزيي بزي الصوفية،في لبس المرقعات[3] ، والشروع في أخذ البيعة من المريدين[4]، والإنصات لمقام الإرشاد والهداية، كل ذلك قبل إحكام العلم بالله، وصفاته، وأفعاله، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، ومعرفة النفس الإنسانية ومراتبها في العلم والعمل، وإن أي العلم من العلوم هو المكمل له، والجاعل إياه من المقربين والصائرين منها إلى جوار رب العالمين؛ وإن أي الأعمال هو المعتق لرقبته عن أسر القيود، المنجي له عن حضيض الأجسام إلى شرف الأرواح، المخلص إياه من مصاحبة الموذيات إلى مجاور القادسات.

فهذه شرائط المجاهدة مع النفس، والرياضة لقواها التي هي مطايا الإنسان في السفر إلى الله تعالى، والشروع في سلوك طريق أهل الله وأصحاب القلوب، لمن وفق لها وخلق لأجلها.

---

[1] لأنه ليس ثمة تمييز في رؤية العليم من الممكن ان يكون القائد القرشي من بخارى

[2] الأربعينيات: هو عبارة عن اتخاذ السالك ذكراً معيناً من المرشد أو الأستاذ والمداومة عليه لمدة أربعين يوماً.ثم إن هناك خاصية لعدد الأربعين، وهذا ما يلاحظه المتتبع للراويات الواردة عن أهل بيت العصمة (ع)، فعن الرسول (ص): " من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" .(المجلسي، الشيخ محمدباقر، بحار الانوار، ط2، 1983، بيروت، دار الوفاء ج67، ص242-243) .

[3] المرقعات:" المرقعة: هي لباس مصنوع من قطع مختلفة من القماش حلّت في مرحلة متأخرة مكان الصوف".المرقعة سمة الصالحين وعلامة الطيبين، ولباس الفقراء والمتصوفين. (كشف المحجوب ص254، التصوف الإسلامي للدكتور حسن عاصي ص81)، وقال الجنيد:"إن الأرض لتزهر من المرقعات كما تزهر السماء من الكواكب".

[4] المريدين: جمع مريد: وهو الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنقطعين الى الله بالاسم، وتشهد له قلوب الصادقين بصحة ارادته، و لم يترسم بعد بحال ولا مقام، فهو في السير مع ارادته. (السراج الطوسي، ابو نصر، كتاب اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه سرور، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1960، ص417)

وإلا فالعمل بالتقليد والاقتداء بالصلحاء، لا شك أنه يؤدي إلى النجـــاة، ويـــورث الخلوص عن العقوبة وعذاب الجحيم، والوصول إلى نتائج الحسنات من جنات النعيم. فإن القاصرون وضعفاء العقول إذا رأوا رجلاً وصل في الخلوة، وتكلم بكلام شـــطحي[1]، مـــع تشبه ما في الزي واللباس بالشيوخ والمتصوفة، زعموا أن فيه شيئاً من الكرامات والأحوال.

والثاني: وهو أعظم الأسباب في الإغواء، وأشد الأشياء في إضلال الخلائق عن المحجة البيضاء، وأقواها في إثارة البدع والأهواء، والإنحراف عن سبيل الرشاد، وطريـــق ســـلوك

---

[1]الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهو من زلات المحققين فإنه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة .(الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، دار السرور، بيروت، مادة شطح، ص55 -56

بيان سبب صدور هذه الشطحيات:

إن السالك إلى الله تعالى يمرّخلال سلوكه إلى الله بأسفار أربعة:

أ-: السفر من الخلق إلى الحق.أو السفر من الكثرة إلى الوحدة

ب- السفر من الحق إلى الحق بالحق.

ج- السفر من الحق إلى الخلق بالحق.

د- السفر من الخلق الى الخلق بالحق.

أما ظهور الشطحيّات فإنه يظهر عند انتهاء السالك من السفر الأول، حيث إن السالك تغلب عليه الوحدة ويكون في حالة المحـــو فعند ذلك تصدر منه هذه الكلمات الشحطية (سبحاني ما أعظم شأني).

بينما رأى بعض العرفاء إن هذا الأمر طبيعي للسالك أن تصدر منه هذه الشطحيات، الاّ ان الإمام الخمـــيني قدس سره يـــرى ان سبب صدور هذه الشطحيات من السالك هو بقاء الأنانية بسبب نقص في سلوك السالك، وسبب ذلك: إما لكون الرياضات غير شرعية، وإما أن السالك لم يأخذ من أستاذ مرشد موهل لذلك. يقول الإمام الخميني قدس سره: فينتهي الســـفر الأول ويأخـــذ في السفرالثاني وهو من الحق المقيد إلى الحق المطلق فتضمحل الهويات الوجودية عنده ويستهلك التعينات الخلقية بالكلية لديه ويقـــوم قيامته الكبرى بظهور الوحدة التامة ويتجلى الحق له بمقام وحدانيته، وعند ذلك لا يرى الأشياء اصلاً ويفني عن ذاتـــه وصـــفاته وأفعاله، وفي هذين السفرين لو بقي من الأنانية شيء يظهر له شيطانه الذي بين جنبيه بالربوبية ويصدر منه الشطح والشـــطحيات كلها من نقصان السالك والسلوك وبقاء الإنية والأنانية ولذلك بعقيدة أهل السلوك لا بد للسالك من معلّم يرشـــده إلى طريـــق السلوك عارفاً كيفياته غير معوج عن طريق الرياضات الشرعية، فإن طرف سلوك الباطني غير محصور وبعـــدد أنفـــاس الخلائـــق .(الخميني، روح الله، مصباح الهداية الى الخلافة والولاية، دار الوفاء، بيروت، ص150).

را: أيضا،بدوى، د: عبد الرحمن، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات، الكويت .

يؤدي إلى الهلاك والفساد؛ وقوع شيءٍ مما يسمونه خوارق العادات، ويعدونه من الكرامات؛ وهو من الشعبذة والحيَل، التي يحتالون بها أهل المخاريق والمشعبذون وأصحاب الفال والزجر وأمثالهم.

ولو فرض وقوع شيءٍ مثله عن النفوس الشريرة الخبيثة؛ فهو إما أن يكون من قبيل إصابة العين، أو الشعبذة والحيَل؛ وإن كان مع تعمَل وحيلة، واستعانة بأمور يوجب للحس دهشة، وللخيال وقفة، وفي الناقصين حيرة، كضعفاء النفوس وأقوياء الأوهام من الصبيان والعوام، وإما أن يكون من جملة الاستدراجات التي وقعت، أو سيقع من المدعين الضالين المضلة.

ولم يعلم أحد من هؤلاء الحمقى المريدين المفلسين من العقل والرشاد، العاطلين من الهداية والسداد، أن ظهور شيء من الشعبذة والأمور الغريبة، من مثل هذه النفوس الشريرة، بلا سبق أعمال صالحة، وتهذيب صفات نفسانية، ومتابعة قوانين شرعية؛ أدل دليل على غيه وضلاله، وأعدل شاهد على كذبه ووباله، وفساد عقله وخياله. فإن إظهار خوارق العادات عن مثله ليس إلا شراً وفتنة، ووبالاً على المسلمين، وضراً عظيماً وفساداً مبيناً في الدين، وقى الله شره عن الخلائق، ودفع الله ضره عن الناس أجمعين! ﴿**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1] حيث لم يساعدهم التوفيق، ولم يوافقهم الهداية، فلم يزدهم كثرة الآيات وسهولة المهمات، إلا قسوة على قسوة، ولم يزدهم من مكامن التقدير إلا شقوة على شقوة.

وذلك لأن الله أراهم بعض الآيات، فرأوها بنظر الحس والوهم، ولم يرهم البرهان العرشي الذي يراها القلوب الصافية المتجلية بنور الدين وطاعة الشرع المبين، فيعجزهم عن التكذيب والإنكار، كما في قوله تعالى:﴿...**وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**...﴾[2].

---

[1] سورة آل عمران الآية 188

[2] سورة يوسف الآية24. .

وسئل **الحسين بن منصور**[1] عن البرهان، فقال: "واردات ترد على القلوب، فتعجز النفوس عن تكذيبها". فربما لاح لبعض المغرورين الممكورين، حتى شرعوا في الرياضات، وأخذوا في المجاهدات عن غير قاعدة ونية ولا أصل متين يرجع إليه، ولا شيخ واصل يريهم بواسطة أدنى صفاء روحانية بعض الآيات أو الرؤيا الصادقات. فإذا لم يكن مقارناً برؤية البرهان، ومؤيداً بتأييد إلهي، ومؤكداً بالعناية الأزلية، لم يزدهم إلا عجباً، وحسباناً، وغروراً، وقساوةً وطغياناً.

وأكثر ما يقع هذا للرهبان، والكهنة وكفرة الهند، الذين استدرجهم الحق بالخذلان، من حيث لا يعلمون، لأجل بعض رياضاتهم الفاسدة المشتملة على الإفراط والتفريط، لكونها مما ابتدعوها رغبة في ميل القلوب إليها، وشوقاً إلى طلب الشهرة عند الناس.

وأما هؤلاء البطالين الذين كلامنا فيهم، فهم بمعزل عن هذا المقام أيضاً، لعدم اشتغالهم بالرياضة، والمجاهدة، والخلوة، والعزلة، والصمت وشيء مما فعله الرهبان وبعض أهل الأديان والملل أصلاً، إلا الإشتغال بالشهوات وأكل الحرام والشبهات.

فلما رأيت دفع هذا الشر أمراً مهماً في الدين، ورفع هذه الشبهة وإزالتها عن قلوب المتعلمين وسائر المبتدئين خطباً عظيماً، في تخليصهم عن وساوس الشيطان؛ فاستخرت الله، وشرعت في إزالة وساوسهم، وحل شبههم، وإبطال سفههم، وفك عقدهم، وهدم أغوائهم وأضلالهم، وكسر أصنام خيالهم، وقطع عروق أوهامهم، وحسم باب أحلامهم،

---

[1] الحسين بن منصور الحلاج (244هـ/858 م- 309هـ/922 م) متصوّف فارسي كتب بالعربية، تتلمذ على التستري والمكي والجنيد ثم انفصل عنهم ونبذ حياة العزلة وراح يبشّر بالتصوف في خراسان والأهواز وتركستان ثم حج ورجع من الحج إلى بغداد فالتف حوله التلامذة، لكن السلطة العباسية أوقفته بعدما اتهمته المعتزلة بالشعوذة وحرمة الإمامية والظاهرية، فعُذب وسُجن ثماني سنوات، ثم جُلد وصُلب في ساحة سجن بغداد وأُحرق جسده. من أشعاره في وحدة الوجود:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

(تاريخ الفلسفة العربية لحنّا الفاخوري وخليل الجر، دار الجيل، بيروت،ط3 ج1، ص310-311) .

تقرباً إلى الله تعالى، وتوسلاً إلى أولياء الشريعة الحقة، ورؤساء العصمة والهداية، صلوات الله عليهم أجمعين! فوضعت هذه الرسالة وسميتها: "**كسر أصنام الجاهليـــة**" ورتبتـــها علـــى مقدمة، وأربع مقالات، وخاتمة .

المقدمة

فيما يجب أن يعلم كل واحد لمعرفة حال من يختص بمزيد كرامة وفضيلة بين سائر الناس، وهو أمور:

الأول: أن يعلم أن الإنسان ينتظم ذاته من جوهرين: أحدهما نوراني، والآخر ظلماني. أما النوراني فهو النفس ،وأما الظلماني فهو الجسد. فالنفس حيّة علّامة فعّالة خفيفة، والجسد ميت جاهل ثقيل.

والثاني: أن يعلم أن حصول الكمال الإنساني وفضيلته ومزيته على غيره إنما ينوط بالعلم والعمل بمقتضاه لا غير.

والثالث: أن يعلم أن العلم الذي به يحصل للإنسان المزيّة والكمال، والإرتقاء من درجة البهائم إلى درجة الملائكة المقربين، ليس أي علم كان. فإن كثيراً من العلوم التي اشتغل به الجمهور من علماء الرسوم، هو من قبيل الحِرف والصناعات. وإنما العلم الذي ينفع في الآخرة، مما يعتنيه علماء الآخرة، ويعرض عنه علماء الدنيا، هو معرفة الله، وصفاته، وأفعاله، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وعِلم النفس، وكيفية استكمالها وارتفاعها من درجة الحيوانات الهالكة إلى معارج الملكوت والروحانيات الباقية.

والرابع: إن هذا الكمال العلمي لا يتيسر لأحد إلا بطريق الرياضات والمجاهدات الشرعية والحكمية، وبشرائط مخصوصة قلما يوجد لكل أحد.

ولنوضح هذه الدعوى تفهيماً لمن أراد الفهم بمثال، فنقول: إن مثل النفس الإنسانية في إدراك صور المطالب الحقة، وحقائق الأشياء، كمثل المرآة بالإضافة إلى صور المعلومات. وكما أن المرآة لا ينكشف فيها الصورة بخمسة أمور:

أحدها: لنقصان صورته، كجوهر الحديد قبل أن يذوب ويصقل.

والثاني: لخبثه، وصداه وكدورته، وإن كان تام الكل.

والثالث: لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة، حتى يتعذر بسببه أن يحاذي شطر الصورة وجهتها.

فكذلك جوهر النفس الإنسانية مرآة مستعدة لأن يتجلى فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت النفوس عن العلوم التي جهلتها لأجل أسباب خمسة:

أولها: نقصان في ذاته كنفوس البله والصبيان، فإنه لا يتجلى لها صورة المعلومات لنقصانها بحسب الفطرة، وعدم خروجها من القوة إلى الفعل بالرياضات، والمجاهدات الفكرية، والعملية، الدينية، والعقلية. وهذا بإزاء عدم ذوبان الحديد، وصيرورته خالصاً صافياً يرتسم فيها الصور المرئية.

والثاني: كدورة المعاصي وخبثها الذي تراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات واقتراف الخطيئات، فإنها تمنع صفاء العقل وجلاؤه، فمنع ظهور الحق فيه، وشهود الحقيقة له، بقدر ظلمته وتراكمه. وهذا بإزاء كدورة المرآة وخبثها ورينها وطبعها. كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **كلاَ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿... **فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾[2] وإليه الإشارة بما روي عن النبي ﷺ:"من

---

[1] سورة المطففين الآية 14

[2] سورة المنافقون الآية 3.

قارف ذنباً فارقه عقله، لم يعد إليه أبداً"[1] أي حصل في نفسه كدورة لا يزول أثرها أبداً. وقد بينَا وجه ذلك في بعض **أسفارنا** مشروحاً[2]. وبالجملة .كل معصية يقترفها الإنسان يوجب خسراناً ونقصاناً لا حيلة له في رفعه.

الثالث: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً، فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق، لأنه ليس بطالب للحق، وليس يحاذي بمرآته شطر المطلوب، بل ربما كان مستوعب الهمّ بتفضيل طاعته البدنية، أو تهيئة أسباب معيشته الديناوية، ولا يصرف فكره إلى التأمل في دقائق الحضرة الربوبية، والحقائق الحقة الإلهية، فلا ينكشف له شيء من الحقائق، ولا يتجلى إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال، وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح معيشته؛ نفعه أو ضره إن كان متفكراً فيها.

وإذا كان تقيداهم بالأعمال وتفضيل الطاعات، مانعاً عن انكشاف جليّة الحق، فما ظنك أيها المسكين في حق من صرف عمره في الهم إلى شهوات الدنيا ولذاها، وعلائقها وطيباها، كيف يحصل له شيء من المعارف الحقيقية، أو كيف لا يُمنع من الكشف الحقيقي!؟.

الرابع: الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته، المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق، قد لا ينكشف له ذلك، لكونه محجوباً باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول لحسن الظن، يحول بينه وبين حقيقة الحق، يمنع أن ينكشف في قلبه خلاف ما لقفه من ظاهر التقليد.

وهذا أيضاً حجاب عظيم، به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر

---

[1] الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ج2، ص987 .

[2] الحكمة المتعالية، م.س. ج9، ص136-140

الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض، لأهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في قلوهم، ورسخت في نفوسهم، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

الخامس: الجهل بالجهة التي منها يقع العثور على المطلوب. فإن طالب العلم لا يمكنه أن يحصّل المجهول إلا بالتذكّر للعلوم التي تناسب مطلوبه؛ حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً، يعرفها العلماء بطريق الاعتبار؛ فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب، فيتجلى فيه حقيقة المطلوب لقلبه.

فإن العلوم المطلوبة ليست فطرية، فلا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة قبالها، بل كل علم فلا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى.

ثم كما ان من أراد أن يستنتج رمكة[1]، لم يمكنه ذلك من حمار وبقرة وإنسان، بل من أصل مخصوص هو الفرس الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما إزدواج مخصوص؛ فكذلك كل علم نظري فله أصلان مخصوصان، وبينهما طريق في الازدواج، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب.

فالجهل بتلك الأصول، وبكيفية الازدواج، هو المانع من المطلوب. ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي تحصل الصورة منها.بل مثاله أن يريد الإنسان مثلاً أن يرى قفاه في المرآة بإزاء وجهه، لم يكن قد حاذى به شطر القفاء، وإن رفعها وراء القفاء وبإزائه، كان قد عدل بالمرآة عن عينه، فلا يرى المرآة ولا صورة القفاء فيها، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفاء، وهذه المرآة في مقابلتها، بحيث يبصرها، ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين، حتى ينطبع صورة ما في القفاء في المرآة المحاذية للقفاء، ثم ينطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى، ثم يدرك للعين صورة القفاء.

---

[1] الرمكة: الفرس والبِرْذَونة التي تتخذ للنسل، معرب، والجمع رَمَك. وأرماك جمع الجمع. الجوهري: الرمكة الأنثى من البراذين. (لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي ج5، ط1 مادة رمك).

وكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة، فيها ازويرارات[1] وتحريفات، أعجب ممـا ذكرنا في المرآة، ويعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازويرارات.

فهذه هي الأسباب المانعة للنفوس الإنسانية من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر ملكوتي نوراني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بقوله تعالى:﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...** ﴾[2]. وفي الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه"[3] وإليه الإشارة بما روي في الحديث: "لولا إن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماء"[4] وفي الخبر أيضاً: "لا يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع[5] .

فإذا تمهد هذه المقدمة، تحقق وتبين وانكشف عند ذي البصيرة والعقل المستقيم والطبع السليم المنصف، ان مرتبة العلم والمعرفة التي بهما يقع فضيلة الإنسان، ويتعظم عند الله على سائر الخلائق، وبها يتحقق الرئاسة العظمى والوسطى والصغرى، التي هو النبوة والإمامة والشيوخة[6]، وبها ينوط السعادة الكبرى والمترلة عند الله، وهي المسؤولة في دعاء النبي ﷺ بقوله: "رب أرني الأشياء كما هي"[7]، وبقوله ﷺ "رب أرني الحق

---

[1] كذا في المتن .

[2] الاحزاب – 72 .

[3] بحار الأنوار، م.س. ج58، ص187. وأيضاً ج97،ص 65. وفي الكافي،ج6،ص13.

[4] غوالي اللئالي، المجلد الأول، ص35 .ورواه البخاري في صحيحه عن الرسول ﷺ عند تفسير الآية.... وأورده السيد هاشم البحراني في تفسير البرهان ج3 ص 261، ح5.

[5] الغزالي،محمد، احياء علوم الدين، ج 3 ص12

[6] على نحو اللف والنشر المرتبين

[7] غوالي اللئالي، م.س. ج 4، ص132

حقاً، وأرني الباطل باطلاً "[1] إنما يحصل بالشرائط المخصوصة، ويمتنع بحصول أحد من الموانع الخمسة المذكورة.

فالنفس متى كانت طاهرة الجوهر، صافية الذات، غير متدنسة من الأعمال السيئة، ولا صدية بالأخلاق الرديئة، وكانت أيضاً صحيحة الهمة غير معوجة بالآراء الفاسدة والعقائد الواهية، وتكون مع ذلك ذات قوة فكرية واقعة في طريق الفكر بتحصيل المبادئ والمقدمات اليقينية، فإنها توشك أن تتفطن بالمعارف الإلهية والحقائق الربانية، فإنه يتراءى في مرآة ذاتها صور الأشياء الروحانية.

ومتى كانت كثيفة الجوهر، متدنسة بالشهوات، مقيدة بما يستحسنه العوام، ويقبله من العادات، معرضة عن اكتساب العلوم الحقيقية، واليقينيات والكشفيات، فإنها لا[2] يتراءى فيها شيء من الصور الحقيقية البتة، إلا الصور والعقائد التي لا حاصل لها من قبيل أضغاث أحلام.

ورفع تلك الموانع لا يقع إلا في مدد متطاولة من الليالي والأيام، مع فطنة ثاقبة، وأسباب مهيئة، وأستاذ مشفق متأله رباني شديد التأله والبحث. وأنى يتيسر هذا لمن كان همته الدنيا.

وكما أن الآخرة حرام على أهل الدنيا، فكذلك التفطن بالمعارف حرام على كل من أكثر همه وهمته استجلاب خواطر الخلق. ثم على تقدير خلوص النيات، ورفع الفسادات، ورفع الموانع الداخلية والخارجية، لا تحصل العلوم والمعارف إلا بالأسباب التي ذكرناها، مع الخلوات والرياضات، ومع استغراق النفس في الافكارالعلمية، والانتقالات الذهنية ، وعلى هذا جرت سنة الله التي لا تبديل لها ، ووافقه وطابقه البرهان والكشف.

[1] أنظر تفسير ابن كثير ج1ص258.

[2] في الأصل غير موجود حرف(لا) ولكن الاصح ما اثبتناه.

نعم قد يندر وجود نفس قدسيّة، ونشأة نبوية أو ولويّة يكاد زيتها يضئ، اي زيت نفسها الناطقة التي لها قوة حدسية، قذف فيها نور العلم، ولو لم تمسسه نار التعليم البشري. وليس معنى هذا ان النفوس القدسية تعلم المطالب الكسبية من دون التفطن بمقدماتها ومبادئها، كيف وقد برهن في مظانه: ان العلم اليقيني بذي السبب لا يحصل الا بعد العلم بسببه[1]. بل المعنى انها تتفطن بالمقدمات بسرعة ومن غير ترتيب حدود وسطى، بل مع تحدّس بالمطالب واطلاع عليها وعلى مقدماتها بحسب الكشف. فقد علم ان الجاهل بالمقدمات البرهانية الحقة جاهل بتلك النتيجة البتة.

ومن البديهيات الجلية والأمور الواضحة المنكشفة لكل أحد، فضلا عن من له أدنى فطانة، ان كل من كان فاقدا لشرائط الفضيلة العلمية، أو موصوفا بنقائضها وأضدادها، لم يصلح للشيخية[2] واقتداء الناس به من جهة مزية علمية توهم حصولها له.

ولاشك ان أكثر ما نراه في هذا الزمان، ممن قد نصب نفسه في مقام الخلافة والإرشاد، وتصفية الباطن، وتسوية صفوف المريدين، واعلان أصواتهم بالصيحة والصدى، وتفتيح حناجرهم برفع الذكر ورفع الصوت عند الكبراء، وتوسيع مناخرهم بالأنفاس الصعداء، وبالشهقة والنداء، والتظلم عن المنكرين والخصماء في الدعاء؛ قد تحقق فيهم جميع الموانع الخمسة المذكورة، التي هي نقائض شرائط العلم والمعرفة وأضدادها؛ كما لا يخفى عن الزكي المحقق والبصير المحدّق، عند ملاحظة شؤونهم واطوارهم، والتعمق في أوضاعهم وادوارهم.

---

[1] را: نهاية الحكمة، العلامة الطباطبائي، ج2ص259.

[2] رتبة الشيخية من أعلى الرتب في الطرق الصوفية؛ لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الإقتداءبرسول الله، وهي طريق التزكية. " وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنور العظمة الالهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجذبت أحداق البصيرة الى مطالعة أنوار حلال القدم ورؤية الكمال الازلي" . والشيخ يسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه حتى يصبح المريد" جزء الشيخ كما كان الولد جزء الوالد في الولادة الطبيعية وتصير هذه الولادة المذكورة آنفا ولادة معنوية كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه لن يلج ملكوت من لم يولد مرتين" را: عوارف المعارف، م.س، ص53-54.

أما **أولاً**: فلأنهم كانوا بحسب الخلقة، ضعفاء العقول، غليظة الطبع، عاصية الفكر، قاسية القلوب، غير قابلة للنقوش العلمية، ولا مستعدة للجلايا القدسية؛ كالحديدة الغير مذابة التي هي كالحجارة وأشد قسوة ﴿... **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

وأما **ثانياً**: فلأنهم مع غلظة طبائعهم، وسخافة عقولهم، وعدم لطافة نفوسهم، مشتغلين باللذات، ملطخين نفوسهم بالشهوات، صارفين أعمارهم في استماع اللهوات، وأكل الشبهات، وطعام الظلمة والحكام، ورؤساء الرساتيق[2] واللصوص، وغيرهم من القرويين والبدويين، الذين لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا ينكرون شيئاً من الحطام ومتاع الأنعام، على أي وجه حصل، بعدما كان مجاناً سهل الوصول والالتقام.

ومعلوم عند أهل الحق أن كل شهوة أو خطيئة يرتكبها الإنسان، فبقدر ذلك يكون معوّقاً عن الكمال، ممنوعاً عن الاتصال بفيض علمي يرد عليه من المبدأ الفعّال. فكيف يكون عارفاً إلهياً، وعالماً ربانياً من كان ديدنه وعادته الاشتغال باللذات والشهوات، والاقتراف للسيئات، والمزاولة لسائر الحجب الظلمانية[3] الساترة لوجه القلب عن شهود الحقائق الربانية وشروق المعارف الإلهية.

وأما **ثالثاً**: فلأنهم مع ذلك معرضون عن درك الحقائق، منكرون لطور العلم ومسلك الحكماء، وقائلون صريحاً: ان العلم حجاب، وان العلماء هم المبعدون عن الله. فقل لي أيها العاقل: من أين يحصل للإنسان العلم والمعرفة مع إنكاره للعلوم، وإعراضه من المعارف،

---

[1] البقرة- 74.

[2] الرساتيق: رستق: اللحياني: الرُّزتاق والرُّستاق واحد، فارسي معرب، ألحقوه بقرطاس، ويقال: رُزداق ورُستاق، والجمع الرساتيق وهي السواد. (لسان العرب، مصدر مذكور، ج5، مادة: رستق)

[3] الحجب الظلمانية: هي عبارة عن الذنوب والمعاصي.

وتنفره عن العلماء؟ فإن لكل صنعة أهلاً يجب أن يقصد في تعلمها أهلها وحاملها، كما قيل: استعينوا على كل صنعة بأهلها!

وأما **رابعاً**: أهم مع هذه الحجب الظلمانية محجوبون عن العلوم الحقيقية، والمعارف الربانية، باعتقادات عامية، سيقت لهم وسبقت إليهم منذ أول الأمر، فيما نشأوا عليه في صحبة المعطلين والأرذال، والجهلة والهمج من الرعاع، كقولهم: ان العلم حجاب، وإن الله غني عن عبادتنا، فأية فائدة في إيقاعها، وإن الشريعة لأهل الحجاب لا للواصلين، وانها قشر، ما لم يلفظ لا يمكن الوصول إلى لب الأسرار، وإن الشيخ الفلاني كان يتكلم مع الله مراراً، إلى غير ذلك من الكلمات الواهية، والأقوال الباطلة، التي اشتغلت نفوسهم بها في أول الأمر، وشغفوا بتكرارها، وسمعوا تحسينات العوام فيها، واعتادوا بالإنتعاش إلى غير الحق بسببها.

ومن هذا القبيل ترهات بعض المتصوفة وشطيحاتهم، التي لا معنى لها، وهم مشتغلون بتكرارها وتذكيرها، وسائر ما يجري مجرى هذه الواهيات، من أضغاث أحلامهم. والصور التي يروها في منامهم، ثم ينقلونها لغيرهم؛ مما لا تعبير لها، ولا معنى يعتريها. بل أكثر ما يقولون به في اليقظة أيضاً من قبيل أضغاث الأحلام. فقل يا أيها العاقل الخبير: إذا تسطّر في قلب إنسان هذه الصورة التي لا معنى لها، والنقوش التي لا طائل تحتها، بحيث لا يمكن انمحاؤها أبداً، من الاعتقادات الواهية، والتخيلات الفاسدة، والأحلام الشيطانية؛ كيف ومتى ينتقش في نفسه صور المعقول أو المنقول، وقد اعوجّت بالآراء الفاسدة! فما لم ينمح هذه النقوش الواهية الباطلة عن لوح النفوس، لا يتجلى له صور الحقائق العلمية.

وخامساً: انهم مع هذه الموانع التي يستحيل معها انكشاف العلوم، لو فرض أنها تهذبت نفوسهم، وصارت نقية كما خُلقت أولاً بالفرض والتقدير، متى يمكنهم الوصول بمطلوب من المطالب العلمية، مع الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على ذلك المطلوب!؟ وقد بينّا أن كل مطلوب كسبي له جهة مخصوصة، ومقدمات سابقة، لا يمكن التوصل إليه

إلا بالتوصل إلى تلك المبادئ، سواء حصلت بطريق حدسي كما للأنبياء والأولياء، أو بطريق فكري كما للحكماء والعلماء، وأنى يتيسر لهم الرجوع إلى الفطرة الأصلية، ثم الاشتغال بكسب العلوم وتحصيل المعارف في مدة قليلة؛ وأين لهم هذه المهلة من العمر، وقد انقضت أيامهم، وتصرّمت أعمارهم في الاشتغال بغير الحق! و"**كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له**"[1] ﴿**...وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[2].

كشف غطاء:

إن ما بين مذهب التحقيق ومشرب **الزنديق** فرقاناً بيّناً، يعرفه أهل النظر الدقيق والفكر العميق. ومن الأمور المقررة عند أصحاب المعرفة والدين، المنكشفة عند أولياء الكشف واليقين: إن النفس إذا عميت عن أمر مرجعها وعالمها، وخفي عليها معرفة مبدئها ومعادها؛ اشتغلت عند ذلك بالمحسوسات، واستغرقت في بحر الشهوانيات[أبحر الشهوات]، ونسيت ذاتها وتوهمت أنه لا وجود لشيء إلا للحسيات، ولا اعتماد إلا على المشاهدات، التي ينالها الحواس الظاهرة من الدنيويات. ولو توهمت أمور الآخرة لتوهمتها بعينها كالدنيا وزهراتها وشهواتها على وجه أدوم وألذ وأوفر. فلهذا يركن بحسب طبعها إلى الدنيا ويرضى بها ويطمئن إليها، وييأس من الآخرة وينسى أمر المعاد، كما ذكر الله تعالى فقال:﴿... **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** ... ﴾[3] وقال تعالى: ﴿... **يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**﴾[4].

وأعظم حجاب النفس عن ربها، إنما هو جهالتها بجوهرها، وعالمها ومبدئها

---

[1] حلية الأولياء ج6، ص294

[2] البقرة، 213

[3] يونس، 7

[4] الممتحنة، 13

ومعادها، وإن جهالتها إنما هو من الصدأ والطبع الذي تركب على ذاتها، ونفذ في جوهرها، بسبب سوء أعمالها، وقبح أفعالها، ورداءة أخلاقها وملكاتها، كما مرّ من الاستشهاد بقوله تعالى ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]. وأما اعوجاجها فهو من أجل الآراء الفاسدة، كما قال تعالى:﴿...فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

واعلم أن النفس ما لم تزهد في هذه الشهوات الدنيوية، واللذات الحيوانية، لا تبصر ذاتها النيّرة، ولا تفتح لها أبواب السماء، ولا تتراءى في ذاتها الأشياء الشريفة اللطيفة الشهية، التي في عالمها، والصور الحسنة، واللذات البهية الأخروية، التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿...وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4].

---

[1] المطففين- 14

[2] الصف- 5

[3] الزخرف- 71

[4] السجدة- 17



المقالة الأولى

في أن لا رتبة عند الله أجلّ من المعرفة بذاته وصفاته وأفعاله وأن العارف هو العالم الرباني وأن كل من هو أعلم فهو أعرف وأقرب عند الله

هذه الدعوى غنيّة عن البيان عند ذوي البصائر، وقد مرّ من الكلام ما ينكشف به هذا المقام، من جهة أن أفضل أجزاء الإنسان هو القلب الحقيقي، وهو شيء غير منقسم، ليس تمامه وكماله إلا بالعلم والمعرفة، ولا شك أن أفضل المعلومات هو الباري جلّ ذكره. فكمال هذا الأمر البسيط الإنساني ـــ الذي هو رئيس سائر القوى والأعضاء ـــ بالعلم بالله، لا بالأكل والشرب وسائر الأفاعيل والانفعالات، التي هي كمال سائر القوى والأجسام. ﴿ **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1]. فظهر من هذا أن أفضل الناس من صرف عمره في تعمير القلب بذكر الله ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ...**﴾[2] وكان أفضل الأنبياء ﷺ مأموراً باستزادة العلم، في قوله تعالى:﴿...**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾[3]ومن الألفاظ المنقولة عنه ﷺ "كل يوم لا ازداد فيه علماً فلا بورك في صباح ذلك اليوم"[4] فإذا كان أفضل الخلق كذلك فما حال غيره؟! وقد ذكرنا أن هذا العلم ليس يلزم أن يكون من العلوم الظاهرة، التي أكب عليها أهل البحث، بل ما ينكشف للعارف من أحوال القيوميّة وكبرياء الربوبية، وتركيب نظام الوجود، وعوالم الملكوت، وأحكام البرازخ العلوية والسفلية، وأسرار السماويات والأرضيات كما قال الله سبحانه:﴿**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ**

---

[1] الذاريات- 36.

[2] التوبة- 18.

[3] طه- 114.

[4] الفتني، محمد طاهر بن الهندي، تذكرة الوضوعات، وعن رسول الله ﷺ :" كل يوم لا أزداد فيه علماً يقربني من الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ". ص22.

وَالْأَرْضِ... ﴾[1]. ثم ليس كل ما يحيط به علوم المحققين مما يمكن استيداعه في حيّز العبارات، كيف وقد حرّم إفشاء سرّ القدر، على ما هو المنقول من الرسول ﷺ بقوله "القدر سرّ الله فلا تفشوه"[2] ورب علم لا شبهة المعارف في تحقيقه، ومع ذلك يحرم عليه كشفه لأحد من الناس. وأنت كما علمت أن من جملة مملكة الآدمي ليس إلا جزءاً واحداً يستعد لحمل الأمانة، والباقي بمعزل عنه، فقس عليه حال معمورة واحدة من الدنيا، فاحكم بأن وجود العارف أعزّ من الكبريت الأحمر.

فصل

في أن من شرع في المجاهدة والرياضة، قبل إكمال المعرفة وأحكامها بالعبادات الشرعية، فهو ضال مضل، وغاوٍ مغو؛ والجلوس معه في مجلس جماعته وحضور مريديه، مميت للقلب، ومفسد للدين، وضار بعقائد المسلمين

أعلم: أن العبادة بدني وقلبي، جهري وسري.

أما **الأولى**: وهي الشريعة الناموسية باتّباع صاحب الشريعة، والانقياد إلى أوامره ونواهيه، والمسارعة إلى ما جاء به الرسول، والإيمان بما قضى الله وحكم، والتصديق بما وعده

---

[1] الفرقان- 6.

[2] هذا الحديث ورد عن امير المومنين ﷺ ففي بحار الأنوار روي أن أمير المومنين ﷺ سئل عن القدر، فقيل له: "أنبئنا عن القدر يا أمير المومنين، فقال (ع): سر الله فلا تفتشوه، فقيل له الثاني: أنبئنا عن القدر يا أمير المومنين، قال ﷺ : بحر عميق فلا تلحقوه [فلا تلجوه خ ل]" بحار الأنوار، ج5، ص 97.، وروي أيضا عنه ﷺ أنه جاء رجل إلى امير المومنين ﷺ فقال:"يأمير المومنين أخبرني عن القدر، فقال : بحر عميق فلا تلجه. فقال: يأمير المومنين أخبرني عن القدر، قال: طريق مظلم فلا تسلكه. قال: يا أمير المومنين أخبرني عن القدر، قال: سر الله فلا تتكفله " بحار الانوار، ج5، ص110.

وعنه أيضا ﷺ :" ألا إن القدر سر من سر الله، حرز من حرز الله، مرفوع في حجاب الله، مطوي عن خلق الله. مختوم بخاتم الله، سابق في علم الله..." بحار الانوارج5،ص97. إلا ان هناك روايات فسّرت معنى القدر وتحدثت عن مجالات القدر، وهذا يودي إلى التعارض البدوي بين الروايات من القسم الأول والروايات من القسم الثاني. إلا انه يمكن ان يجاب عن هذا التعارض البدوي بأمور منها : ا- ضعف سند الروايات التي نهت عن الحديث في القدر

ب- إن النهي متوجه إلى اشخاص يضرهم ويفسدهم الخوض في مثل هذه الاحاديث، وإلا فان العلماء لا يشملهم هذا النهي.

ج- لو كان الامر منهيا عنه لما أجاب أئمة أهل البيت ﷺ عن السوال، وهذا مانجده في الروايات التي فسرت معنى القدر ومجالاته.

الشارع وأوعده للمطيع والعاصي، ورجاء الثواب الجزيل والاجر الجميل لمن أطـاع الحـق، واستجار إلى مولاه، وتقرّب إلى الله سبحانه، وسائر ما ذكر الرسول وأوصيائه عليهم السلام من قبل الحق تعالى، أن ذلك مرضيّة تعالى من القرابات والعبادات، والطهـارات، والصـوم، والزكاة، والحج، والجهاد، والسعي إلى البيوت العامرة والبقاع الطاهرة، والإقرار بكتـب الله ورسله وملائكته ووحيه، وما شاكل ذلك من موجبات أحكام الشرع، وإقامـة النـواميس، والتضرّع إلى الله تعالى بالدعاء والابتهال في وقت الجموع والجماعات، في الأعياد والجمعات، وعند ظهور الآيات.

وأما **العبادة الثانية:** فهي العبادة الذاتية، والعبودية الحكمية، والطاعة الملكوتيّة، الـتي معظمها معرفة الحق الأول، وما يليه من المقربين، والأنبياء والمرسلين، والأوصياء المطهـرين، والعلم بكيفية انبعاث الرسل ونزول الكتب، ومعرفة النفس الإنسانية، وصيرورتها في المعـاد: أما في سلك الملائكة المقدسين إنْ سلكت طريق المعرفة والسداد، وأما من جملـة البـهائم أو الشياطين إن اتبعت الأهواء وانحرفت عن الصراط المستقيم، ومعرفـة المعـادين الروحـاني والجسماني[1]، وأحوال طبقات الناس يوم القيامة، على ما هو مفصّـل في الرمـوز الإلهيـة، والإشارات النبوية، والخطب والمواعظ الولويّة، ثم الاعمال والعبادات التي مبناها هذه المعارف والرياضة المنبعثة عن المعرفة، وهي متوجهة نحو أغراض ثلاثة:

الأول: ترك الالتفات إلى ما دون الحق وعزلها عن سنن الإيثار، ويعين عليـه الزهـد الحقيقي والإتّقاء عن كل خاطر يرد على السالك[2]. ويجعله مائلاً إلى غير الحق، ويجـرّه إلى الجنة السافلة.

والثاني: استخدام القوى النفسيّة والبدنيّة فيما خلقت لأجله، واعمـال الجميـع في الأمور المناسبة للأمر القدسي، لينجذب مع القلب بالتعويد من جناب الغرور ومعدن الدثور

---

[1] صدر المتألهين، مفاتيح الغيب، المفتاح الثامن عشر، والمفتاح التاسع عشر.

[2] ن. م، المفتاح الرابع، 225 ــ 240.

إلى جناب الحق، ومنبع الخير والسرور، ويعين عليه سماع المـواعظ، وخطابـات المتـألهين، بعبارات بليغة، يسمعها من القائل الذكي، فإنها أعظم نفعاً في الترغيب والترهيب من كـثير من البرهانيّات، لأنها تحرّك النفس تحريكاً لطيفاً، خصوصاً إذا كانت مع الألحان المسـتخدمة لقوى النفس في الأمر العالي.

والثالث: تلطيف السر لقبول تجلّيات الحق، وتصير النفس مرآة مجلّوة يحاذي بها شطر الحق، ويعين عليه الفكر اللطيف، والعشق العفيف.

فقد تحقق وتبين مما ذكرناه من كيفيّة العبودية العقلية، والسلوك القدسي: أنه لا يجوز ولا يتيسر للإنسان متى كان مقصّراً في العبادات الشرعيّة، أن يتعرّض بشيء من العبـادات الحكْمِيّة، والرياضات السلوكية والمجاهدات التصوفيّة، وإلاّ هلك وأهلك، وضـلّ وأضـلّ، وغوى في غيابت حب الهوى.

روى الشيخ العالم أمين الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني في كتاب الكـافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من عمل على غير علم،كان ما يفسد أكثر مما يصلح"[1] .والأحاديث في هذا الباب كثيرة. وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ما اتخذ الله ولياً جاهلاً "[2] ، وقال أيضا صلى الله عليه وآله وسلم: "قصم ظهري رجلان: علام متهتّك، وأعظـم منه جاهل متنسك"[3]. وقيل شعراً :

فسـاد كـبير عـالم متـهتك	وأعظـم منـه جاهـل متنسـك
همـا فتنـة للعـالمين عظيمـة	لمـن بهمـا في دينـه يتمسـك

[1] الأصول من الكافي، مصدر مذكور، ج 1، ص 44.

[2] النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ج3، ص 113.

[3] ن. م، ج1، ص 51.

تنبيه وتفهيم

ان الذين نصبوا أنفسهم في هذا الزمان في مقام الإرشاد والخلافة، جلّهم بل كلّهم حمقى جاهلون بأساليب المعرفة والرشاد، واستكمال النفس واستقامتها في السداد، وأكثرهم ذهبوا إلى منع الصوَر الإدراكية، وسدّ أبواب المعارف والعلوم، التي هي الأمثلة للأعيان الخارجية، زعماً منهم أن هذا العمل من الطالب هو الذي يبعّده للتوجه نحو المبدأ الفياض. و لم يعلموا أيضاً بأن عزلها عن تحصيل ما لها من الكمالات، يوجب ركوبها إلى صور مشوشة يخترعها الخيال، وذلك هو الظلم والوبال، والضلال والإضلال، وهم مع هذا يسمّون ذلك معاينة ومكاشفة.

وهم وتزييف

إن بعض البطالين الفرغ الهمم، المعطّلة النفوس، استثقلوا المجاهدة والرياضة، والاشتغال بطلب العلوم الحقيقية، وكسب المعارف اليقينية، و لم تسمح نفوسهم لقصورها عن درك الحقائق، وانحطاطها عن الوصول إلى ما ابتغاه الأصفياء والعلماء، بأن اعترفوا على حقيَّة العلوم وعلوّ درجة حامليها؛ بل زعموا لنقص فطرتهم، وخبث دخلتهم، ودغل جوهرهم: أن ليس حقيقة شيء من الأشياء معلومة لأحدهم من الناس، وأن العلوم حجب عن الوصول.

و لم يعلموا أنّ العلم صفة سيد المرسلين ﷺ وأفضل أعمال الأوصياء المرضيين، وهو على التحقيق شطر عظيم من صفات المؤمنين، ومتن متين من الدين، وثمرة مجاهدة المتّقين، وحاصل رياضيات العابدين، والجهل والغواية إذا كان مشفوعاً بالعناد والإصرار وطلب الرئاسة والاستكبار، من السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، ومن الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة.

كما انّ المعارف والاخلاق الجميلة، والآداب المرضية، هي الابواب المفتوحة الى نعيم الجنان، وجوار الرحمان. فالجهل والاصرار، وطلب العلو والاستكبار، وسائر الاعتقادات الرديّة والآراء الفاسدة؛ كلها نيّرانات ملتهبة في نفوس معتقديها، وحرقات مشتعلة في قلوبهم، مؤلمة إلى وقت معلوم، معذّبة لهم إلى أجل معدود، ومهلكة لهم، ومهويّة بعد ذلك إلى الجحيم.والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب، وأسقام النفوس، لأنه مرض على حياة الأبد، وأنّى منه المرض الذي لا يفوت [به] إلا حياة الجسد! ومهما اشتدت عناية أطباء الأبدان، لضبط قوانين معالجة الأبدان، وحفظ صحتها، ودفع الأمراض عنها، وليسفي مرضها إلاّ فوت حياة فانية، فيجب أن يكون عناية أطباء النفوس الذين هم الأنبياء والأولياء عليهم السلام لضبط قوانين العلاج لمرضى النفوس التي معظمها الجهل، وخصوصاً إذا كان راسخاً، وفيها فوت حياة باقية أشد وأولى. وهذا النوع من الطلب تَعَلُّمه واجب عيني على كل ذي لُبّ.

وإنما ابتلي بهذا المرض المعذّب للنفس، المؤلم للقلب، أكثر من ترك ذكر الله، واشتغل بغير الله، معرضاً عن معرفة الله وكيفيات صفاته وأفعاله، ونظمه الوجود على أحكم نظام وأتقن ترتيب. وذكر الله ليس مجرد تلفّظ اللسان بالحروف والأصوات، كما هو عادة المتسبين إلى أهل التوحيد في عرف أبناء الزمان، فإن هذا توحيد لفظي لا ينتفع به أحد في عالم الاخرة، وصقع الربوبية؛ بل نفعه لا يتعدى من عالم الألفاظ والأصوات، وعالم الأسماع والآذان المتعلقة بالمسموعات.

وقد تقرر في العلوم التي يُبحث فيها عن العلل والغايات: إن غاية كل شيء ما يجانسه ويشاكله. فغاية التوحيد السمعي هو مجرد السماع الذي يكون كمالاً وزينة للإسماع، كما أن إرادة الرجل شخصه موحّداً غايته مراءاة ظاهر التوحيد ودعواه، لا حقيقته التي هي روحه ومعناه. فالسمعة والرياء ثمرتان حاصلتان من التوحيد اللفظي والصوري، إنما ينتفع صاحبهما بهما نفع سائر الأمور المحسوسة الجسمانية، والأشياء الخسيسة الحيوانية، التي هي أسباب للمعيشة الدينويّة، وموصلات إلى المطالب الحسيّة من اللذّات الفانية للقوى البدنية.

كشف وتوضيح

إن من الألفاظ المشتركة التي يوجب إجمالها واشتراكها المغالطة للأكثرين، هو لفظ الذكر والتذكير. وقد قال الله تبارك وتعالى:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقد وردنا في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة. من ذلك ما روي أنه قال رسول الله ﷺ "إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق، إذا رأى مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً: ألا هلمّوا إلى بغيتكم فيأتونهم، ويحفون بهم، ويسمعون ألا فاذكروا الله واذكروا أنفسهم"[2]. والغرض منه معرفة الحق الاول، والتنبيه على حقيقة النفس وعيوبها، وآفات الأعمال ومفسدات الأفعال، ومعرفة إلهامات الحق ووجه الاجتلاب لها، وكيفية تقصير العبد في حمده وشكره، والرضا بقضائه وقدره، وتعرّف حقارة الدنيا وعيوبها، وتصرّمها وفنائها، وقلة عهدها وبقائها، وخطر الآخرة وأهوالها، ودرجات النفوس بعد الموت وأحوالها. فهذا هو معنى الذكر الحقيقي.

وفي التعبير عن معرفة الحق وصفاته، وعلم النفس وسماها بالذكر سر خفي يعلمه العارفون بأذواقهم، دون الجاهلون والمتشبّهون بأهل الحق في مجالسهم وأسواقهم. وهذا هو التذكير المحمود شرعاً، الممدوح عقلاً، الذي دلّ عليه البرهان الكشفي، وورد عليه الحث الشرعي، في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث ورد أنه قال: "مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضر مجلس العلم أفضل من شهود ألف جنازة. قيل يا رسول الله ﷺ ومن قراءة القرآن؟ فقال ﷺ وهل ينفع قراءة القرآن إلا بالعلم"[3].

---

[1] الذاريات، 55.

[2] ورد في مضمونه في كتاب البداية والنهاية. لابن كثير ج1، ص 56.

[3] ورد في مضمونه في كتاب احياء علوم الدين.

فقد اتخذ المزخّرِفون والبطالون أمثال هذا الحديث وغيره، حجة على تزكية أنفسهم، ونقلوا أسم التذكير إلى خراباهم، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود، واشتغلوا بالأصوات والحروف، وما يواظب عليه أكثر الوعاظ والقصاص في هذا الزمان، وهو القصص، والحكايات، والشطح، والطامات[1].

وأكثر ما اعتاده عامة المتصوفة، وعوام الوعاظ في هذا الزمان، كلمات مزخرفة شعريّة، يكون يكثر في المواعظ مذموماً[2]. قال الله تعالى: ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ** ﴾[3] . وقال تعالى:﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** ﴾[4].

ومجالس هؤلاء القوم مشحونة بالأشعار، مما يتعلق بالتواصف في العشق، وجمال العاشقين، وشمائل المحبوبين، وروح وصالهم، وألم فراقهم. والمجلس لا يحويه إلا أجلاف العوام وسفهائهم، وقلوبهم محشوّة بالشهوات، وبواطنهم غير منفكة عن الالتذاذات والالتفاتات إلى الصور المليحة. فلا يحرّك الأشعار المشفوعة بالنغمات من نفوسهم، إلا ما هي مستكنّة من الأمراض والشهوات المخفيّة.

وقد قيل: مثل السماع[5] في النفوس، مثل الزند والمقدحة للنار، فيهيج لكل أحد ما تمكن فيه، فمن كان مريض النفس ناقص الهمة من العوام والأرذال، فيشتعل فيهم نيران

---

[1] الطامات : عند الصوفية يطلقونها على المعارف التي تجري على لسان السالك أثناء السلوك . وأيضاً يطلقونها على خرق العادة والكرامة.(نقلا عن كتاب كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي)

[2] كذا في الاصل

[3] الشعراء- 224

[4] يس- 69

[5] السماع: وقد قيل السماع حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه، أي يتنبه منه كل أحد إلى المقصود الخاص به، وهو على ثلاث درجات:1 ـــ سماع العامة 2 ـــ سماع الخاصة 3 ـــ سماع خاصة الخاصة، وقد جعله الخواجة الأنصاري آخر باب من قسم البدايات. (بتصرّف عن شرح عفيف الدين التلمذاني على منازل السائرين، ص 113 ـــ 116 انتشارات. بيدار) را ايضا: عوارف المعارف للشهرازي، ص 104 -123.

الشهوات الخامدة الكامنة، التي لم يجد فرصة البروز والاشتعال، فيزعقون ويتواجدون، ويعدون ذلك محبة إلهية وعبادة دينية، سوّد الله تعالى وجوههم في الدارين بما ظهر فضيحتهم بالمشعرَين، وكشف عن خبث باطنهم ودغل سريرتهم في الموقفين.

فصل

في بطلان شطحيّات المتصوفين وضرر استماعهم للمسلمين

اعلم: أن المراد بالشطح والمعنيّ به صنفان من الكلام الصادر منهم:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله، والوصال معه، المغني عن القيام بالأعمال الظاهرة، والعبادات البدنية، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد[1]،وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب.

فيقولون: رأينا كذا، وقيل: لنا كذا. ويتشبّهون **بالحسين الحلاج** الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: (أنا الحق). وبما يحكون عن أبي يزيد البسطامي[2]من أنه قال: (سبحاني سبحاني ما أعظم شأني)[3].

---

[1] الاتحاد : صيرورة شيئين شيئاً واحداً من غير زيادة ولا نقصان. فان قيل ما الدليل على ان الله تعالى لا يتحد بغيره ؟ فالجواب : الدليل على ذلك من وجهين :

اما الاول: فلأن الاتحاد غير معقول .

وأما الثاني: فلأن الواجب لو اتحد بغيره لكان ذلك الغير اما واجباً أو ممكنا. فان كان واجباً لزم تعدد الواجب وهو محال. وان كان ممكناً صار الواجب ممكناً وهذا خلف. (المفيد، محمد بن محمد النعمان، النكت الاعتقادية، تحقيق رضا المختاري، دار المفيد، بيروت، ط2، 1414 هـ، ص 29 .

[2] أبو يزيد البسطامي: (توفي سنة 260هـ/874م)، يعتبر من أشهر متصوفي القرن الثالث الهجري، قضى الشطر الأكبر من حياته زاهداً متقشفاً في بسطام، وقد حاول الوصول إلى الاتحاد عن طريق التجريد والفناء بالتوحيد، فتوصل إلى درجة مكنته من أن يقول: (سبحاني ما أعظم شأني). تاريخ الفلسفة العربية، حنا الفاخوري، خليل الجر، ج1، ص 309، دار الجيل، ط3.

[3] أنظر للمزيد، شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي.

وهذا فن من الكلام عظم ضرره في العوام أعظم من السموم المهلكة للأبدان، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، واظهروا مثل هذه الدعاوى. فإن مثل هذا الكلام يستلذّه طبائع الأنام، إذ فيه البطالة في الأعمال بتزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا يعجز الأغنياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلفيق كلمات مخبطة مزخرفة.

ومهما أنكر أحد عليهم لم يعجزوا أن يقولوا: إن هذا الإنكار مصدره العلم والجدل، وعدم تفطن العلماء الظاهريين بأغوار كلماتنا وأسرار أحاديثنا، لان العلم حجاب والجدل عمل النفس،وهذا الحديث وأمثاله لا يلوح الا من الباطن بمكاشفة نور الحق ،ولا يفهمه الا من هو من أهل المكاشفة ،فهذا أحد مغاليطهم للخلق، وأفسادهم لعقائد المسلمين ،وايقاعهم في الزيغ والضلالة، وهو مما قد أستطار ضرره في البقاع والبلاد، وأنتشر شره في قلوب العباد. ومن نطق بشيء من هذه الكلمات فقتله أفضل في دين الله من احياء عشرة.

وأما ابو يزيد البسطامي فلا يصح عنه ما حكي عنه لا لفظا ولا مفهوما ومعنى، وإن ثبت أنه سمع منه ذلك، فلعله كان يحكي عن الله تعالى في كلام يردّد في نفسه، كما لو سمع منه وهو يقول: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني" فانه ما كان ينبغي أن يقال ذلك إلا على سبيل الحكاية .

والصنف الثاني من شطحياتهم: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس ورائها طائل؛ وتدهش العقول، وتحيّر الأذهان؛ أو يحمل على أن يفهم منها معان ما أريد بها، ولا يكون لها مفهوم عند قائلها أيضا، بل عن خبط في عقله، وتشويش في خياله.

وقد يكون من قبيل ما يقال له الطامات، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، لا يسبق منها إلى الأفهام؛ كدأب الباطنية في التأويلات.

وهذا أيضا حرام شرعاً وعقلًا :

أما في العقـــل :فلأن العـــوالم متطـــابقة والنشـــآت متحـــاذية .فكمـــا أنّ الحشـــوية[1] والكرَامية[2] ينظرون في الأحكام بالعين العوراء، ويقتصرون علـــى الظـــواهر، وينكرون عالم الأسرار،ومعدن الأنوار، فكذلك الباطنية[3]، حيث يهملون الكلام والآداب الظاهرة،ويتركون العمل بالشريعة الحقّة، ونبذوها وراء ظهورهم .

---

[1] الحشوية في اللغة : ما يملأ به الوسادة، وفي الاصطلاح: عبارة عن الزائد الذي لاطائل تحته. وسميت الحشوية حشوية لأنهم يحشون الاحاديث التي لا أصل لها في الاحاديث المروية عن رسول الله ﷺ. وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، وأن الله تعالى موصوف عندهم بالنفس واليد والسمع والبصر". التعريفات للجرجاني ص390. را ايضا: دائرة المعارف الإسلامية ج7ص439.

سبب آخر للتسمية:

نقل الشيخ محمد زاهد الكوثري في تقديمه على كتاب "تبين كذب المفترى"وجها آخر وقال:كان الحسن البصري من حلة التابعين ومن أستمر سنين ينشر العلم في البصرة، ويلازم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه يوما أناس من رعاع الرواة ولما تكلموا بالسقط عنده قال هؤلاء الى حشا الحلقة أي جانبها فسموا الحشوية، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة" نقلا عن كتاب بحـوث في الملل والنحل، للسبحاني، ج1، ص124-125.

را أيضاً: اللوامع الآلهية في المباحث الكلامية، جمال الدين مقداد الاسدي السيّوري.وأيضا الأنوار الجلالية للمولف ذاته.

[2] الكرامية: هذه الفرقة أصحاب أبي عبد الله بن محمد بن كرّام السجستاني، الذي ظهر سنة مائتين من الهجرة وكان شخصـــا قليل العلم، متلبسا بالزهد، أخذ من كل مذهب ضغثا .

وكان محمد بن كرّام المذكور قدم نيسابور أيام الحكومة الظاهرية فحبس باشارة العلماء، وبقي في السجن بضع...وتوفي بالشـــام سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة وعكف أصحابه على قبره مدّة. وقاعدة مذهبه التجسيم، وتوصيف الواجـــب بـــأمور -حادثة، وكل ما يذكره أصحاب الملل والنحل يرجع الى هذا الأصل .وأما أصنافهم فقد ذكر البغدادي ان للكرامية بخراسان ثلاثة أصناف، وذكر الشهرستاني لها أثنتي عشرة فرقة وان أصولها ستة .

را: بحوث في الملل والنحل، السبحاني، مصدر مذكور، ج3، ص149 -150. را: تاريخ علـــم الكـــلام في الاســـلام. م.س، ص80-84.

[3] الباطنية :الفرق الباطنية بجميع فروعها لا تتمسك بشيء من أحكام الأسلام سواء بالأصول أو الفروع .ومن أبرز فرق الباطنية: الاسماعلية، وهم أتباع اسماعيل بن الامام جعفر الصادق عليه السلام وتوفي في حياة أبيه بلا خلاف كما يشهد به التواريخ والاحاديـــث، وذلك في سنة 145 أو سنة 133 على قول ضعيف. ووفاة الامام الصادق عليه السلام في سنة 148 هـــ بإجمـــاع المـــورخين مـــن الفرقتين، وصلى عليه أباه عليه السلام ودفنه ونزل معه في قبره، وكشف عن وجهه بعد ما فرغ عن غسله، وأراه الناس ليحصل لهم اليقين بموته،فكيف تثبت إمامته مع ثبوت إمامة أبيه؟. وأما القول :ان اسماعيل توفي سنة 159 مما لا أصل له، ويعدّ من الاغلاط، فـــان وفاته في حياة أبيه عليه السلام من اليقينيات.-

وكلتا الطائفتين عمياء عوراء دجالون في إدراك حقـائق الأشـياء، إلا أنّ عمـى أحـداهمـا في يمـنى عينـاها، وعمـى الآخـر في يسـراها، والمحقـق العـارف البصير المدقق هو ذو العينـين السليمين[1]، ينظر إلـى الاشياء نظـرا صحيحا من غـير عور الحشوية والباطنية، وعمش الاشعرية[2] والمعتزلة[3]، وكمه الجاهلية، وعمـى العامّيـة،

-وأما عقائدهم فإنها قائمة على أصول باطنية

را :اللوامع الآلهية في المباحث العقائدية،مصدر مذكور،ص378-381 .

وأيضاً:كوربان، هنري، تاريخ الفلسفة الاسلامية، عويدات للنشر،ط2، ص132 -168.

وأيضاً:فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة الاسلامية،الدار المتحدة للنشر،ط1974، الباب الخامس

[1]إشارة الى الحديث المروي عن رسول الله ﷺ :" كان أخي موسى عليه السلام عينه اليمنى عمياء، وأخي عيسى عينه اليسرى عمياء، وأنا ذو العينين" را: روح الله، الخميني، شرح دعاء السحر،ط2، بيروت، دار الوفاء، ص23

[2] الأشعرية:كان ابو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري متلمذاً على أبي علي الجبائي أحد شيوخ المعتزلـة المشـهورين، ومتبعـاً لأقاويله، وتعلّم منه قواعد الكلام حتى برع فيه وقهر.

وأتفق أنه جرت بينه وبين أستاذه مراجعة ومناظرة في بعض مسائل التحسين والتقبيح لم يوافقه فيه،فأظهر مخالفته، وترك مـذهب الاعتزال، ورجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة .

وصعد يوماً من أيام الجمعات كرسياً بجامع البصرة ونادى بأعلى صوته:"من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى بالابصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد الرد على المعتزلة، ومبيّن لفضائحهم ومعايبهم،وآخذ من ذلك الوقت في الرد عليهم " .

(فضل الله الزنجاني، تاريخ علم الكلام في الاسلام، تحقيق وتعليق قسم الكلام في مجمع البحوث الاسلامية،ط1، 1997،ص67)

را: بحوث في الملل والنحل، السبحاني، ج2.

را: تاريخ الفلسفة الاسلامية،هنري كوربان.

[3]المعتزلة: هناك آراء عديدة في سبب تسميتهم بالمعتزلة راجع لذلك :بحوث في الملل والنحل للسبحاني ج3،ص175 وما بعد.

والمعتزلة أشهر الفرق الاسلامية التي ظهرت في القرن الثاني وما يليه .ثم أستفحل أمرها، وتشعبت مسـالك كلماتهـا، وكثـرت فروعها، ونشأ منهم النظّار والمجادلون والمتكلمون .

ثم ان المعتزلة بعد ما شاعت أقاويلهم وكثر فيهم النظّار،توغلوا في مناهج الكلام، وبعد ان نقلت كتب الفلسفة من لغـة اليونـان وغيرها الى العربية، تهافت شيوخ الاعتزال الى مطالعتها ومدارستها، وحصّلوا بذلك قوة في الجدال مع مناظريهم، وأيدوا آراءهـم بحجج عقلية، وقد تشعّب مذهب الاعتزال إلى فرق يخالف بعضها بعضاً...

وبلغت طريقة مذهب الاعتزال أوج مجدها وشامخ عزّها ا في أبتداء العصر العباسي، ولا سيما زمن المأمون والمعتصـم والواثـق الذين كانوا من دعاته والقائمين بنصرته .وفي ايامهم وقعت حوادث المحنة التي طال شررها،وأشتهر من بين رجالها بالاضطهاد أحمد بن حنبل...(تاريخ علم الكلام في الاسلام، م.س.،ص 61 -66 .بتصرّف).

ثم ان مذهب الاعتزال ينقسم إلى مدرستين أساسيتين:-

ورمـــد الدهـــرية[1] والطّباعيّة[2]، فيحفظ الجانبين، ولا يرفض أحدى النشأتين، ولا يهمل أحكام العالمَين.

وأما كونه حراماً في الشرع، فلأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغـــير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل؛ أقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، كيف ولو جاز صرف الألفاظ الشرعيّة من مفهوماتهـــا الأول مطلقاً من غير داعٍ عقلي، لسقط منفعة كلام الله وكلام رسوله ﷺ،فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به. والباطن لا ضبط له، بل يتعارض فيه الخواطر، ويمكن تتزيله على وجوه شتّى، وأنحاء تتراء. وهذا أيضاً من المفاسد العظيمة ضررها، والبدع الشائعة عند المتسمّين

-أ-مدرسة البصرة

ب-مدرسة بغداد

ولكل من هاتين المدرستين مشايخ وأساتذة فيهما، بل ان هناك اختلاف كبير ما بين هاتين المدرستين إلا انه هناك أصول خمســة تجمع جميع المعتزلة وسميت هذه الأصول بـــ(الأصول الخمسة)وهي :

1 – التوحيد

2 – العدل

3- الوعد والوعيد4 – المترلة بين المترلتين

5- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

را: بحوث في الملل والنحل، مصدر مذكور،ج3 ص165 وما بعد .

وأيضاً:تاريخ علم الكلام في الاسلام، مصدر مذكور .

وأيضاً: اللوامع الآلهية، مصدر مذكور.

وأيضاً : تاريخ الفلسفة الاسلامية، كوربان، ص169 -179.

[1] الدهرية : الدهري: من يقول بقدم العالم ونفي المؤثر أصلاً

أو : من كان يقول بقدم الدهر واسناد الحوادث إليه، خص بأسم الدهري

أو: هم قوم يسندون الحوادث إلى الدهر ويبالغون فيه ؛ حتى كأنهم لا يثبتون صانعاً وراءه.(شرح المصطلحات الكلامية، أعـــداد قسم الكلام في مجمع البحوث الأسلامية، ط1، ص149

[2] الطّباعيّة: أو الطبيعيّة: الذين لم يقفوا على اسرار الحكمة والشريعة و لم يطلعوا على اتحاد مأخذهما واتفـــاق مغراهمـــا: لشـــدّة رسوخهم فيما اعتقدوه من قد العالم، وزعمهم ان هذا مما يحافظ على توحيد الصانع وعن انثلام الكثرة والتغيّر علـــى ذاتـــه وأنّ قياساتهم مبنيّة على مقدمات ضرورية هي مبادىء البرهان (رسالة الحدوث –حدوث العالم-صدر المتالهين، ص 15-16).

بالصوفية. وهذا الطريق توسّلت الباطنيّة إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتتريلـــها على رأيهم. فيجب الإحتراز عن الاغترار بتلبيساهم، فإنّ شرّهم أعظم على الدين من شرّ الشياطين؛ إذ الشياطين بوساطتهم يتذرّع إلى انتزاع الدين من قلوب المسلمين. فأحترزيـــا مسكين! من مجالسة هؤلاء الجهلة المتشبّهين بالسالكين، والزاهدين مع عريهم عن المعرفـــة واليقين، وإفلاسهم في العقل والدّين.

فصل

في أنّ النظر في حقائق الأشياء، لا يجوز لمن يَرْتَضْ نفسَه، ولم يهذّب عقلَه؛ وفي أنه لا ينبغي تسمية الجاهل بالمعالم الإلهية صوفياً، أو فقهياً، أو حكيماً.

أعلم يا حبيبي: أن الله تعالى لمّا خلق الخلق وسوّاها، ودبّر أمر العـــالم وأجــــراه، ثمّ استوى على العرش وعلاه، وحرّك السّموات ودوّرها، وزيّنها بالكواكب ونوّرها؛ كـــان من فضل رحمته وتمام إحسانه: أن اختار طائفة من عباده، واصطفاهم وطهّرهم، وزكاهم وقرهم، وناجاهم وكشف لهم عن مكنون علمه وأســـرار غيبـــه، ثم بعـــثهم إلى عبـــاده ليدعوهم إلى جواره، ويخبروهم عن مكنون أسراره، ليتنبهوا عن نوم الجهالة ورقدة الغفلة، ويحيوا حياة العلماء، ويعيشون عيش السعداء، ويبلغون إلى كمال الوجود في دار الخلود.

وهذا الانتباه عن نوم الجهل والغفلة، لا يتيسر لأحدٍ ما لم يرتض نفسه بالرياضات الشرعية والمجاهدات، من الصيام والقيام، والنسك والعبادات، والزهـــد الحقيقـــي عـــن مستلذات الدنيا ومشتهيات المرحلة السفلى، حتى صار مستعداً لإدراك الحقائق، والتفطن بالمعارف. وأعظم أسباب الحجب عن درك الحق والحقيقة، هي حب الجاه والمترلة عنـــد أبناء الزمان، وميل الرئاسة والشهرة عند الناس، والبسط في البلاد، والترفع على العباد.

وكان في قديم الزمان في عهد الحكماء الخسروانيين[1] والأساطين الاسكندرانيين[2] للحكمة سياسة قائمة لا يشرع في تعليمها من لم يهذب نفسه البهيمية، ولم يروض حيوانيته الطبيعية، بفنون التطهيرات عن أرجاس المستلذات، وصنوف الرياضات عن أعراض الجاهليات؛ وإلا لضل وأضل، وأهلك وأهلك.

وكان عند أكابر الصوفية، وعظماء أرباب القلوب، وأصحاب الارتقاء إلى حقائق الأنبياء وملكوت الأشياء: أنه لا يرخص لأحد أن ينظر في مثل هذه الأمور، ولا بالسؤال عنها والطلب لكشفها، إلا بعد أن يهذب نفسه بمثل ما قلناه ووصفناه، اقتداءً بسنة الله تعالى.

كما أخبر عنه وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ...﴾[3].

وذلك ان موسى، على نبينا وآله وعليه السلام! قام لياليها، وصام نهارها، حتى صفت نفسُه، وارتاضت ذاته؛ فناجاه الله عند ذلك، وكلمه ربه. وروي عن النبي ﷺ: (من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهر من قلبه على لسانه ينابيعُ الحكمة)[4]. وورد في رواية: "فتح الله قلبه، وشرح صدره، وأطلق لسانه بالحكمة، ولوكان أعجمياً غلقا"[5].

---

[1] الحكماء الخسروانيين، را: حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي ج2. د. غلام حسين إبراهيم ديناني. دار الهادي ص 165 ـ 177.

[2] الأساطين الاسكندرانيين: إشارة إلى مدرسة الاسكندرية التي أسسها أساتذة مدرسة أثينا التي انشأها أرسطو، مثال فيلون الاسكندري (30 ق.م/ 50 ب.م) ولكيمان الاسكندري (150 ب.م/ 217 ب.م) وأمونيوس ساكاس (175 ب.م/ 242 ب.م) أستاذ أفلوطين وغيرهم.

را: تاريخ الفلسفة اليونانية. د. يوسف كرم، دار القلم ـ بيروت، الفصل الخامس. سبب نشوء هذه المدرسة: بعد موت الاسكندر أخذ اليونانيون الرازحون تحت نير المقيدوني يترعون إلى التحرر ويضطهدون كل من له علاقة بمقدونية، ومنجملة الذين اضطهدوا لهذا السبب أساتذة مدرسة أثينا التي أنشأها أرسطو، وقد أُخذت عليهم نزعتهم المقدونية ـ فلجأوا إلى الاسكندرية حيث أنشأوا مدرسة أمّنت استمرار التقليد المشّائي وظلّت قائمة حتى فتح العرب لمصر..) تاريخ الفلسفة العربية. حنا الفاخوري. خليل الجسّر. ج2، ص7.

[3] سورة الأعراف ـ 142.

[4] قد ورد هذا الحديث الشريف بعدّة ألفاظ وعدّة طرق. را: بحار الأنوار ج 67. ح8، ح10، ح25.

[5] لم أجد سنده في المجامع الروائية

فمن أجل هذا صار واجباً على الحكماء والصوفية، لو أرادوا فتح أبواب الحكمة والمعرفة للمتعلّمين، وكشف الأسرار للمريدين، أنْ يروِضَوهم أوّلاً بفنون الرياضات النفسيّة والبدنية، ويهذبون عقولهم بصنوف التأديبات الشرعية والحكمية؛ كيلا (لئلا) يصفو نفوسهم ويتهذب عقولهم، ويتطور أخلاقهم؛ لأن الحكمة كالعروس تريد مجلساً خالياً، لأنها من كنوز الآخرة. وأن الحكيم إذا لم يعقل ما هو واجب في الحكمة من الرياضة للمتعلّمين، من قبل أن ينكشف لهم أسرار الحكمة؛ فيكون مثله كمثل صاحب ملك، أذِن لقوم بالدخول على الملك، من غير تأديب ولا ترتيب، فيستحق العقوبة عليه إنْ فعل ذلك.

فانظر كيف أنمحت هذه الرسوم عن صفحة الأرض، وكيف وقع اسم الصوفي والشيخ والفقيه والحكيم، على من اتصف بأضداد هذه المعاني، حيث يقع اسم الصوفي في هذا الزمان على من يجمع الجماعة، ويعقد المجلس للأكل، والشرب، وسماع المزخرفات، والرقص والتصفيق.

كما يقع اسم الفقيه على من تقرّب إلى الحكام والسلاطين، من الظلمة والأعوان بوسيلة الفتاوى الباطلة، والأحكام الجائرة، الموجبة لجرئتهم في هدم قوانين الشرع، وجسارتهم في ارتكاب المحرمات، وتسليطهم على العجزة والمساكين، والتصرف في أموالهم، والاحتيال في استخراج وجوه جدليّة فقهيّة، ونكات شرعيّة خلافية، يوجب لهم رخصة وجرأة في أفعال وأعمال تؤدي إلى خلل في الدين، وينجر إلى وهن عزيمتهم في اتباع طريق المؤمنين.

وقد كان اسم الفقه في الزمان السابق عند عهد النبي والأئمة الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين مطلقاً على معرفة الحق الأول، وعلم طريق الآخرة، وآفاق النفس وأحوال

القلب، وكيفية تهذيب الأخلاق، وتبديل السيئات بالحسنات، لا معرفة السَّلَم[1]، والرهانة، والمرابحة، والطلاق، والظهار، وقسمة الأموال من المواريث وغيرها، وتعلم الحيَّل الفقهية، ووجوه التخلّص من الدعاوى، وحفظ بعض الخلافيات، التي تقضي الأعمار من دون أن يقع لأحد الاحتياج إليها، فإن هذه من الواجبات على الكفاية التي يوجد في كل زمان جماعة يتكفل (متكلفين) بأمرها، دون المعنى الأول فإنه واجب عيني لكل ذي لب.

وكذا اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب، والشاعر، والمنجّم، حتى على الذي يدحرج القرعة، ويجلس في الشوارع. والحكمة هي التي كان منبئاً عليها قول الله تعالى: ﴿...وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً...﴾[2] وروي أنه قال رسول الله ﷺ: "كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير من الدنيا"[3]. فانظر ما الذي كان اسم الحكمة عبارة عنه، ثم إلى ماذا انتقل!

تبصرة وتأييد

ذكر الشيخ الفاضل، والمحقق الكامل، زين الفقهاء والمجتهدين [زين الدين] **العاملي**[4] رحمة الله! عليه في آداب جمعها للمتعلمين ناقلاً عن بعض المحققين، العلماء ثلاثة:

---

[1] السَّلَم: ويقال له السلف، وهو ابتياع كلي مؤجل بثمن حال عكس النسيئة ــ ثمن مؤجل ــ، ويقال للمشتري المسلم (بكسر اللام) وللثمن (بفتحها)، وللبائع: المسلم إليه، وللمبيع: المسلم فيه، وهو يحتاج إلى إيجاب وقبول، وكل واحد من البائع والمشتري صالح لأن يوجب أو يقبل من الآخر. روح الله الخميني، تحرير الوسيلة، ج2، القول في السلف، ص 543، ط دار الصراط المستقيم، 1982.

[2] البقرة ــ 269.

[3] انظر مستدرك سفينة البحار الشيخ علي النمازي الشاهرودي نشر مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ج2ص355.

[4] هو الشيخ زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي بن صالح بن مشرف العاملي الشامي الطلوسي الجبعي المعروف بابن الحجة النماريري الشهير بالشهيد الثاني.ولد رحمه الله في يوم الثلاثاء عشر من شهر شوال سنة 911، كما ذكره في ترجمة نفسه. واستشهد قتلاً في قرية تسمى (بايزيد) على طريق إسلامبول في يوم الجمعة من شهر رجب سنة 965 وقيل 966. را: أعيان الشيعة للسيد محسن العاملي، ترجمة الشهيد الثاني

1 ـــ عالم بالله غير عالم بأمر الله، فهو عبد استولت المعرفة الإلهية على قلبه، فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال والكبرياء، فلا يتفرغ ليتعلم علم الأحكام إلا ما لا بد منه.

2 ـــ وعالم بأمر الله غير عالم بالله، فهو الذي عرف الحـــلال والحـــرام ودقـــائق الأحكام، لكنه لا يعرف أسرار جلال الله.

3 ـــ وعالم بالله وبأمر الله، فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات، فهو تارة مع الله بالحب له، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة. فإذا رجع مـــن ربه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم، كأنه لا يعرف الله. وإذا خلا بربه مشتغلاً بذكره وخدمته، فكأنه لا يعرف الخلق. فهذا سبيل المرسلين والصدّيقين. وهو المراد بقوله ﷺ: "سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء"[1].

فالمراد بقوله ﷺ: (سائل العلماء) العلماء بأمر الله تعالى غير العالمين بـــالله، فـــأمر بمسائلتهم عند الحاجة إلى الاستفتاء.

وأما الحكماء، فهم العالمون بالله، الذين لا يعلمون أوامر الله، فأمر ﷺ بمخالطتهم.

وأما الكبراء، فهم العالمون بهما، فأمر بمجالستهم، لأن في مجالســـتهم خـــير الـــدنيا والآخرة.

ولكل واحد من الثلاثة ثلاث علامات:

أ ـــ فالعالم بأمر الله، الذكر باللسان دون القلب، والخوف من الخلق دون الـــرب، والاستحياء من الناس في الظاهر، ولا يستحي من الله في السر.

ب ـــ والعالم بالله ذاكر خائف مستحي. أما الذكر فذكر القلب لا اللسان[2]، وأمـــا الخوف فخوف الرجاء لا خوف المعصية، والحياء حياء ما يخطر على القلب لاحياء الظاهر.

---

[1] انظر: " كنز العلماء" م.س، ج10ص228.

[2] را: تحفة الملوك في السير والسلوك للسيد بحر العلوم، شرح السيد ياسين الموسوي، ص 142 و ص151 ـــ 159.

ت ــ والعالم بالله وبأمره، له ستة أشياء: الثلاثة المذكورة للعالم بالله فقط مع ثلاثة أخرى: كونه جالساً على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وكونه معلّماً للمسلمين، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه، فهو مستغنٍ عنهما.

فمثل العالم بالله وبأمر الله، كمثل الشمس لا تزيد ولا تنقص؛ ومثل العالم بالله فقط، كمثل القمر يكمل تارة وينقص أخرى؛ ومثل العالم بأمر الله، كمثل السراج يُحرِق نفسه ليضيء غيره[1].

ذكر تنبيهي

وقد ذكر أهل التواريخ[2] إن أول من وصف بالحكمة من البشر **لقمان الحكيم**[3]. والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...** ﴾[4]، وكان في زمن **داوود**ؑ[5] وكان مقامه ببلاد الشام، وكان **انباذقلس**[6] الحكيم يختلف إليه، على ما حكاه، ويأخذ من حكمته. واليونانيون كانوا يصفونه بالحكمة لمصاحبة لقمان. وطائفة من الباطنية تنتمي إلى حكمته، ويقولوا بتفضيله، ويدعى أن له رموزاً، قلّما يوقف على منطواها، إذ كان يتكلم

---

[1] منية المريد: للشهيد الثاني، ص 38 ــ 39، دار المرتضى.

[2] محبوب القلوب ص 16، نزهة الأرواح والعقد الفريد.

[3] لقمان الحكيم، هناك رأيان. رأي يقول أنه كان نبياً، ورأي آخر يقول أنه كان حكيماً. را: تفسيرالميزان للعلامة الطبطبائي، ج16، ص 221 ــ 226، موسسة إسماعيليان، إيران، قم ط الخامسة.

[4] لقمان ــ 22

[5] النبي داوود .ؑ را: تفسير الميزان ج17، ص 189 ــ 201.

[6] أنباذ قلس: أنباذ قلس فيلسوف يوناني من السابقين على سقراط، من مدينة أكراجاس أو أجريجنتم في جريرة صقلية، لا نعرف تاريخ ميلاده، لكن نعلم بأنه زار ثوربي Thurir بعد تأسيسها بقليل. وهذه المدينة تأسست في سنة 444 ــ 443 قبل الميلاد... يذكر أن أنباذ قلس كان من تلامذة فيثاغورس. را: موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، ج1، ص 225 ــ 229. را: تاريخ الفلسفة اليونانية، د. يوسف كرم، ص: 35 ــ 37. را: تاريخ الفلسفة العربية، حنا الفاخوري، خليل الجسر، ص 58 ــ 59.

في خلقة العالم بأشياء يوجد ظواهرها قادحة في أمر المعاد.

ثم أحد الموصوفين منهم بالحكمة: **فيثاغورس**[1]، وقد اختلف بمصر إلى أصحاب سليمان عليه السلام حين رحل إليها من بلاد الشام. وقد كان تعلم الهندسة قبلهم عن المصريين. فتعلم أيضاً العلوم الطبيعية والعلوم الإلهية من أصحاب سليمان عليه السلام، ونقل العلوم الثلاثة ــ أعني: الهندسة، والعلم الطبيعي، وعلم الدين ــ إلى بلاد يونان، وادعى أنه قد استفاد هذه العلوم من مشكاة النبوة.

ثم أحد الموصوفين منهم بعده بالحكمة المسمين باسم الحكيم **سقراط**[2]، وقد اقتبس الحكمة من فيثاغورس، اقتصر من أصنافها على المعالم الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا بالكلية، وأعلن الخلاف في الدين على اليونانية. فثوّروا العامة (والغاغة)[3] عليه، وألجئوا ملكهم إلى قتله. فحبسه الملك وسقاه السم. وقصته معروفة.

---

[1] فيثاغورس: نشأ فيثاغورس (572 ق.م/479 ق.م) في ساموس، ولما ناهز الأربعين قصد جنوب إيطاليا، ونزل ثغر كرتون حيث كانت مدرسة طبية شهيرة، وما لبث أن عُرف بالعلم والفضل، فذاع اسمه وأقبل عليه المريدون من مختلف مدن إيطاليا الجنوبية وصقلية وروما. فأنشأ فرقة دينية علمية تشبه الأورفية (المدرسة الفيثاغورية)، وهذه المدرسة عنيت بالرياضة والموسيقى والفلك والطب، ولهذه المدرسة آراء في النفس الإنسانية وفي الفلك، وقد اعتبرت هذه المدرسة أن كل شيء قائم على العدد. را: أطلس الفلسفة، المكتبة الشرقية، ص 31. را: تاريخ الفلسفة اليونانية، مصدر مذكور الفصل الثاني، 20 ــ 26. را: موسوعة الفلسفة، مصدر مذكور ص 228 ــ 232

[2] سقراط: سقراط الأثيني (470 ــ 399 ق.م) يعتبر سقراط الذي تفتتح معه مرحلة الفلسفة اليونانية الكلاسيكية، مؤسس فلسفة الأخلاق الأصلية. تعتبر حوارات أفلاطون وهو تلميذ سقراط المصدر الأساسي لما نعرفه عن هذا الأخير، فقد أظهرته الحوارات الأفلاطونية منشغلاً مع مواطنيه بحوار وبجدل لا ينقطعان، محاولاً امتحانهم وجرهم إلى ممارسة حياة صحيحة. أدت العداوات التي نشأت عن ذلك إلى محاكمته عام 399 ق.م بحجة تسفيه الآلهة ودفع الناشئة إلى الانحراف ما أدى إلى الحكم عليه بالموت بتجرع السم. يعتبر السؤال عن الخير (agathon) وعن الفضيلة (areté) النقطة المركزية في فلسفته، عن هذا الدافع عبَّر سقراط بالنقش الذي نُقش في معبد دلفي: (أعرف نفسك بنفسك) وأراد بذلك الحافز اختبار المعرفة الإنسانية وتحديد الخير الذي يُنسب إلى البشر. را: أطلس الفلسفة، ص 37. را: موسوعة الفلسفة، ج1، ص 576 ــ 579.

[3] الغاغة نبات وهي من الغوغاء اي الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس.را: لسان العرب مادة غوغ .

ثم أحد الموصوفين منهم بعده بالحكمة [و] المسمين باسم الحكيم، **أفلاطون**[1] شريف النسب مفضالاً، وقد وافق سقراط في اقتباس الحكمة من فيثاغورس، إلا أنه لم يقتصر على المعالم الإلهية، بل جمع إليها العلوم الطبيعية والرياضية. وله كتب مشهورة، تولى تصنيفها، إلا أنها مرموزة. وقد تخرج به عدة من تلامذته. [و] في آخر عمره فوّض التعليم والمدرسة إلى البارعين من أصحابه، وتخلى عن الناس متجرداً بعبادة ربه.

وفي زمانه ظهر الوباء في بلاد يونان، وتضرعوا فيه إلى الله تعالى، وسألوا أحد أنبياء بني إسرائيل عن سببه. فأوحى الله إليهم بأنهم متى ضعّفوا مذبحاً كان لهم على شكل المكعب، ارتفع الوباء. فأثبتوا مذبحاً مثله، وأضافوه إلى الأول، فازداد الوباء. فعادوا إلى النبي، وسألوه عن سببه. فأوحى الله إليهم أنهم لم يضعّفوه، بل قرنوا به آخر مثله، وليس هذا ضعفاً للمكعب. فاستعانوا حينئذٍ بأفلاطون. فقال لهم: أنكم كنتم تزجرون عن الحكمة، وتنفرون عن الهندسة، فابتلاكم الله بالوباء عقوبة لكم. فإن للعلوم الحِكميّة عند الله مقداراً. ثم ألقى على أصحابه: متى أمكنكم استخراج خطين بين خطين على نسبة متوالية توصلتم إلى تضعيف المذبح، وأنه لا حيلة لهم منه دون استخراج ذلك.فتعلّموا استخراجه وتمموا العمل بتضعيفه، فارتفع الوباء عنهم، فأمسكوا عن ثلب الهندسة وغيرها من العلوم النظرية.

---

[1] أفلاطون: ولد في أثينا ــ أو في أيجينا ــ على أرجح الأقوال في سنة (428 ق.م) وكان من أسرة أثينية عريقة المجد، درس الفلسفة في مطلع شبابه على يد أقراطيلوس وكان فيلسوفاً على مذهب هيرقليطس، ولكن صاحب الفضل الحقيقي في تنشئة أفلاطون فلسفياً هو سقراط. بعد موت أستاذه سقراط (حكم عليه بتجرع السم) غادر أثينا إلى صقلية وإلى جنوبي إيطاليا حيث كان يوجد إقليم (اليونان الكبرى) واتصل بالمدرسة الفيثاغورية. ولما عاد إلى أثينا حوالي سنة 388 ق. م أنشأ الأكاديمية التي تعد أول جامعة علمية أنشئت في أوربا، ثم إن أفلاطون ترك مؤلفات متعددة حول السياسة والفلسفة ضمن محاورات سميت (محاورات أفلاطون). را: موسوعة الفلسفة، ج1، ص 154 ــ 190. را: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 62 ــ 111.

ثم أحد من الموصوفين منهم بالحكمة بعده، **أرسطاطاليس**[1] وهو معلم **الاسكندر**[2] المعروف بذي القرنين، وكان ملازماً لأفلاطون قريب عشرين سنة لاقتباس الحكمة. وكان يسمى في حداثته روحانياً، لفرط ذكائه. وكان أفلاطون يسميه عقلاً.

وهو الذي كان يرتب في الأبواب الطبيعية والإلهية، وصنف لكل باب منها كتاباً على حدة، محافظاً على الولاء. في أيامه استتب الملك لذي القرنين، فانقمع به الشرك في بلاد يونان.

فهؤلاء الخمسة، كانوا يوصفون بالحكمة، ثم لم يسم أحد منهم بعد هؤلاء حكيماً، بل كل واحد منهم ينسب إلى صناعة من الصناعات، أو سيرة من السير مثل: **أبقراط** الطبيب[3]، **وأوميرس** الشاعر[4]،

---

[1] أرسطو: (384 ق.م/324 ق.م) ولد في أستاجيرا، وكان على مدى عشرين عاماً تلميذاً لأفلاطون في أكاديميته. عام 342 ق.م استُدعي ليكون أستاذاً للإسكندر الكبير، فيما بعد أسس في أثينا مدرسة خاصة به، عرفت بالمدرسة المشائية. ولذلك فإن المؤلفات التي وصلتنا منه هي عبارة عن محاضرات كان يجري تداولها في الليسيه (لوكيون) مدرسته، (وقد عرفت بالمؤلفات التعليمية). ومنها يتكون ما يعرف بالمؤلفات الأرسطية الكاملة والتي تشمل:
1 ــ كتباً في المنطق عرفت لاحقاً باسم الأورغانون (أو كتاب الآلة). 2 ــ الكتب الطبيعية. 3 ــ الكتب الأخلاقية. 4 ــ الكتب الفنية. را: أطلس الفلسفة من ص 47 ــ 53. را: تاريخ الفلسفة اليونانية د. يوسف كرم، ص 112 ــ 209. را: موسوعة الفلسفة ص 98 ــ 132.

[2] الاسكندر: في دائرة المعارف للبستاني: اسكندر بن فيلبس المكدوني من زوجته أولمبياس، ولد في بلا سنة (356 ق.م) وتوفي سنة (323 ق.م)، ويلقبه الإفرنج بالكبير، والعرب بذي القرنين. وفي كتاب (نزهة الأرواح للشهروزوري ج1 ص 208 و252) ذو القرنين هذا هو صاحب الخضر عليهما السلام الذي أخبر عنه القرآن الكريم، وهو الاسكندر الماقذوني تلميذ أرسطوطاليس وتعلم منه التوحيد وتجرد النفس وبقاءها بعد الموت كما كان يعتقد أستاذه. (شرح المنظومة ــ قسم المنطق ــ الشيخ حسن زادة أملي ــ المقدمة، بتصرف).

[3] أبقراط: يعرف بأبي الطب: ولد بجزيرة كوس سنة (460 ق.م) من أشرف بيت من أسرة قريسا ميس الملك. تعلم صناعة الطب من أبيه ايرقليدس. ورأى أن صناعة الطب كادت تبيد، فقرر تلقينها لمستحقيها حتى لا تبيد. فكان أبقراط بذلك أول من علم الناس صناعة الطب، ولقد توفي سنة (365 ق.م).

[4] Hommer شاعر يوناني كبير عاش بين القرنين العاشر والحادي غشر قبل الميلاد واليه تنسب (الالياذه) و(الاوديسة) وهما من اهم القصلئد في التراث اليوناني الادبي.

وأرشميدس المهندس[1]، **وديوجــانس** الطبيب[2]، **وديمقراطيس** الطبيعي[3]. وقد تعرض **جالينوس**[4] في زمانه حيث كثرت تصانيفه، لانه يوصف بالحكمة، اعني ان يتنقل عن لقب الطبيب الى لقب الحكيم. فهزئوا به وقالوا: عليك بالمراهم المسهلات، وعــلاج القــروح والحميات! فإن من شهد على نفسه بأنه شاك في العالم: أقديم أو محدث، وفي المعاد: أهــو حق أو باطل، وفي النفس: أجوهر أم عرض؟ لمتّضع درجة من أن يسمى حكيما[5].

والعجب من أهل زماننا هذا، أنهم متى رأو إنسانا رأى كتاب **اقليدس**[6]، أو ضــبط أصول المنطق، وصفوه بالحكمة، وأن كان معرى من العلوم الإلهية، وفن الربوبيــات مــن الحكمة، ويسمّونه حكيما!

---

[1] ارشميدس (287-212 قبل الميلاد) رياضي وفيزيائي ومخترع اغريقي، اشتهر ببحوثه في الهندسة، وضع قاعدة ارشميدس للاجســام المغمورة ومحصلها انه اذا جسم غمر في سائل فانه يدفع من اسفل الى اعلى بقوة تساوي وزن السائل المزاح.(الموسوعة العربية الميســرة، دار احياء التراث العربي، بيروت ج1،ص 118)

[2]ديوجانس الابولوني: فيلسوف يوناني من المدرسة الايونية من القرن الخامس قبل الميلاد آلف بين مذهبي انكساغوراس وانكسيمانس ان الهواء هو المبدأ الاول والكلي. (نقلاً عن معجم الفلاسفة اعداد جورج طرابيشي ، داتر الطليعة ، ص280)

[3]ديموقراطيس: أو ديمقراطيس: (460 ق.م/370 ق.م) من مواليد أبديرا من اعمال تراقية. وكانت مدينته أبديرا من أغنى مدن اليونان وأكثرها ازدهاراً، بناها الأيونيون في جوار مناجم ذهب. لما بلغ طور الشباب دأب على الأسفار، فكان رحالة يجوب الآفــاق تحصــيلاً للعلم. يُعرف ديمقراطيس بنظرية الذرة إلا أن أول من قرر هذه النظرية هو لوقيبوس إلا أن ديمقراطيس أحكم صياغتها وكان له الفضــل الأكبر في شرحها ونشرها. را: تاريخ العلوم عند العرب، ص 27 ــ 32.

[4]جالينوس: هو أكبر أطباء العصر القديم بعد أبقراط، وهو في الوقت نفسه فيلسوف وشارح لآراء أفلاطون وأرســطو وتاوفرســطس وخروسقوس وأبيقور. ولد جالينوس في فرغاموم في إحدى السنوات الأربع التالية 128،129،130،131 بعد الميلاد. درس الفلسفة في سن الرابعة عشر، وشملت هذه الدراسة مختلف المدارس الفلسفية، وفي الطب تتلمذ على سايتروس وعلى الطبيب فيلوفس. آثاره: كتب جالينوس في الطب والفلسفة والأخلاق كتب عديدة، والبعض منها قد ترجم إلى اللغة العربية. (ملحق موسوعة الفلسفة: د. عبد الرحمن بدوي، ص 97-101، بتصرف).

[5]را: الأسفار ج5، ص205-207.

[6]اقليدس: فيلسوف يوناني ورياضي. لم يعرف الكثير عن حياته.قيل أنه عاش في الإسكندرية إلى عام (003ق.م). من أهم آثاره كتاب (الأصول الأركان) وهو يشمل على خمس عشر مقالة، أربع مقالات في السطوحplans، وواحدة في الأقدار المتناسبة، وواحــدة في نسبة السطوح بعضها إلى بعض، وثلاث مقالات في العدد، أما المقالة العاشرة في الجذور، وأما المقالات الخمسة الباقية ففي المجســمات Gorpssolides.را: تاريخ العلوم عند العرب، د. خليل الجر، الأستاذ أديب صعيبي، م. حسيب غالب، ص 108. را: الموسوعة الميسرة في الفكر الاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ص 80..

ولقد كان **أحمد بن سهل البلخي**[1] مع براعته كما نقل في أصناف المعارف، واستقامة طريقه في أبواب الأدبيات والفقهيات، متى نسبه أحد من موقريه إلى الحكمة يشمئز منه ويقول: يا لهفي من زمان ينسب فيه ناقص مثلي إلى شرف الحكمة. كأهم لهم يسمعوا: ﴿...**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَ أُولُو الألْبَابِ**﴾"[2].

وقال الشيخ الكامل الواصل والمكاشف، قدوة أهل الإشراق، **شهاب الدين السهروردي**[3]، في منطق **المطارحات**، عقيب ذكر المقولات:" انظر كيف انتقلت الحكمة من النظر في أمور الروحانيات، ومعرفة الطريق إلى مشاهداها، وسلم الخلع و (التجريد) والعلوم العميقة، التي يشهد بصحتها الأمم الفاضلة، وعليها مدار الحكمة واعتماد الحكماء، إلى ما فعل شيع المشائين من الإقتصار على أمور تشبه مقولة متى والجدة، بحيث صارت (العلوم) التي هي بالحقيقة حكمة، وكان عليها السير وشهود أنوار الملكوت

---

[1] احمد بن سهل البلخي(المتوفي عام 322هـ/934 م)المعروف بحمدان بن سهل المتفقه استاذ ابي عبد الله محمد بن عقيل.له كتاب البدء والتاريخ.

[2] البقرة-269

[3] السهروردي: هو شهاب الدين يحي بن حبش بن أميرك السهروردي، ويلقب بالشيخ المقتول، ويعرف بلقب (شيخ الإشراق. ولد سنة 0549هـ، 1153م)في قرية سهرورد على مقربة من المدينة الإيرانية الحديثة زنجان، وتلقى تعليمه الباكر على يد مجد الدين الجيلي في مرانة. ثم انتقل بعد ذلك إلى أصفهان لاستكمال دراسته، انجذب شيخ الإشراق بكثرة أسفار حتى حط به الرحال في حلب حيث قابل الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي، فدعاه للإقامة في بلاطه، فقبل السهروردي ذلك، إلا أن صراحة الشيخ وإفشاءه لبعض الأسرار حدت بالفقهاء أن يطلبوا من صلاح الدين أن يضغط على الملك الظاهر أن يودع السهروردي في السجن، وفي سنة (587هـ/1191م) مات السهروردي، ويقال أنه مات جوعا. على الرغم من صغر سن السهروردي (38سنة) استطاع أن يترك مؤلفات عديدة ومهمة (حكمة الإشراق) (اللمحات) (الألواح العمادية)وغيرها من الكتب والرسائل والقصص الرمزية. وأهم ما أتى به السهروردي هو فلسفة متكاملة عرفت بـ(فلسفة الإشراق) حيث أنها تعتمد على البرهان والمكاشفات العرفانية. وإضافة إلى ذلك إحياءه للحكمة القديمة لحكمة الفهلويين واليونانين والزرادشتيين وغيرهم. را: ثلاثة حكماء مسلمين، سيد حين نصر، القسم الثاني. را: أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي، د. محمد علي أبو ريان، دار الطليعة 1969".

منقطعة لا يعرفها المنتسبون إلى الحكمة في هذه الأزمنة. وإني لأعلم يا أخواني: أنه إذا نادى المنادي الحق بظهور الحقائق، تنطمس هذه الأقاويل الناقصة الشاغلة، وأن بقيت تبقى في الموقف الجدلية في رياضيات المبتدئين، وتعود الحكمة الرئيسة. فإن صاحب الدورة (الروية) (؟) ورب الآبق، إذا أنذر صدق وإذا وعد حقق.

وقال أيضا في صدر **حكمة الإشراق**:و"شرّ القرون ما طوي فيه بساط الإجتهاد، وانقطع سير الأفكار، وانحسم باب المكاشفات، وانسد طريق المشاهدات"[1].

والغرض من ذكر هذه الحكايات، أن يتفطّن كل أحد بأن مرتبة كون الإنسان عارفا أو شيخا أو حكيما، أعظم من أن يناله أو يصل إليه أحد، من غير أن يعكف إليها طول عمره، ويتجرد مدة حياته، ويتحرر عن جميع المرغوبات الحسية، والمشتهيات الدنيوية، مع فطرة صافية وقريحة عن أقاويل المبتدعين خالية، وطبع زكي،وفهم زكي، وذهن ثاقب، ودرك لطيف، ويكون مع ذلك مما ربي فيها، وفطر عليها، ثم أن يكون كما قال بعض **الحكماء**[2] ضبوطا، حفوظا، وصبورا على الكد الذي يناله عن التعلم، ومحبا بحسب الجبلة للصدق وأهله، والعدل وأهله، والحكمة وأهلها، غير جموح، و لا لجوح فيها يهواه، ولا شره على المأكول والمشروب، تهون عليه بالطبع الشهوات، وأن يكون كبير النفس عما يشين عند الناس، وأن يكون ورعا، سهل الإنقياد للخيروالعدل، عسر الإنقياد للشر والجور، عطوفا على اهل الرحمة، غضوبا على الجبابرة والمتكبرين[3] كما قال الله تعالى حكاية عن الموصوفين بها: ﴿...**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**...﴾[4] إلى غير ذلك من الصفات والشرائط

---

[1] مجموعة مصنفات شيخ الإشراق،ج2 حكمة الإشراق، ص 10

[2] أبو نصر الفارابي: الملقب بالمعلم الثاني(259هـ، 950م)، اشتهر الفارابي كشارح لأرسطو، وله تأليفات عديدة منها (كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس)، وكتاب(تحصيل السعادة)، وكتاب (السياسة المدنية)، وكتاب (أغراض ما بعد الطبيعة) وهو عبارة عن شرح لكتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو، وكتاب آراء اهل المدينة الفاضلة.

[3] كتاب تحصيل السعادة للفارابي، ص 95- 96 بتصرف من المؤلف.

[4] الفتح-29

التي ذكرها وعدّها **أفلاطون** الإلهي في كتابه **في السياسة**.[1]

والعارف الحكيم هو بالحقيقة من يعرف الحقائق الإلهية، والمعالم الربوبية على الوجه البرهاني اليقيني، الذي لا يتطرق إليه وصمة ريب وشك، وإن اختلف عليه الأحوال، ومضت عليه النشآت، مع اتصافه بالزهد الحقيقي، وتهذيب الأخلاق، وتطهير الملكات. فله الرئاسة، سواء انتفع الناس به أو لم ينتفع به أحد، لخمولة وانزوائه من الأشرار، وتخليه عنهم لعبادة ربه الغفار والتشبه بالمصطفين الابرار، من المعصومين الأطهار عليهم السلام.

"فإذا لم ينتفع به أحد، وقد بلغ ذلك المبلغ، فليس عدم انتفاع الغير به من قبل ذاته، بل من قبل قصور غيره، ونقصان من لا يصغي إليه، لعدم التفطن لحالة. أو لا ترى أن الملك والإمام هو بمهنته وبصناعته سواء وجد من يقبل منه أو لم يجد، أطاع أو لم يطع، كما أن الطبيب طبيب بمهنته وباقتداره على معالجة المرضى، سواء وجدت المرضى أو لم يجد، وسواء وجدت آلالات التي يستعملها في فعله وصنعه، أو لم يجد. وليس يزيل طبه فقدان هذه الأمور. كذلك لا يزيل ولا يفسد إمامة الإمام، ولا فلسفة الفيلسوف، ورئاسة الرئيس، أن لا يكون له آلات يستعملها في أفعاله، ولا ناس يستخدمها في بلوغ غرضه"[2].

---

[1] را: جمهورية أفلاطون، نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد،ط3 دار المعارف، مصر، ص 101-102.

[2] فإذا لم ينتفع به، وقد بلغ ذلك المبلغ فليس عدم النفع به من قبل ذاته، ولكن من وجهة من لا يصغي، أو من لا يرى أن يصغي إليه. فالملك أو الامام بماهيته وبصناعته ملك وإمام ، سواء وجد من يقبل منه أو لم يجد ، أطيع أو لم يطع ، وجد قوماً يعاونونه على عرضه أو لم يجد . وجد آلات يستعملها في فعله أو لم يجد ، كان ذا يسار أو فقر ، إذ ليس يزيل طبه ألاّ يكون له شيء من هذه ، كذلك لا يزيل إمامة الإمام ، ولا فلسفة الفيلسوف ، ولا ملك ألاّ تكون له آلات يستعملها في افعاله ، ولا ناس يستخدمهم في بلوغ غرضه.
(الفارابي، ابو نصر ، تحصيل السعادة ، تحقيق د. علي بو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، ط1، ص98)

المقالة الثانية

في أن الغاية القصوى في العبادات البدنية ،والرياضات النفسانية للإنسان هي تحصيل المعارف واكتساب العلوم لأية معرفة كانت وأي علم كان، بل المعارف الإلهية والعلوم البرهانية هي التي في إهمالها والجهل المضاد لها ضرر سوء العاقبة والهلاك السرمدي نعوذ بالله منه

فصل

في بيان أن أي المعارف هي الغاية الحقيقية لوجود الإنسان

إعلم يا حبيبي أن الثمرة القاصية للأعمال البشرية والحركات الإنسانية، بدنية كانت أو نفسانية، وآخر ما لأجله التفكرات والانتقالات النفسانية، من الأحوال والعلوم، هي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها، والعلم المخدوم الذي لا يستخدمه شيء من العلوم، بل ينبعث منه غيره، انبعاث المعلول من العلة، والفرع من الأصل. وذلك هو العلم الإلهي،والفن الربوبي الذي هو بالحقيقة مخدوم سائر العلوم والمعارف ومبدئها، وغاية جميع الحرف والصنائع ومنتهاها عليه يدور رحاها، ﴿...بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا...﴾[1]،

---

[1] سورة هود-41

وباقي العلوم والصنائع عبيده وخدمه.

كما أن الحكيم الإلهي والعالم الرباني مخدوم العالم، ويستحق بذاته الكاملة المنورة بنور الحق الأول، المستضيئة بالشوارق الإلهية لأن يكون مقصوداً أولياً في التكوين، ومطاعاً طبيعياً للخلائق أجمعين، وسائر المكونات موجود بطفليه، مطيعة لأوامره ونواهيه. وذلك الاستحقاق للرئاسة موجود فيه من قبل الله، سواء كان الخلق عرفوه وأطاعوه أم لا، بل جهلوه وأنكروه، وربما كان مثل هذا الشخص غير واجد لقوت يومه لغاية الخمول، كما كان نبينا ﷺ كثيراً ما يستقرض قوت عياله من شخص يهودي ،حتى جاءه ملك يستعرض عليه خزائن الارض وذخائرها، من غير ان ينتقص درجة في الاخرة، وتواضعت له روحانية الارض ،وخضع له الملك المقوم لنوعيتها ،والحافظ لصورتها وطلمسها، وهو كان يختار العبودية والافتقار ،وصحح جانب الامكان بايثار المذلة والانكسار.

فصل

في أن فائدة كل صفة كمالية هي استعدادها لتطهيره لفيضان المعارف.

إعلم : ان كل مقام من المقامات الدينية، وكل فضيلة راسخة من الملكات النفسانية كالعلم، والشجاعة، والصبر، والشكر، والكرم، والحلم وغيرها،إنما ينتظم من ثلاثة أمور: علوم،وأحوال، وأفعال.

وهذه الأمور الثلاثة إذا قيس بعض منها بالبعض، لاح للناظرين الى الظواهر، الساكنين على أوائل العقول المتوقفين في مبادئ الأفكار: أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال. فالأعمال هي الأفضل عندهم لأنها الغاية الأخيرة.

وأما أصحاب البصائر الثاقبة، وأرباب الخمائر المنورة، فالأمر عندهم بالعكس مما ذكر؛ فإن الحركات والأعمال تراد للصفات والأحوال، وهي تطلب للعلوم والمعارف. فالأفضل العلوم، ثم الأحوال، ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره، فذلك الغير، لا محالة أفضل منه.

فالعلوم مطلقاً هي الغاية التي لأجلها يطلب سائر الأشياء. وهذه الدعوى في غاية الجلاء والظهور عند أولو الألباب، وإن خفي على أكثر الطلاب. فإن أي حركة وطلب وفعل بدني أو نفساني أو عقلي، لا يكون إلا لنيل مطلوب، ودرك مشتهى ووجدان مرغوب إليه، سواء كان محسوساً أو موهوماً أو معقولاً. فالغاية الأخيرة لكل قصد وسلوك، هو حضور صورة الشيء. وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال الصالحة، قد تتساوى وقد تتفاوت، إذا نسب بعضها إلى بعض. وكذا الأحوال الحسنة والأخلاق المرضية، قد يكون بعضها أفضل من بعض، وقد لا يكون.

وكذا أنواع المعارف. وأفضلها العلوم النظرية الإلهية، وهي أجل شأناً وأعظم رتبة من العلوم العملية. ويقال لها علوم المعاملات لأنها متعلقة بالمعاملات، سواء كانت مع الحق أو مع الخلق؛ كما يقال للأولى علوم المكاشفة، لأنها لا تحصل إلا بالإلهام من الحق، وكشف من جانب القدس، من غير مدخلية السماع من البشر، والنقل من الآدميين.

وإنما قلنا أنها أجلّ وأعظم من علوم الأعمال، لأن علوم الأعمال أدون مترلة من الأعمال، لأن فائدتها إصلاح الأعمال، فهي إنما تطلب لأجلها؛ وما يطلب لأجله شيء يكون ذلك الشيء أدون مترلة منه.

لا يقال: قد اشتهر أن العالم المجتهد في القواعد الفقهية، أفضل من العابد المتجرد للعبادة، فكيف تكون العبادة أفضل من الفقاهة.!

لأنا نقول: الحق أن فضل العالم المجتهد على العابد المتجرد، إنما يسلم إذا كان علمه مما يعم نفعه، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل؛ وإلا فالعلم القاصر بالعمل، ليس بأفضل من العمل القاصر.

فصل

في إثبات التفاضل بين علوم المكاشفة، وأن أجلّها وأشرفها هي معرفة الله.

قد تحقق وتبين مما تلوناه عليك: أن فائدة إصلاح الأعمال من الصلاة، والصيام، والزكاة ،والحج وغيرها، هي إصلاح حال القلب بإزالة أمراضه الباطنة، وتخليته عن رذائله الكامنة، وتصفية وجهه وتصقيله عن ظلمات الصفات الذميمة، ليصلح حاله، ويستقيم ذاته، ويتنوّر وجهه. وفائدة إصلاح القلب، وتصفيته وتنويره، أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته، وصفاته وأفعاله.

ويقال لهذا الانكشاف في عرف أساطين الحكمة والشريعة، معرفة الربوبية المسمى بلغة القدماء اليونانيين بـ **أثولوجيا**[1]. ويسمى العرفاء بهذه المعرفة؛ الحكماء الإلهيين والعلماء الربانيين، وفي لسان الشريعة بالأولياء والصديقين.

فارفع علوم المكاشفة وأشرفها هي معرفة الله تعالى، وهي الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة الحقيقية تنال بها، بل هي عين السعادة الحقيقية والخير الحقيقي ولكن لا يشعر القلب ما دام كونه في الدنيا بأنها هي عين السعادة، وإنما يشعر بها في الآخرة. فهي المعرفة الحرة التي لا تعلّق لها بغيرها، وكل ما عداها من المعارف والعلوم فهي عبيده وخدمه بالإضافة إليها، فإنها تراد لأجلها، وتراد هي لأجل شيء آخر، فلا غاية لها لأنها غير آلية. وباقي العلوم انما تراد لأجلها.

---

[1] أثولوجيا: معرفة الربوبية. ثم إن هناك كتاب لأفلوطين أحد مؤسسي مدرسة الإسكندرية بعنوان (أثولوجيا) ونسب خطأ من قبل البعض على أنه لأرسطو. را: أفلوطين عند العرب، د.عبد الرحمن البدوي، وكالة المطبوعات، الكويت.

ولما كانت غيرها من العلوم مرادة لأجلها؛ كان تفاوتها في الشرف والفضيلة، بحسب تفاوت نفعها بالإضافة إلى معرفة الله تعالى. فإن بعض العلوم هي معدات مؤدية، ومقدمات مفضية إلى بعض آخر، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة. وهكذا ينجر بعضها إلى بعض إلى أن ينتهي إلى الغاية القصوى، التي هي معرفة الله تعالى. فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل، كان أفضل. فعلى هذا علم المنطق أفضل من علم الإعراب واللغة، وعلم النفس أفضل من علم الطبيعة من هذه الجهة. وإن كان بين العلوم تفاضل من جهة أخرى، هي جهة وثاقة الدليل، أو جهة فضيلة الموضوع.

وجميع جهات الفضيلة على سائر العلوم متحققة في المعارف الإلهية: أما فضيلة الموضوع فظاهر؛ وأما وثاقة الدليل فلأن شأن براهينها إعطاء اللميّة الدائمة والإنيّة الأزلية الواجبة الذاتية، من غير تقيد بزمان أو وصف أو ذات، بخلاف سائر العلوم لتقيدها بشيء مما ذكر، وأقلها بما دام الذات. وأما نباهة الثمرة، فلأنها ليست وراءها غاية، بل هي الخير الحقيقي، وخير الخيرات وسعادة السعادات كما علمت.

فصل

في زيادة التبيين لهذا المرام بوجه تفصيلي

فنقول: أن معرفة الحق الأول والنظر إلى وجهه الكريم، أجلّ اللذات وأكملها. لأن اللذات تابعة للإدراك، وتختلف باختلافها؛ كما أن الإدراك يختلف باختلاف المدركات.

أما ترى أن الإنسان جامع لجملة من القوى والمشاعر، ولكل منها غاية ولذة لها في نيل غايتها وغرضها بمقتضى طبعها وفطرتها عليها. إذ لا معطل في الوجود، وأن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ولا هزلاً. بل لكل قوة من القوى، وغريزة من الغرائز على جميع ما في

العالم الكبير غاية هي مقتضاها بالطبع، فلا جرم لذّتها في نيل ما هو غايتها ومقتضاها، وألمها في تخلّف مقتضاها عنها.

فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام، ودفع ما يضاد الجسم الذي هي فيه. وغريزة الشهوة لجلب ما يلائم البدن. وغريزة كل من الحواس الظاهرة والباطنة، فلا جرم لذتها في حصول غايتها ومبتغاها والغرض من خلقها ومقتضاها، وألمها في ضد ذلك.

فكذلك للنفس الإنسانية غريزة عقلية، تسمى بالبصيرة الباطنية واللطيفة الربانية، خلقت ليُعلم بها حقائق الأمور ومهياتها. فمقتضى طبعها المعرفة والعلم، وهي غايتها ولذتها. كما أن مقتضى سائر القوى والطبائع غايتها ولذتها. ولهذا يفرح الإنسان إذا وصف بالعلم، ولو في الشيء الخسيس، كاللعب بالشطرنج وغيره. وذلك لفرط لذة العلم.

ثم لا شك أن ليس في الصنائع العملية لذة العلم بالحياكة والخياطة، كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق؛ ولا في الصنائع العلمية لذة العلم بالنحو والشعر، كلذة العلم بالمنطق والهيئة. بل لذة العلم، بقدر شرف المعلوم. والمعلومات الكلية الباطنية، أشرف من الجزئيات الظاهرة. فالعلم ببواطن الأمور وأصولها وحقائقها، أشرف من العلم بظواهرها وفروعها وعوارضها. فإن كان في المعلومات ما هو حقيقة الحقائق، وأصل الموجودات، وأكملها وأشرفها؛ فالعلم به لا محالة، ألذ العلوم وأشرفها وأطيبها.

وليت شعري هل في الوجود شيء أشرف وأعظم وأجلّ من ذات المعبود، ومبدأ العالم ومدبره، ومتكفله، ومبدأه، ومعيده، وهل يُتصور أن حضرة في الملك والملكوت، والجمال، والبهاء، والجلال أعظم من الحضرة الربوبية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وإشراق نورها وصف الواصفين. فإن كنت لا تشك في ذلك؛ فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية، والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات، الفرح والارتياح.

وبهذا يتبين: أن العلم لذيذ، وأن ألذَ العلوم: العلم بالله، وصفاته، وأفعاله ،وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين.

فتحقق بتلك: أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات، أعني: لذة الشهوة، وأكل الطعام، ولذة الغضب في الرئاسة والانتقام، ولذة سائر الحواس. فإن اللذات مختلفة نوعاً حسب اختلاف المدركات بالنوع، ولذة المعرفة مختلفة بالقوة والضعف.

فنقول: أغلب اللذات الدنيوية لذة الرئاسة والكرامة، لأنها باطنية في الجملة، وليس في رتبتها لذة الشهوات البهيمية الظاهرية، فإن المخيَّر بين لذة الطعام اللذيذ، والدجاج المسمنة واللوزينج، وبين لذة الرئاسة وقهر الأعداء والاستيلاء عليهم؛ يختار الثاني، إن كان [كبير] الهمة غير ساقط النفس، ولا واقعاً في درجة الصبا والفتنة، فيهون عليه الجوع والصبر أياماً عديدة. وإن كان خسيس الهمة، ميت القلب، شديد البهيمية؛ اختار الهريسة والحلاوة، على لذة الرئاسة والكرامة.

فلذة معرفة الله، ومطالعة جمال الحضرة الإلهية الربوبية، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية، ألذ من الرئاسة التي هي أعلى اللذات، على من جاوز نقصان البهيمية والصبا والفتنة. وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿...**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**...﴾[1]، وأنه أعدّ لهم :"ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[2] وذلك لأنه لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل، والتفرد، والفكر، والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرئاسة، ويستحقر الخلق.

وأما من لا خبر له عن المعرفة ولذتها، كمتصوفة هذا الزمان (الآن)، فتراهم يؤثرون صحبة الجماعة، وكثرة الكلام معهم، وأكل الشبهة و الحرام في مجلسهم، وطلب الحكام

---

[1] السجدة-17

[2] منتهى المطلب، العلامة الحلي، ، ج1، ص254.

بوسيلتهم، على الخلوة والتفرّد بذكر الله، والاشتغال بأمور مقربة إليه تعالى، لا يطلع عليه غيره. كل ذلك لخلوة قلوبهم عن معرفة الله، وتسليتهم عنه بغيره. وإلا فالعارف المحقق يستوحش عن صحبة الخلق وحشة الإنسان الحي عن مقاربة الأموات في بيت مظلم. بل العارف الرباني يستوحش من هذه الحياة الدنيوية التي تحجبه عن ملاحظة ذاته تعالى على الوجه التام، ولا يزال يريد الموت الطبيعي للوصول إلى لقاء الله، وحظيرة القدس، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ **مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ...** ﴾[1].

فكل من يرغب في الدنيا ويستأنس بصحبة الجماعة، ويتحاشى عن التفرد منهم، إما بالموت أو بالخلوة عن الخلق، ويدّعي المعرفة والولاية؛ فهو منافق كذاب. قال الله تعالى في حق اليهود، وكشف فضيحتهم، وتكذيب دعواهم محبة الحق وولايته ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[2].

فالعارف يعلم علماً يقينياً تحقيقياً كشفياً: أن لذّة معرفته، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، أجلّ من جميع اللذات الدنيوية، التي معظمها حب الرئاسة، ونيل الجاه، ويستحقر عنده الخلق ورئاستهم القاصرة الدائرة؛ لعلمه بفنائهم، وقصور وجودهم، وقصور رئاستهم المشوبة بكثير من المنافيات والمزاحمات. وذلك بخلاف الابتهاج بالحضرة الإلهية، فإنها خالية عن المزاحمات، متسقة للمتواردين، لا نهاية لفرض هذه المملكة.

فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض[3] يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، وهو آمن من انقطاعها. إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوع[4] ثم

---

[1] العنكبوت - 5

[2] الجمعة - 6

[3] إشارة إلى قوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) آل عمران - 133

[4] إشارة إلى قوله تعالى : (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) الواقعة - 33

هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت؛ إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله، لأن محلها أمر رباني سماوي، إنما الموت يزيدها جلاء وقوة وانكشافاً لمعرفتها بذر المشاهدة.

فإذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، ميدان العارف، يتبوء منها حيث يشاء، من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه. وكل عارف في ملاحظة جمال الملكوت في جنة عرضها ما ذكر، وأوسع منها، من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، وإن كانوا متفاوتين في سعة متزهاتهم، بقدر تفاوتهم في اتساع أنظارهم وفسحة معارفهم، وهم درجات عند الله. وهذا أمر مختلف على غير من ذاق هذا المشرب، واحتجب عن هذا المقام. فربما يُرجَّح عنده لذة الرئاسة على لذة المعرفة؛ كما يُرجَّح عند الناقصين والصبيان وبعض النساء والمخنثين، لذة شهوة النكاح والأكل، على لذة الرئاسة. وعند هذا ليس الكلام مع من أنكر هذا المقام، إلّا أن يقال: من ذاق عرف في البين.

إيضاح استفادي

لا تظن: أن لذّة العارف من انشراح الصدر عقيب انحلال الشبهات، واضمحلال المعضلات، وانشراح الروح عند الفتوح، في رياض المعرفة وبساتينها، أقل من لذة من يدخل الجنة يعرفها، ويقضي فيها شهوة البطن والفرج. وأنّى يتساويان! فإنا لنعلم ههنا من العارفين: من روحه ولذته في فتح أبواب المعارف، لينظروا إلى ملكوت السماء والأرض، وجلال خالقها ومدبرها، أكثر من رغبته في المأكول والمنكوح والملبوس. وكيف لا تكون هذه الرغبة أغلب على العارف البصير، وهي مشاركة للملائكة في الفردوس الأعلى، إذ لاحظ للملائكة في المطعم والمشرب والمنكح. ولعل تمتع البهائم بالمنكح والمطعم والمشرب، يزيد على تمتع الإنسان.

فإن كنت ترى مشاركة البهائم في لذاها، أحق بالطلب من مشاركة الملأ الأعلى في فرحهم وسرورهم بمطالعة جمال الحضرة الربوبية، فما أشدّ غيّك وجهلك، وما أخسّ همتك ،وقيمتك على قدر قيمتك، وما أعجب حالك! أيها السالك! المستولي عليك دعابة الشيطان، بحيث صيّرك مشعوفاً بجاهك الخسيس المنغص بالحقير، مشغولاً بما لك القليل المشوش اليسير، قانعاً بلذات البهائم عن لذة النظر إلى جلال الحضرة الربوبية وجمالها، مع إشراقه وظهوره.

فإنه أظهر من أن يطلب، وأوضح من أن يفقد. و لم يمنع القلوب من الاستهتار بذلك الجمال بعد تزكيتها عن كدورات شهوات الدنيا، إلا شدة الإشراق مع ضعف الإحداق.

وأنت أيها المسكين ذا الجاه الخسيس، والمال الضائع! وإن كنت تضحك بقصور عقلك، ودناءة طبعك كالنساء والصبيان، على البالغين من الرجال والعرفاء، تقول في حق من ترى منهم مشتغلاً بمعرفة ربه، مستوحشاً عن أهل الثروة وأرباب المناصب في الدنيا، مؤثراً للخلوة والقناعة في المآكل والمشارب وألتذاده في الملبس: إنه موسوس إليه، مدبِر، شوم في الطالع، ظهرت عليه مبادئ الجنون؛ لكنك لم تعلم: أنه يضحك عليك بقناعتك بمتاع الدنيا الدنيّة، واشتراكك مع البهائم والسباع في قضاء شهوتك الفانية، وإجراء مقتضى جاهك الحقير، وحالك القصير. [وحالك] معه بعينها حال الكفرة الجهال، وسخريتهم مع نوح عليه السلام في تركيب السفينة ليركبها، وينجو وينجي من الغرق والهلاك[1] هو ومن اتبعه لعلمه بقضاء الله.

---

[1] درهامش آمده من إفاداته أعلى الله مقامه:

صنعت عالم سفينة ساختن	كار جاهل دين بدنيا باختن
طبع جاهل همچو طفلان تا ابد	كشته عاكف سوى لذات جسد
اين همى سازد سفينه در[حيات]	آن يكى در بحر دنيا كشته مات
۞العالم مشغول بصنع سفينةالنجاة	والجاهل مشغول ببيع الدين بالدنيا
فالجاهل طفل في طبعه الى الابد	مشغول دوما بلذات الجسد
ذاك وقف حياته على صنع قارب النجاة	والآخريقضي غرقا في بحر الدنيا

فالعارف مشتغل بتهيئة سفينة النجاة من غرق بحر الهيولى من حاله، ولسع تماسيح الهوى لنفسه ولغيره. ويسخر من[هذه] حاله، وهو يقول، كما حكى الله عن العارفين ﴿...إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1]

والعارفون ينظرون إلى العاكفين في حضيض الشهوات؛ نظر العقلاء إلى الصبيان؛ عند عكوفهم على لذة اللعب، ولذلك تراهم يستوحشون من أكثر الخلق، ويؤثرون العزلة والخلوة، فهو أحب الأشياء لهم. ويهذئون من المال والجاه، علماً بأنه يشغلهم عن لذة المناجاة، ويعرضون عن أهلهم وأولادهم، ترفعاً عن الاشتغال بهم عن الله تعالى. فهؤلاء هؤلاء، وأنتم أنتم.

فصل

في بيان تفاضل الأحوال

اعلم أن الأحوال يعني بها ههنا أخلاق النفس وملكاتها الفاضلة التي يؤثر لوجودها واستقرارها في تصفية الروح الإنساني، المسمى بالقلب الحقيقي، وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق تأثيراً ضعيفاً أو قوياً، حتى إذا طهر القلب وصفا، اتضح له حقيقة الحق.

والأحوال الجميلة في الإنسان تنبعث من الأعمال الحسنة الصادرة منه، كما أن الصفات الرديئة تنشأ من الأعمال السيئة. إذ ما من عمل يصدر من ابن آدم: من قول أو فعل، أو فكر أو عمل، خير أو شر، إلا وله تأثير في أحوال قلبه. وإليه الإشارة بقوله تعالى﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[2].

---

[1] هود - 38

2 الزلزلة 7-8.

وقال **فيثاغورس** الحكيم: اعلم أنك ستعارض بأفعالك، وأقوالك، وأفكارك، وسيظهر لك من كل حركة فكرية، أو قولية، أو عملية،صور روحانية أو جسمانية. فإن كانت الحركة غضبية أو شهوية، صارت شيطاناً يؤذيك في حياتك، ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك. وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكاً تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي بنوره في أخراك إلى جوار الله وكرامته.

وبالجملة. الأخلاق مواريث المعاملات. فإن المقالات إذا تكررت بالنيات الصادقة، حصلت منه الملكات. وإذا حصلت من دوام تكررها الهيئات الراسخة في النفس المتنورة بنورها وصفائها الروح الناطق؛ فيسهل عليها بسبب تلك النيات الخالصة والهيئات النورية صدور الفضائل والخيرات منها، صدوراً تابعاً لفيضات صورها الحق عليها من باب الرشح[1]، من غير روية وقصد على ما تقرر في مقامه، من الفرق بين الغاية الذاتية والغاية

---

[1] الرشح : المراد به رشح الصور على النفوس عند اتصالها الروحاني بالعقل الفعّال . وهذه المسألة - كيفية الادراك - من ادقّ المسائل الفلسفية والحكميّة ، والدخول فيها يحتاج إلى مقدمات . ولكن على سبيل الاختصار نقول :

هناك ثلاثة مذاهب في كيفية إدراك النفس الإنسانية حقائق الاشياء ، قال المحقق السبزواري : " في كيفية فيضان الصور العقلية على النفوس النطقية القدسية أقوال :

أحدها : على سبيل رشح الصور على النفوس عند اتصالها الروحاني بالغقل الفعّال ، إذ فيه صور كل الحقائق ، وتترشح عليها على حسب استعدادها .-

- وثانيها : أنه على سبيل الإشراق ، بأن يشرق نور العقل الفعّال على العقل بالفعل ، وينعطف منه إلى العقل الفعّال ، ويرى ما فيه بقدر استعداده وطلبه كما في الإبصار على قول الرياضيين ...

وثالثها : انه على سبيل الفناء في القدسي والبقاء به ..." .(شرح المنظومة ، ج1، قسم المنطق ، تصحيح وتعليق آية الله آملي ، ص292-296)

والمختار عند المحققين كصدر التألهين- خلافاً على الموجود في الكتاب - والسبزواري وغيرهم هو المذهب الثالث ولهذا قال صدر المتألهين : " وعند التحقيق يظهر على العارف البصير أنه لا هذا ولا ذاك - إشارة إلى المذهب الاول والثاني - بل بان سبب الاتصال التام للنفس بالمبدأ لما كان من جهة فنائها عن ذاتها واندكاك جبل إنيتها وبقائها بالحق واستغراقها في مشاهدة ذاته فترى الأشياء كما هي عليها في الخارج..." . (الحكمة المتعالية ، المرحلة السادسة ، الفصل الثالث والثلاثون .

نعم يظهر من المصنف انه اختار المذهب الاول من باب الرشح في هذا الكتاب ولكن بما ان كتابه الحكمة المتعالبة هو من اوسع واهم تصانيفه لذا نرجح ما ذهب في كتاب الحكمة المتعالية على ما ذهب اليه في هذا الكتاب .

العرضية[1].

فإذاً فضائل الأعمال وتفاضل بعضها على بعض، إنما يكون بقدر تأثيرها في إصلاح النفس، وتصفية القلب وتنويره، واعداده لأن تفيض عليه علوم المكاشفة ومعارف الحق. وكما أن تصقيل المرايا وتصفيتها، مما يحتاج إلى أعمال وأفعال سابقة معدّة، وأحوال مقدمة شرطية بعضها أقرب إلى الصقالة التامة من بعض فكذلك أحوال القلب الحاصلة من الأعمال المتقدمة، المتوقف عليها جلاء بيت القلب وصفائه، لتترل فيه المعارف الحقة والمعالم الربوبية. فالحالة القريبة والمقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة؛ بسبب القرب من المقصد الأصلي والمطلب الحقيقي.

فصل

في توضيح القول في تفاضل الأعمال

وكما علمت مما ذكرنا: ملاك الشرف والفضيلة، والسبق والتقدم في الأحوال والملكات القلبية والروحية، فكذلك يجب أن تعلم: ملاك التفاضل والتقادم في الأعمال والأفعال البدنية والنفسية فإن تأثيرها في تأكيد صفات القلب وجلب الأحوال، واقتناص الأعمال مما يتفاوت شدة وضعفاً، كمالاً ونقصاً، خيراً وشراً.

فكل عمل: إما أن يجلب إلى القلب حالة مانعة من المكاشفة، موجبة لظلمة القلب، جاذبة إلى زخارف الدنيا وشهواتها، كالحجاب للنفس وبُعدها عن رحمة الله تعالى وحرمانها

---

[1] - الغاية :" هي الكمال الأخير (الكمال الثاني) الذي يتوجه إليه الفاعل في فعله " . بداية الحكمة ، م.س. ص123.
وهي تنقسم بانقسام إلى إتفاقية وضرورية ، والغاية الضرورية تنقسم إما ذاتية زإما عرضيّة .
فالغاية الذاتية هي الغاية التي توجهت إليها الطبيعة ، أو الإرادة وطلبتها لذاتها . والعرضيّة ما لا تكون كذلك .

عن النعيم الآخروي، وإما أن يجلب إليها حالة معدّة لتنوير القلب مهيأة للمكاشفة الحقة، موجبة لصفاء النفس، وتجردها عن التعلّقات الشهوية والغضبية، مقتضيةً لإعراضها عن الأمراض الحيوانية، والإخلاد إلى أرض الجسمانيات، وأفق الحسيات، باعثة إياها لابتغائها وجه الله، واتقاءها عما سواها. واسم الأول **المعصية**، واسم الثاني **الطاعة**.

وكما أن المعاصي من حيث تأثيرها في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، فبعضها كبيرة وبعضها صغيرة على مراتب ودرجات؛ فكذلك الطاعات في تنوير القلب وتصفيته، فدرجتها في الفضيلة والرتبة، بحسب درجات تأثيرها في التنوير والتصفية.

والغاية الأخيرة، والمقصود الأصلي كما مر مراراً، هي مكاشفة صورة الحق ومعرفة الرب. وذلك مما يختلف باختلاف الأحوال والأوقات والأشخاص، فربما كان لأحد قيام الليل أفضل من إيتاء الصدقات، وربما كان الأولى عكس ذلك، وربما كان صوم ستين يوماً أفضل لأحد في باب الكفارة من عتق رقبة، كما للسلاطين والأمراء من أهل الدنيا.

وهم وتنبيه

ربما يعجزك عن الاعتراف بفضيلة الأحوال على الأعمال، وكونها أدون منزلة من الأحوال، وبتوسطها من العلوم الحقيقية، ما قرع سمعك في الشريعة الحقة من الحث والترغيب على الأعمال، والتأكيد المستفاد من الكتاب الإلهي في إيتاء الزكاة، والمبالغة في طلب الصدقات، بقوله تعالى ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَنا...**﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿...**يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**...﴾[2] فتقول: كيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل من الملكات والأخلاق؟.

[1] البقرة-245
[2] التوبة-104

فاعلم أن الأوامر والنواهي الشرعيّين، والترغيبات والترهيبات الواقعة من الشارع، إنما تعلقت بأمور اختيارية يكون للإنسان اقتدار على فعلها وتركها، واختيارها في وجودها وعدمها. وأما الملكات النفسانية والأحوال القلبية، فهي أمور طبيعية فائضة من المبدأ الأعلى بلا مدخلية اختيار العبد واقتداره فيها، وتوقفها عليها، إلا توقفاً بعيداً، ومدخلية بالواسطة؛ فلا حاجة في حصولها للقلب وزوال أضدادها إلى ترغيب وترهيب، لأن الفعل المرغوب يؤدي إلى الخلق الحسن، والفعل المرهوب يؤدي إلى ضده، سواء تعلق به ترغيب وترهيب أم لا.

ثم اعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء؛ لم يدل على أن الدواء مراد لذاته، مقصود بعينه، وعلى أنه أفضل من الصحة والشفاء؛ وإنما استكفى الطبيب بمدح الدواء عن الشفاء، لاعتقاده أن تناول الدواء يؤدي إلى حصول الشفاء ولا يأمر المريض بعد تناول الدواء على وجهه لعمل آخر، لعدم توقف حصول الشفاء بعد حصول المعدات، وتهيئة القابل، الحاصلة بتوفيق الله على شيء آخر، إلا إفاضة المبدأ المفيض الحق على كل شيء ما يستحقه.

كذلك الأعمال الشرعية علاج لأمراض القلب، ومرض القلب مما لا يشعر به غالباً، وقد غفل عنه الأكثرون، وقل من يتفطن بوجوه الربط والمناسبة بين الأعمال التي أمرنا بها الشارع، وبين التخلّق بالأحوال الفاضلة، والتنزّه عن الأمراض القلبية. وقد اغترّ بمثل هذا الغرور طائفة، وسلكوا طريق الإباحة، وقالوا: إن الله غني عن عبادتنا، وأي فائدة لنا وله في قيامنا وحجنا وزكاتنا، وهو غني أن يستقرض منا! فأي معنى لقوله تعالى ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**...﴾[1] ولو شاء إطعام المساكين لأطعمهم، فلا حاجة لنا إلى صرف أموالنا إليهم. كما حكى الله تعالى في كتابة العزيز بقوله عن الكفار ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**

1 سورة البقرة 245

أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ...﴾[1] وقال الله تعالى، اخباراً عنهم **﴿...لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا...﴾**[2] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم هلاكا أبديا وخسرانا سرمديا. وهكذا حال أكثر المجاهدين المتفلسفين والمعاندين المغترين مع ظمأ الجهل والخسران بلامع السراب وغرور شبهة الشراب. فسبحان من اذا شاء اهلك بالصدق، واذا شاء اسعد بالجهل، يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا .

نقاوة إجمالية .

قد تبين أن الأعمال الحسنة مؤثرة في القلب تصفية وتنويرا، يستعد بحسب نقائه وجلائه عن الغواشي والريون والطبائع، لقبول نور المعرفة والهداية. ذلك هو الثمرة والغاية في كل عمل وفعل. فهذا هو القول الكلي والقانون الاصلي **﴿...وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[3].

فصل

في ان العالم الرباني مقصود أولي للإيجاد والتكوين، وباقي المخلوقات: إما أسباب معدة لوجوده[4]، وشرائط سابقة لحصوله[5]، وإما فضالات تفضل من تخمير طينتة المخمرة بيد القدرة أربعين صباحا[6] اورشحات زائدة تفيض من ماء وجود المبدأ الحق الفاضل على

---

1 سورة يس 47

2 سورة الانعام 148

3 البقرة 213

4 بناء على نظرية الحكمة المتعالية

5 بناء على نظرية الحكمة المشائيه

6 را: العقائد الإسلامية اعداد مركز المصطفى للدراسات الإسلامية

را ايضاً: حديث الطلب والارادة : الإمام الخميني تقرير آية الله الجيلاني ط1،مؤسسة العروج، المطلب الثالث،ص 143-168

أناء قابلية الوجود. فحصلت من ذلك طوائف من المكونات وقبائل من المخلوقات، المستضيئة بأضواء قدرة الله، الفائضة عليهم بواسطة الإنسان الكامل[1]، المستهدي بنور معرفة الله، المنقطعة إليهم، والمخلوق المتأصل المتعطف إليهم ظلاله بفضل إرشاده و هدايته لهذا.

وتمام التحقيق في هذا المقام انما يحصل من اغتراف غرفة من بحر عميق من البحر **المكاشفات الذوقية**، المشار الى **لوامع** منها في مواضع متفرقة من الكتاب الكبير المسمى **بالأسفار الأربعة** يعرف قدرها ويدرك غورها من تعلم **منطق الطير**[2]، يجحدها العاجزون المقعدون عن **السلوك والسير**[3].

---

1 الانسان الكامل :" هو الجامع لجميع العوالم الالهية و الكونية الكلية والجزئية. وهو كتاب جامع للكتب الالهية فمن حيث روحه وعقله كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة" التعريفات للجر جاني ص39.

ويعتبر محي الدين العربي أول من استعمل مصطلح الإنسان الكامل ونظّر له في العرفان النظري وكل من جاء من بعده كالقونوي والفناري وغيرهم يعدوا شراح للشيخ الأكبر ابن عربي .

مراجعة بحث الإنسان الكامل :

را: فصوص الحكم لأبن عربي

را : مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم : القيصري

را : شرح فصوص الحكم : تعليق سيد جلال الدين الاشتياني

را : مفتاح الغيب : للقونوي : خاتمة الكتاب في بيان خواص الإنسان الكامل 99-143

را : مصباح الإنس: للفناري : خاتمة الكتاب

را : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل : الشيخ عبد الكريم الجيلي، موسسة التاريخ العربي

را: الإنسان الكامل في نهج البلاغة : الأستاذ حسن زاده املي، موسسة المعارف الإسلامي، ط 1.

را: الإنسا ن الكامل : الشهيد مرتضى المطهري. موسسة البعثة .بيروت .

2 – إشارة إلى كتاب منطق الطير : لفريد الدين العطار النيسابوري. دراسة وترجمة دار الأندلس بيروت

3 السير والسلوك : فالسير هو مشاهدة آثار وخصائص المنازل والمراحل أثناء الطريق واما السلوك هو طي الطريق. ثم ان المراد من المنازل والمراحل هو المقامات التي يتحقق بها السالك خلال سيره والتي اعتبرها البعض سبعة مقامات و البعض الاخر عشرة مقامات، والبعض الاخر مئة مقام كالخواجة الأنصاري في كتابة منازل السائرين .-

وإيجاز القول عن نبذ منها : إن لله تعالى في جلاله وكبريائه صفة يفيض بها على الخلق نور رحمته وجوده تكوينا واختراعا، يعبر عنها بلفظ جلت عظمة تلك الصفة عن ان يكون مبادئ اشراق نورها مفهومة منه، هو لفظ " **القدرة** " فتجاسرنا مضطرين لأن نستعير من حضيض عالم الألفاظ واللافظين، لملاحظة ذروة جلال تلك الصفة وعظمتها، عبارة توهم من مبادئ حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً فقلنا : لله صفة عنها يصدر الخلق وهو الاختراع.

ثم الخلق ينقسم تقسيماً عقلياً إلى أقسام، لتنوع فصول ومبادئ انقسام. استعير لمصدر هذه الأقسام، ومبدأ هذه التخصيصات من جهة الحكمة بمثل هذه الضرورة الواقعة في عالم التخاطب للمتناطقين، عبارة" **المشيئة**" .

ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة المنبعثة من المشيئة، الناشئة عن الحكمة، التي هي علمه تعالى بالنظام الاوفق، وهو عين ذاته، الى ما ينساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها، والى ما يوقف دون الغاية. واستعير لاحدهما عبارة **المحبوب** وللأخر عبارة **المغضوب عليه**،وهما جميعا داخلان تحت القدرة والمشيئة، إلا أن لكل منهما حاجة غير الآخر توهم لفظاً " **المحبة والكراهة** " عند اللغويين المقتنصين حقائق الأشياء من الألفاظ شيئاً غير ما فهمه العارفون .

ولما علمت ان لكل منها حاجة لازمة يكون مقتضى ذاته من غير تخلل جعل مستأنف بينه وبينها،وهي مستدعية لأن يرد عليه من سلطان الأزل،ويترل إليه من المشيئة

-ثم أن رغبة السالك إلى الله هو الوصول إلى مقام التوحيد وذلك بعد ان يمر السالك في مقامي الفناء والبقاء قال الخواجة الأنصاري : (والى هذا التوحيد شخص اهل الرياضة وأرباب الأحوال ولن قصد أهل التعظيم وإياه عنى المتكلمون في عين الجميع وعليه نصطلح الإشارات ثم لم ينطق عنه لسان و لم يشير أليه عبارة فأن التوحيد وراء ما يشير اليه مكون او يتعاطاه حنين او يقله سبب

ما وحد الواحد من واحد اذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق من نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده اياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

السابقة لباس يناسبه،وكسوة تلائمه، فانقسم عباد الله الذين هم من خلقه واختراعه الى من سبقت لهم في المشيئة السابقة،لباس يناسبه وكسوة تلائمه،فانقسم عباد الله الذين هم من خلقه و اختراعه إلى من سبقت لهم في المشيئة الأولية كسوة الوقوف في سبيل الحكمة دون ان يبلغ إلى غايتها وهيئة السكون في أوساط حدود السباقة والهداية من غير أن يصل إلى نهايتها،ويكون ذلك قهراً في حقهم بلا تسليط الواعي والبواعث عليهم. والى من سبقت لهم فيها لباس المعرفة والتقوى، لا ان تساق بهم إلى غايتهم ويكون ذلك لطفا في حقهم .

واستعبر لنسبة احدهما في الاستعمال لاتمام الحكمة عبارة " **الرضا** " ولمقابله عبارة " **السخط**".

وظهر على من حمل عليه غضب الرحمان بتقدير أزلي فعل وقفت به الحكمة دون غايتها،يستعار له اسم " **الكفران** " واردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال .

وظهر على من ارتضاه بقضاء سابق فعل انساقت به الحكمة الى غايتها،يستعار له أسم " **الشكر** " وأردف بنعمة الثناء زيادة في القبول والرضا وبه يكمل الإيجاد والوجود وبه يتصل دائرة الفيض والجود .

تلويح عرشي

إن الحق الأول بمشيئته التي هي عين ذاته، أفاد الجمال أصالة، واثنى عليه، وأوجد النكال تبعاً قبّح وزجر عنه. فيكون بالحقيقة هو المجمل والمثني في كل حال. فلم يثن من حيث المعنى إلا إلى نفسه. وإنما العبد هدف الثناء، من حيث الظاهر والصورة. وهكذا انتظمت الأحكام الإلهيه وعكوس أشعة الصفات والأسماء الجمالية والجلالية، بها ترتبت الأمور في الآزال، وتسلسلت الأسباب من المبدأ الفعّال بقضاء حتم وقدر جزم. و لم يكن

شيء من ذلك عن اتفاق وبخت كما يقوله القائلون بالاتفاق كأصحاب **ذيمقراطيس**[1] ولا عن أرادة جزافية وأمر بحت من دون حكمة ومصلحة داعية كما زعمه الاشاعرة[2]. بل بعلم كلي[3] هو قضاء سابق وآخر تفصيلي هو قدر لاحق، ففاضت بحار المقادير بحكم القضاء الأول بما سبق به التقدير .

وهم وإزالة

لّما سبق إلى قريحتك ان ليس شيء من الموجودات العالية خارجا عن قانون القضاء والقدر،فليس لك ان تصول وتقول لضيق حوصلتك وقصور احاطتك بسلسلة الاسباب وربطها بالمسببات : إن القسمة الأزلية لماذا اقتضت هذا التفصيل،فكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل،وأين عدل الله فينا،وقد قال تعالى :﴿...**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[4] .

فاسكت أيها القاصر المقتصر في درك الحقائق على مدارسة أحكام الألفاظ والظواهر،وأين لك مع بضاعتك المزجاة التعمّق في بحور هذه الذخائر، وأنى للعميّان السؤال عن حقائق الأكوان، وكيف للساكنين في حضيض عالم الألفاظ والمباني

---

1 قال صدر المتألهين:" زعم ديمقراطيس أن و جود العالم انما يكون بالاتفاق وذلك لأن مبادئ العالم أجرام صغار لا يتجزىء لصلابتها وهي مبثوثة في خلاء غير متناه. وهي متشاكلة الطبائع، مختلفة الأشكال دائمة الحركة فاتفق ان تصادمت منها جملة واجتمعت على هيأة مخصوصة فتكوَّن منها هذا العالم .ولكنه زعم ان تكوّن الحيوان والنبات ليس بالاتفاق ". الأسفار ،ج 2،ص 354-353

2- باعتبار أن الاشاعره قائلون بان أفعال الله غيرمعللة بالأغراض . يقول العلامة الطباطبائي (ذهب قوم من المتكلمين الى أن الواجب تعالى لا غاية له في افعاله لغناه بالذات عن غيره وهو قولهم : أن أفعال الله لا تعلل بالأغراض) وردّ عليهم العلامة الطباطبائي بقوله : (ان فعل الفاعل لا يخلو من أن يكون خيرا مطلوبا له بالذات أو منتهيا إلى خير مطلوب بالذات وليس من لوازم وجود الغاية حاجة الفاعل اليها لجواز كونها عين الفاعل كما تقدم).نهاية الحكمة ، م.س. ص206.

3- أن اصطلاح الكلي من المصطلحات المستعملة في علوم عديدة لذلك هو من المشتركات اللفظية فان الكلي يطلق في المنطق و يراد به غير ما يراد منه في الفلسفة، وهما غير ما يراد به في العرفان. على هذا الأساس كان ضبط المصطلح هو المدخل لكل علم من العلوم .ثم إن المراد من الكلي هنا هو الكلي العرفاني ويراد منه السعة الوجودية .

4- سورة ق -29 .

والاستشراف بعقولهم المزخرفة في إدراك الحقيقة العظيمة والمعاني؟ فليس لاحد من الراسخين في العلوم ولا من تأدبهم بآداب الله وآداب الرسول ﷺ ان يتخاطبوا معك ومع نظائرك واترابك ممن ألجموا بلجام المنع عما لم يطيقوا خوض غمرته. ولم يتكفلوا جوابكم،الا بأن قالوا لكم: اسكتوا ! فما لهذا خلقتم **﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾**[1]. " عليكم بدين العجائز"[2] والزمنيّ والمقعدين عن سلوك سبيل الله،ومعرفة ملكوته وآيات سلطانه وجبروته! لأن غاية عرفانكم وقصارى إيمانكم ان تؤمنوا بالغيب ايمان الاكمه بحقيقة الأكوان وعرفان العنين كنه لذة الوقاع مع النسوان، إيماناً مركباً من خيالات، ومشوباً بتمثيلات بعيدة عن كنه الأمر ومهيته، لا عن مثاله وعنوانه.

وأما من امتلئ مشكاة عقله المنفعل عن **العقل الفعّال**[3]، نوراً مقتبساً من نور الله والنافذ في سماوات الأرواح وأراضي الأشباح، وكان زيت **عقله الهيولاني**[4] أولاً صافياً عن كدورة الأخلاق الذميمة، بل يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسّته نار العقل الفعّال، واشتعل نوراً على نور،فأشرقت أقطار الملكوت بين يديه بنور ربه فادرك الامور والحقائق كما هي عليه،نقول له ولمن في طبقته : تأدبوا بأدب الله، واسكتوا وإذا ذكر القدر فامسكوا. فأن حولكم ضعفاء الأبصار، فسيروا سير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب

---

1 الأنبياء 23

2 كتاب الأحكام : الامدي ج 4، ص224 حيث أورد هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وفي بعض الكتب ورد هذا الحديث عن سفيان الثوري .

3 العقل الفعّال: هو جوهر بسيط روحاني، نور محض في غاية التمام والكمال والفضائل وفيه جميع الاشياء. (رسائل أخوان الصفاءج3ص187).ثم ان اثبات العقل الفعّال هو بناءً على مبنى المشائين الذين اثبتوا العقول العشرة وجعلوا العقل الفعّال هو العقل العاشر وهو الذي يفيض الصور العقلية الكلية وهو اقرب العقول الى عالم المادة والماديات.

4 العقل الهيولاني : وهي مرتبة كون النفس خالية عن جميع المعقولات : وتسمى العقل الهيولاني لشباهته الهيولى الأولى في خلوّها من جميع الفعليات (نهاية الحكمة ، م.س، ص76).

الشمس لأبصار الخفافيش،فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلّقوا بـأخلاق الله فـانزلوا إلى السماء الدنيا عن منتهى علومكم ليأنس بكم ضعفاء البصائر ويقتبسون من بقايا أنواركم؛ كما يقتبس من بقايا انوار الشمس ضعفاء الابصار كالخفافيش فيحيّون بها حياة يحتملـها نوعهم وحالهم،وان لم يحيّوا حياة المترددين في كمال النور والضياء .

تذكرة

من كان ذا بصيرة ثاقبة في درك الحقائق، وذا قدم راسخ في التخلّص عن مضـائق العلائق،يبصر بعين بصيرته النافذة حقيقة كل شيء،ويطير اليها بجناح همته وشوقه من غـير قائد يقوده .

وأما من عميت بصيرته في درك الحقائق؛ فيمكن له ان يقاد، ولكن الى حد ما، فإذا بعُد المطلب، وضاق الطريق، ولطف المجال، وصار أحدّ من السيف، وأرقّ مـن الشـعر، وألطفَ من الماء، يقدر الطائر على الطيران عليه، والماهر بصنعة السباحة على العبور منـه، لكن لم يقدر احدهما على أن يقود ورائه العميان، أو أن يهدي من خلفه الزّمِنيّ والسّكان.

والعجب من زمنيّ هذا الزمان عن طريق السلوك والسير وعماة هذا الدوران عـن ادراك التفرقة بين الخير والشر والنفع والضر، كيف يدعون مع فقد بصيرتهم الباطنة وعمى قلوبهم، إرشاد الغير، وكيف يريدون مع زلة أقدامهم عن منازل السائرين،و قصور عقولهم كالنساء والصبيان عن درجة الكاملين البالغين السابقين،هداية الخلق ورئاستهم،وان يكونوا مع قصور عقولهم مشايخ قائدين في الطريق و رؤساء في القوم؟!

فما أبرد منهم هذه الدعوى، وما أسخف من مريديهم الاقتداء، وما أشد حماقـة هؤلاء الذين اقتدوا بمن يريد العلو والرئاسة والقيادة، وتشبثوا بذيلهم، ونكبوا عن الطريـق بغيهم وضلالهم فلو تنبهوا قليلا من سنة الغفلة، واستيقظوا يسيرا من رقـدة الجهالـة، ثم تفطّنوا أدنى فطانة؛ لعلموا أن كل من يزعم لنفسه أهليّة منصب عال، مـن غـير وحـي

وانزال، وكتاب مبين، ويبرئ نفسه عن القصور والنقصان، ويدّعي لها مقام الارشاد من قبَل الله تعالى من غير سلطان أتاه؛ فقد ظلم نفسه، وتعدى حدود الله، وتعرّض لسخطه. وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعدّ لهم عذاباً اليماً ﴿...بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾[1] ...﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾[2] ﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3] فهؤلاء هم المردودون ﴿...وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[4].

تنبيه للغافلين وإيقاظ للنائمين.

وليعلم كل احد يقينا : إن من اعتقد في الله، وصفاته، وافعاله، وكتبه، ورسله، واليوم الاخر شيئاً على خلاف ما هو عليه،إما تقليداً، وإما نظراً بالرأي واستعداداً بالعقل؛ فهو في خطر سوء العاقبة عند السكرات وعواصف الأهوال، وفي معرض طريان الجحود أو الشّك حين حضور الموت، وظهور ناصية الملك الموكّل به. والزهد والصلاح لا يكفيان لدفع هذا الخطر، فكيف التوغّل في الشهوات والاشتغال بالمزخرفات!

بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحقّ الرّاسخ، والقول الثّابت الذي يثبّت الله به العباد، وقوي عليه الاعتماد. والبله بمعزل عن هذا الخطر العظيم. وكذا كل من آمن بالله واليوم الآخر إيماناً ساذجاً جزماً واعتقاداً مجملاً راسخاً، كالأعراب والسّواديّة والعوامّ الذين لم يخوضوا في البحث والنظر، و لم يدّعوا لأنفسهم العرفان، و لم يعدّوها من الرؤساء الكاملين في العلم والإيقان.

---

1 البقرة 225.

2 غافر 131.

3 النمل 33.

4 .الزمر 47.

وخطر من زعم لنفسه الاستبداد بالرّأي في حق الله، وصفاته وآياته عظيم، وعقباته صعبٌ، ومسالكه وعرة. وعقول الجماهير عن درك جلال الله قاصرة، وقلوبهم عن نور معرفته، بما جبلت عليه من حيث الشهوات، محجوبة في حبّ محبوبه.

وما ذكره أصحاب النظر، وأرباب الفكر، ببضاعة عقولهم المزجاة مضطربٌ، وأدلتهم متعارضة. وطبائع النّاس لما ألقي إليها في مبادئ النشوء أليفة، وبه أنيسة. والتّعصبات الثائرة بين كلّ طائفة مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة، أو المأخوذة بحسن الظّن في أول التعاليم من المعلمين.

وشهوات الدّنيا مقبلة، ولذّة الرّئاسات والترفّعات حاصلة. و ما يروح الباطل ويمحق الحقّ من رفعة حال الجهلة والارذال قائمة مستمرة. وألسنة كلّ جاهل منهم على دعوى الكمال، والإحاطة بكنه المقامات والأحوال ناطقة. فوا أسفاه على فقد أكابر الدّين، ووامصيبتاه على انسداد طرق المعرفة واليقين!

فصل

في سبب سوء الخاتمة

أعلم أن سوء الخاتمة قد يكون من جهة الاعتقادات، وقد يكون من جهة الأعمال. ومن يرى الأشياء كما هي عليها من غير جهل وعمى، ويجزى طول عمره في طاعة الله من غير معصية، فهو لآمن من سوء الخاتمة وخسران العاقبة. وهذا أعلى درجات العارفين. فإن كان ذلك لكل مؤمن يريد الآخرة، ومقارنة الحق، مستحيلاً أو عسيراً؛ فلا بد عليه من الخوف والخشية ما على العارفين، حتى يدوم بكاؤه، ويطول حسرته وحزنه ونياحته، كما يحكى من أحوال الأصفياء.وأما من أستولى على نفسه حبّ الرئاسة والتعصّبات النفسانيّة، وغلب عليه الجحود والاستكبار، وطلب الرئاسة والتبسّط في الديار، والتسلّط على النّاس، بادّعاء الفضيلة والاستظهار؛ فهو متعرّض لسوء العاقبة، عند ظهور ناصية ملك الموت.

فان سبب سوء الخاتمة أمران:

أحدها: وهو الأدهى والأشدّ أن يغلب على القلب اعتقادات تعصبية، غير حاصلة من طريق الكشف أو البرهان اليقينيّ الدّائم، بل من وجهة التقليد، وطلب العلوّ والاستكبار. فإن كلّ نازل إلى عقيدة تلقفّها من المجادلين ببضاعة عقولهم البحثيّة دون المتألهين ببضاعتهم الكشفية في تهذيب قلوبهم؛ فهو فاسد الدين فاقد طريق الكشف واليقين، ولا محالة يطرأ عليه عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود. وكذلك كل من خاض في البحث والتفكير المحضّ، من غير أن يجاوز من حدود أبحاث العقول إلى حدود أنوار المكاشفة التي تشرق في عالم الولاية والنبوة.

وثانيها: استيلاء حب الدنيا وطلب الجاه والمترلة عند الناس. وقلما يخلوا عنهما أحد في العالم. إلا أن استيلائها داء عظيم، لأنه يوجب ضعف الإيمان. ومهما ضعف الإيمان والإعتقاد بالله، وصفاته، وأفعاله، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، ضعف حب الله.

فإن المحبة إما عين المعرفة، أو مساوية لها، فقوة المحبة لا ينفك عن قوة المعرفة واليقين، وضعفها عن ضعفها. فإذا قوي حب الدنيا، فيصير بحيث يستغرق القلب، فلا يبقى فيه موضع لحب الله، إلا من جهة حديث نفس، أو حكاية لفظ، لا يظهر له أثر في تنوير الباطن، وكشف الحجاب، فيورث ذلك التوغل في اتباع الشهوات، والانهماك في اقتراف السيئات حتى يظلم ويسود، ويقسو وتتراكم ظلمة الذنوب، ولا يزال ينطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه، حتى يصير كدورة حب الشهوات طبعاً ويناً. حتى إذا جاءت سكرة الموت بالحق، ازدادت محبته لله ضعفاً لما يبدو له من استشعار فراق الدنيا من قلب ما قدّره الله، فيختلج في ضميره إنكار ذلك، فيخاف عليه أن يظهر في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، لما يرى أن ما حال بينه وبين ما يشتهيه وهو الموت، إنما نشأ من جانب الله والقلوب مجبولة على بغض من صار سبباً لحرمانه عن محبوباته ومستلذاته.

فحب الدنيا رأس كل خطيئة. وباعثه قلة المعرفة بالله وملكوته، إذ لا يحبه إلاّ من عرفه، ولا يعرفه إلاّ من زهد في الدنيا، واجتنب عن مرغوباتها، وبعد عن مستلذاتها. فعلامة حب الله ومعرفته الاجتناب عن الدنيا وما فيها، بحسب القلب والباطن، وان كان بحسب الضرورة الدينية معاشراً للأهل، والعيال، والولد، والمال على قدر الكفاية، من غير تعلّق له إليها بحسب الخاطر والبال.

ونحن نقضي العجب ممن يدّعي محبة الله، مع انغماسه في الدنيا وشهواتها، وتورطه وانهماكه في اللذات. وأعجب من ذلك حال الجهلة من الناس والحمقى من العوام، في قبولهم ذلك عنه، مع انهم من الذين أعطاهم الله قدراً من العقل ما تميّزوا بذلك عن البهائم، ورزقوا من الفهم ما ميّزوا بين أولياء الله واعدائه ،سواء استقلوا بفطانتهم في الوصول الى هذه المرتبة من التمييز والتفرقة، أو بلغوا إليها بوسيلة ما قرع أسماعهم ،ووصل إلى أفهامهم من آيات وعلامات يكون لأحباء الله تعالى ،ومن أضداده التي يكون لأعداء الله تعالى ،حتى يعلموا بالعقل والنقل التفرقة بين من يدّعي محبة الله كذباً وزوراً ،وبين من صفته حقاً وصدقاً .فان المحبة يدّعيها كل أحد ،وما أسهل الدعوى،وما أعزّ المعنى.

فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان ،وخداع النفس حين يدّعي المحبة ما لم يمتحنها بعلامات ،ولم يطالبها بالبراهين والشواهد .لان المحبة اذا تمكنت في القلب ترشحت آثارها على الظاهر والجوارح،وتدل عليه دلالة الدخان على النار ،ودلالة الثمار على الأشجار .وهي كثيرة فلنذكر بعضها هنا ليعرف بها الإنسان صدق من يدّعي محبة الله وولايته، عن تزويقه ومكره ونفاقه.

فصل

في ذكر نبذ من علامات المحبين لله وأوصافهم

فمنها :محبة الموت ،لاستلزامه لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة .واذا علم المحب انه لا يمكن المشاهدة واللقاء إلا بالارتحال إلى دار القرار، وهو لا يتصور إلا بالموت، فلا بد أن يشتاق إلى الموت، ولا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقرّ محبوبه، والموت مفتاح الفلاح، وباب الدخول إلى محبوب الأرواح. وقد جعل الله تعالى محبّة الموت وتمنّاه علامة محبة الله وولايته، وشرطاً لصدق دعواها، حيث قال:﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[1]. وقد جعل الله سبحانه أيضاً ألم القتل في سبيل الله شرطاً لحقيقة الصدق [في الحبّ للقتل في سبيل الله]، حيث قالوا: إنّا نحبّ الله. فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته، وقال تعالى﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[2]. وقال تعالى﴿...**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**...﴾[3].

وعلامة محبة الإنسان للموت ومفارقة أسباب الدنيا: اعراضه عن الاستئناس بالخلق، وتنفّره عن الشّهوات، وهدم قواعد الأنس والالتئام مع أبناء الزمان، وعدم الدخول إلى أبواب السلاطين والحكّام، وعدم الممازجة مع الأحداث والشبّان، وطلب مواصلتهم ومواصلة أصحاب الترفّه والبطالة والتنعّم، وسائر من غرست في قلوبهم محبّة الدنيا والتلذّذ بمستظرفاها ومستلذّاها. لأن ممازجة هذه الأمور تحبّب للإنسان الإخلاد إلى الأرض،

---

[1] الجمعة - 6

[2] الصف - 4

[3] التوبة - 111

والركّون إلى طبائع أبناء الدنيا، وتبغّض على قلبه الموت ومفارقة الجسمانيات.

ومنها: أن يكون طالباً للخلوة، وآنساً لمناجاة الله وتلاوة كتابه، مواظباً على التهجّد، مغتنماً لدخول اللّيل، وصفاء الوقت له بانقطاع العوائق. وأقلّ درجات المحبّة التلذّذ بالخلوة بالحبيب والتنعّم بمناجاته. فمن كان النوم أو الاشتغال بصحبة الأخيار ألذّ عنده وأطيب من مناجاة حبيبه، كيف يسمع منه دعوى المحبّة له! .

وقد ورد في حكاية برخ وهو العبد الأسود الّذي أستسقى به موسى ×إن الله تعالى قال لموسى: إنّ برخاً نعم العبد هو لي، إلا أن فيه عيباً. قال: يا ربِ وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأشجار فيسكن إليه، ومن أحبَّني لم يسكن إلى شيء .

فعلامة المحبة مصير العقل والفهم كلّه مستغرقاً بلذة مناجاة الحبيب، والأنس معه؛ بحيث تكون الخلوة والمناجاة والتفكّر في عظمته وجلاله، قرّة عين يدفع به جميع الهموم. بل يستغرق الأنس والحبّ قلبه، حتّى لا يفهم أمور الدّنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً. مثل العاشق الولهان فإنّه يكلّم الناس بلسانه، وأنسه في الباطن بذكر حبيبه، كما وقع في الشعر:

از برون در ميان بازارم

وز درون خلوتيست با يارم[1]

ومنها: أن يكون مواظباً على طريقة حبيبه متقرباً إليه بالنوافل و[طالباً] كل ما يزيد درجته عنده، مؤثراً لِمَا أحبّه الله على ما يهواه ظاهراً وباطناً. فيطلب العلم والتقديس، ويجتنب عن اتباع الهوى، ويرفض من جنود إبليس أجمعين، وهم عبيد الهوى والشّهوات والطّالبين للدنيا وزهراتها، التي هي من أقطاع الشيطان ولهواتها المبعّدة عنالرحمان. فمن أحبّ الله لا يعصيه، كما قال ابن المبارك:

تعصِي الإله وأنتَ تظهرُ حبَّه

1 من الخارج أنا في وسط الناس ولكن من الداخل أنا أعيش خلوة مع الحبيب

هذا لعمرك في الفعال بديعٌ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتهُ

إنّ المحبّ لمن يحبُّ مطيع

فإن قيل: المعصيّة هل تُضادُّ أصل المحبّة؟ قلنا: إنّه لا تُضادُّ أصلها، ولكن تُضادُّ كمالها. فكم من مريض يحبُّ صحّة نفسه، ويأكل ما يضرّه. فلم يخرج الإنسان بمعصية مّا عن محبة الله. نعم تخرجه المعصية عن كمال المحبّة، وتخرجه المعصية المفرطة عن أصلها أيضاً، كالجهل المفرط المضاد للعلم، والاستغراق في الشهوات بحيث تصير طبعاً وريناً لمرآة القلب، لا يتراءى فيه صورة الحقّ أو الحقيقة أصلاً. فإنّ بعض أصحاب القلوب [قال:] إذا كان الإيمان في ظاهر القلب، أحبَّ الله حبّاً متوسطاً، فإذا دخل سويداء القلب أحبَّه الحبَّ البالغ وترك المعاصي.

ومنها: أن يكون محبّاً للعلم والعلماء. فإنّ من أحب شخصاً، أحبّ من يستعلم منه خبره وحاله، ويستكشف منه كيفيّة صفاته وصنائعه وأفعاله.

ومنها: أن يكون محبّاً لعلم هيئة الأجرام السماويّة، وعلم سلسلة الأسباب النازلة منه تعالى، ومعرفة عظائم الأمور الإلهيّة من العقول والنفوس الكليّة، وعلم النفس الآدمية التي من عرفها عرف الحق، وكيفيّة تشريح أعضاء بدن الإنسان وأحشائه وقواه وآلاته، وكيفيّة ارتقائه من أسفل السافلين إلى أعلى أعالي العليّين. فما لم ينكشف للإنسان هذه المعارف التي هي مدارج ومراقٍ من العبد إلى الرب؛ كيف يصل إلى معرفته! وإذا لم يحصّل المعرفة، كيف يحصّل ويتصوَّر المحبّة. فدعوى محبّة الله على الكمال، مع الجهل بهذه المعارف والمنازل، دليلٌ واضح عند ذوي البصائر على كذب قائله.

منها: أن يكون مشفقاً على خلق الله، رحيماً على عباده، مبغضاً على أعداء الله من الكفرة، والظّلمة ،والفسقة ،والأشرار، شديداً عليهم كما وصف الله تعالى أحبّائه بقوله

﴿...أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم...﴾[1] فإن من أحبّ شخصاً أحبّ داره ،وعبيده، وصنيعه، ومن أحبّ علماً أحبّ تصنيفه، وجميع الخلائق تصنيف الله تعالى. وجميع أجزاء العالم وصور الكائنات؛ من الحيوان والنّبات، خطوط الإلهيّة، مرقوم على صفحات المواد وألواح القوابل والهيوليّات بالقلم الإلهي، الذي لا تدرك الابصار ذاته، ولا حركته، ولا اتصاله بمحل الخطّ. فمن أحبّ الله؛ ينبغي أن يحبّ كل شيءٍ، لأن كل شيءٍ صنيعه ومعلوله. وعشق العلّة لا ينفك عن عشق لوازمها وآثارها، بل محبّة الآثار من حيث هي آثار، عين محبّة المؤثر.

فعلى هذا ينبغي أن تتفاوت محبّة الآثار والخلائق شدّة وضعفاً، بحسب قربهم إلى الله كمالاً ونقصاناً. فمن أحبَّ أهل الإيمان أحبّ إيمانهم بالله. فعلامة ذلك أن تكون درجات محبّة المؤمنين بقدر درجات إيمانهم. فمن كان إيمانه بالله تعالى ومعرفته به أقوى وأحكم، كان حبه[2] أشدّ وأتمّ. وإن لم يكن كذلك، فليس سبب المحبّة محض الإيمان، بل شيء آخر غيره.

وإلى ما ذكرنا من أن محبّة أثر الشيء من حيث كونه أثراً له، عين محبة ذلك الشيء، أشار قوله تعالى:﴿... قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[3]، وقوله ﷺ:"من أطاعني فقد أطاع الله؛ ومن أبغضني فقد أبغض الله"[4].

---

[1] سورة الفتح -29

[2] في الأصل احبابه والصحيح ما أثبتناه

[3] آ ل عمران - 31

[4] قد ورد في مضمونه روايات عديدة، منها في كتاب مناقب أمير المؤمنين(ع) محمد بن سليمان الكوفي. ج2، ص481.وفي بحار الأنوار للعلامة المجلسي، ج99، ص 133

هداية تنبيهيّة

أعلم أن من تمّت محبّته لله تعالى، وخلص حبّه، لم تكن حركاته وعبادته مشوبة بغرض نفساني. وهذا لا يتصور إلاّ باكتساب المعارف الربانيّة، والحقائق الإلهيّة. وهي مما لا يتيسّر لأحد اقتناصها [إلاّ] بانقطاع [العوائق]، يعني: عن استجلاء نظر الخلق، وانفصال تام عن عادات أهل الزمان. وهذا أيضاً يتوقف بوجه ما على **العرفان الذوقي**[1]. فإن من لم يدرك طعم حلاوة المعارف الإلهيّة لا يمكنه الإخلاص في النيّات، ولا ينقطع عن قلبه بالكلّية حبّ الشهوات. حتى أن العابد الورع مع غاية عبادته العمليّة، ورياضته البدنيّة، إذا لم يكن عنده المعارف اليقينية، و لم يكن سعيّه مشفوعاً بالعلوم الإلهيّة، التي لا يتعلّق بكيفية عمل؛ لا يتيسّر له إخلاص النيّة الإلهيّة عند استعماله للأوضاع الشرعيّة، وهو المقصود الأصلي، والغرض الطّبيعي من خلقة الإنسان.

قال **الشيخ الرئيس** في بعض رسائله:"وليت شعري! كيف يتشوقون إلى الدار الآخرة، والمبدع الأول، وما عرفوهما إلاّ بالتّوهم؟!".

فيجب أن لا يتولّى عن اكتساب المعارف اليقينيّة، من أراد أن يكون شراب محبّته لله صافياً من الكدورات، ويتيسّر له إخلاص النيّة الإلهيّة. وإلاّ فلا يخلو من شائبة طاعة النّفس وخدمة الهوى، والشرك الخفيّ. ومن امتزج بحبّه حبّ غير الله، تنعّم في الآخرة بقدر حبّه، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين، كما قال الله تعالى في حق الأبرار﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾[2]، ثم قال تعالى﴿ **يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ**

---

[1] العرفان الذوقي: هو العلم الحاصل عن طريق المشاهدة والعيان، لا عن طريق الإستدلال والبرهان

[2] سورة الإنفطار - 13

مسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُون﴾[1]. فإن طيب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي للمقربين. والشراب عبّر به عن نعيم الجنان.

فكلما كان محبّة العبد لله تعالى أخلص، وعبوديته وافتقاره له أشدّ، وفناء وجه وجوده في وجه وجود الحقّ أقوى؛ كان شراب نعيمه في الآخرة أصفى.

فمن كان حبّه لله تعالى وطاعته لرجاءه لنعيم الجنّة، والحور والقصور؛ مكّن من الجنّة، ليتبوّء منها حيث يشاء، فيلعب مع الولدان، ويتمتّع بالنسوان.

ومن كان مقصده رب العالمين، أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فالأبرار يرتعون في البستان، ويتنعّمون في الجنان مع الحور والولدان؛ والمقرّبون حيث لا يقصدون من الدار إلاّ ربّ الدّار، يلازمون للحضرة الإلهيّة، عاكفون بطرفهم حول جنابه، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى خالق الجنان والرّضوان.

فالجرمانيّون المتعلقون بأبدانهم، سواء كانوا مطيعين أو عاصين، عن شهود الجمال والجلال لمعزولون، وبقضاء شهوة البطن والفرج، اما في الدنيا أو في الآخرة، لجهلهم وبلاهتهم مشغولون.

والعلماء بالله المجرّدون عن أدناس البشريّة، في عشق جلال الأزل مستغرقون، وفي سلك ملائكة الله العقليين والمهيمنين منخرطون. ولذلك قالﷺ:"أكثر أهل الجنّة البله وعليّون لذوي الألباب"[2].

ومن علامات محبّة الله تعالى أن يكون المحبّ في حبّه متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم. ومن توهم [أن] الحبّ ينافي الخوف؛ فقد أخطأ، لم يفرّق بين الخوف من السخط،

---

[1] سورة المطففين-25-28

[2] عبارة الحديث:(أكثر أهل الجنّة البله وأهل عليين ذوو الألباب)،تاريخ اليعقوبي: ج2،ص102

والعقاب والخوف من شدّة نور العظمة والجلال، الذي يغلب سلطانه على العقول والألباب، ويدهش عنه بصائر القلوب والأبصار، كما يدهش عن نور الشمس عيون الخفافيش ضحوة النهار.

ثم لخصوص المحبّين أنواع مخاوف في مقام المحبّة ليست لغيرهم تلك الأنواع. وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض وأشدّ الجميع خوف الإبعاد، ثم خوف الحجاب[1]، ثم خوف الإعراض، ثم خوف العتاب. وإنما عظم خوف البعد في حقّ من ألف قلبه القرب وذاقه وتنعم به. ولهذا قيل:إنّ هذا المعنى في سورة هود هو الذي شيّب سيّد المرسلين وقدوة المقربين ﷺ إذ سمع قوله تعالى ﴿...**أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ**﴾[2]،﴿... **أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾[3]، فحديث البعد، وإن كان في حقّ المبعّدين المطرودين، لكن خوف سماعه شيّب المقربين في قربهم. ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكّن من الإنبساط في بساط القرب. ثم بعد تلك المخاوف خوف الوقوف، وسلب المزيد، كما وقع للظاهريّين. وليس لدرجات القرب نهاية.

فحق السالك المجتهد أن لا يقف في حدّ لا يزداد قرباً، بأن يقول: إني قد أحطت من **العلوم الكشفية** بما ينوّر بها قلبي، واكتسبت من الأخلاق الحسنة ما قد هذّب بها عقلي. وإن لنفسي عليّ حقاً، فهذه خطرة ما أفلح من أغترّ بها. ولذلك قال ﷺ:"من استوى يوماه [فهو] مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون"[4]

---

[1] وإلى هاتين المرتبتين يشير مولى الموحدين أمير المؤمنين ﷺ بقوله في دعاء كميل : " فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك " (القمي ، الشيخ عباس ، مفاتيح الجنان ، دار البلاغة ، ط3 ، ص118) .

[2] هود_68

[3] سورة هود- 95

[4] ورد في المختصر، وكذلك ورد مثله في عدّة مصادر كالأمالي للشيخ الصدوق وكتاب محاسبة النفس للكفعمي. وبحار الأنوار للعلامة المجلسي ج57

واعلم أن غاية هذا الوقوف الذي يخاف منه العباد نوع عقوبة: أمّا في حقّ عامة أهل الإيمان وأوساط العلماء، فسلب لذيذ المناجاة عن قلوبهم، بسبب شهوات الدنيا، كما ورد في الحديث القدسيّ حيث قال:"إن أدنى ما أصنع بالعالم، إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي، أن أسلبه لذيذ مناجاتي"[1] ؛ وإمّا في حقّ أهل الخصوص والمكاشفين، فسلب المزيد على حالهم، إذا فشا منهم الدعوى، وظهر فيهم الرّكون إلى مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفيّ الذي [لا] يأمن منه [إلاّ] ذوو الأقدام الرّاسخة، ثم خوف السّلو[2] عنه.

فإن المحبّ يلازمه الشوق والطلب، فيجب عليه أن لا يغترّ عن طلب المزيد، ولا يتسلّى إلاّ بلطف جديد. فإن من تسلّى كان ذلك سبب وقوفه، أو سبب رجوعه. والسّلوّ يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل التقليبات. فهذه التقليبات لها أسباب خفيّة سماوية، ليس في قوة البشر الإطلاع عليها، إلاّ من أيده الله تعالى. وإذ أراد الله المكر به، واستدراجه؛ أخفى عنه ما ورد عليه من السّلو، ليقف مع الرجاء، أو يغترّ بحسن الظنّ، أو بغلبة الغفلة والهوى والنسيان. وكلّ ذلك من جنود الشيطان التي قد تغلب جنود الملائكة، من العلم، والعقل، والذكر والبيان.

قال بعض الأفاضل: وكما أنّ من أوصاف الله، ما يظهر فيقتضي الهيجان، وهي أوصاف اللطف والرّحمة والحكمة، [كذلك] من أوصافه ما يلوح فيورث السّلو، كأوصاف القهر والعزة والاستغناء. وربما كان ذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان.

ومن علاماتهم كتمان المحبّة، واجتناب الدعوى، والتبرىء من اظهار الوجود والمحبّة تعظيماً للمحبوب، واجلالاً له، وهيبة منه وغيرة على سرّه. فإن المحبّة سرٌّ من أسرار الله في قلوب عباده، وهم مختفون في حجب الكتمان عن عيون أهل البعد، كما ورد في الحديث

---

[1] فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ج1، ص155

[2] سلا: نسى (لسان العرب مادة سلا)

عنه تعالى في حقهم:"أوليائي تحت قبابي، لا يعرفهم غيري"[1]. وقد قال بعض العارفين: "أكثر الناس بعداً أكثرهم به إشارة"[2]، كأنه يكثر التعريض به في كل شيءٍ، ويظهر التصنّع بذكره عند كلّ أحد، فهو ممقوت عند المحبّين والعلماء بالله عز وجل، كما هو مشاهد من متعسّفي هذا الأوان المتظاهرين بالتصوف والعرفان.

شك وإزاحة

فإن اختلج في ذهنك أن المحبّة منتهى المقالات، وإظهارها إظهار الخير، فلماذا تستنكر؟ فاعلم أن المحبّة محمودة، وظهورها أيضاً محمود. وإنما المذموم التظاهر بها، لما يدخل فيه من الدعوى والاستكبار، وحق المحبّ أن ينمّ على حبّه الخفي أسراره وأحواله، دون أقواله وأفعاله. بل ينبغي أن يكون قصد المحبّ اطلاع المحبوبات فقط. وأما إرادة اطلاع غيره، فشرك في المحبّة وخلل فيها. فاظهار القول والفعل كلّها مذموم، إلا إذا غلب سكر الحبّ، فانطلق اللسان، واضطربت الأعضاء، فلا يلام فيه صاحبه.

قال **بعض المكاشفين** من المحبين: عبدت الله تعالى ثلاثين سنة باعمال القلب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة، حتى ظننت أنّ لي عند الله شيئاً. فذكر أشياء من مكاشفات آيات السماوات، في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفّاً من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم؟ فقالوا نحن المحبّون لله تعالى نعبده ههنا ثلاثمائة ألف سنة، ما خطر على قلوبنا قطّ سواه، ولا ذكرنا غيره. قال: فاستحييت من أعمالي، فوهبتها لمن حقّ عليه الوعيد تخفيفاً عنهم في جهنم.

---

[1] هذا الحديث لم يرد في بحار الأنوار ولا في الكتب الأربعة، ولا في الصحاح الستة ولا غيرها من الجوامع الروائية. نعم ورد هذا الحديث في كتاب شرح منازل السائرين للكاشاني، وكشف المحجوب ص70، واحياء علوم الدين وغيره من الكتب الصوفية ولكن باختلاف يسير

[2] نقلا عن كتاب احياءعلوم الدين للغزالي، ج4، ص 434

فاذن من عرف نفسه بالذلة والعبودية، وعرف ربه بما هو أهله؛ أستحيى منه حق الحياء، وخرس لسانه عن الدعوى. نعم يشـــهد على حبـّـه حركـــاته، وسكنـــاته واقدامـــه، وإحجـــامه وتـــردداته. كما حكـــى صـــاحب كتـــاب **الاحياء**[1] عـــن **الجنيد**[2] أنه قال: مرض أستاذنا **السّري**[3]، رحمه الله! فلم يعرف لعلّته دواء، ولا عرفنـــا سبباً. فوصف لنا طبيب حاذق، فأخذنا قارورة مائه. فنظر إليها، وجعل ينظر مليّـــاً، ثم قال لي: أراها بول عاشق. قال الجنيد: فصعقت، وغشي عليّ ووقعت القـــارورة مـــن يدي. ثم رجعت إلى السّري فأخبرته، فتبسّم، ثم قال: قاتله الله، ما أبصره! قلـــت يـــا أستاذ: أوَ تبيّن المحبّة في البول؟ قال: نعم[4].

---

[1] المراد به الشيخ الغزالي: هو الامام أبو حامد محمد الغزالي الملقب بحجة الاسلام ولد بقرية طوس في اقليم خرســـان عـــام 450 هـــ، درس علم الكلام في نيسابور على إمام الحرمين (الجويني).

من أهم مؤلفاته :

أ- إحياء علوم الدين

ب- المنقذ من الضلال

ت- الإقتصاد في الإعتقاد

ث- مقاصد الفلاسفة

ج- تهافت الفلاسفة

2 الجنيد : هو الجنيد بن محمد الخزّار وكانت كنيته ابو القاسم ، فهو فارسي أصله من مدينة (نهاوند) ولكن ولد في بغداد وعاش فيها حتى توفي عام 297 هـــ . تتلمذ التصوف عن خاله سري السقطي . وصحب الصوفي الكبير الحارث بن أســـد المحاســـي . يقول الدكتور محمد جلال شرف : أصبح اسم الجنيد عنواناً لمدرسة بغداد . فلم تحظ شخصية صوفية باهتمام المـــورخين كمـــا حظيت شخصية الجنيد ، فهو الجامع بين الحقيقة والشريعة ، والواضع للمريدين أصول الطريقة ، ومعيار صدق هذا كله ؛ لذا قيل مدرسة بغداد فانما يقصد بها مدرسة الجنيد . (عن كتاب التصوف الإسلامي ، سليمان سليم علم الدين ، بتصرّ ف ، ص 323)

[3] سري السقطي: هو سري بن مغلّس السقطي. وكنيته ابو الحسن، وكان خال وأستاذ الصوفي الشهير أبي القاسم الجنيد. وكـــان سري السقطي تلميذ معروف الكرخي وشيخ متصوفة بغداد، ولقب بإمام البغداديين. كان سري السقطي أول من تكلم في عقيدة التوحيد وتطرق إلى حقائق الأحوال والمقامات الصوفية.

[4] الغزالي، أبا حامد، إحياء علوم الدين، ج4،ص434-435

وقد قال السّري أيضاً مرّةً: لو شئت أن أقول: ما أيبس جلدي على عظمي، ولاسلّ جسمي إلاّ حبّه! ثم غشيّ عليه. وتدل الغشيّة على أنه أفصح في غلبة الوجد. ومن علاماقم الشريفة معرفتهم للفرق بين الخواطر، ومعرفتهم خاطر الشيطان ووساوسه. فإن هذه المعرفة في غاية الغموض والدّقة، لا تحصل بالتمام إلاّ لأهل الولاية والحكمة، لقوله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ**﴾[1] . فإن المحبّ يعرف العدوّ ومكائده. وللشيطان حيَل وخفايا مكيدة لا يعرفها إلاّ سائر العلماء الذين علموا حقائق الأشياء، ومراتب الوجود، ودرجات القرب والبعد من الحق المعبود، وكيفيّة الصعود إلى عالم الملكوت، وطريق التخلّص عن مترل الناسوت.

وللشيطان لطائف عجيبة من الضلال، يدعو كل أحد بحسب ما يليق به إلى الضلال بجهالتهم.

وأمّا العلماء والزّهاد فيضلّ كلاًّ منهم من نوع آخر: أمّا العالم إذا أراد أن يعمل بعلمه ويجاهد مع نفسه بالرّياضة فيأتيه، فيقول: أحصل لك جميع أنواع العلوم، حتى اشتغلت بالعمل؟! فهلاً عملت بقوله ﷺ ! :"لفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد"[2] ويقرأ عليه:﴿...**وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**...﴾[3] وقوله تعالى﴿... **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[4] والنفس توافقه فيمنّى صاحبتها، ويقول: الأيام والأعوام كثيرة، فتعلّم الآن، وعليك أن تعمل بذلك في آخر عمرك. إلى أن تأتيه المنيّة فجأة.

---

[1] الأعراف 201 – 202.

[2] العجلوني، اسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ط 2، 1408هـ، دار الكتب العلمية، ج2، ص144، 261.

[3] المجادلة، 11.

[4] طه، 114

قال بعض الأكابر:[كنت] أجاهد في الله، فجاء إبليس لتشويش عليّ الخلوة والمجاهدة. فقال: إنك رجلٌ عالم متبعٌ آثار رسول الله ﷺ، فلو اشتغلت لطلب الآثار عن المشايخ الحفّاظ، وأحاديث الرسول ﷺ، كان خيراً لك من هذا، ولو بقيت في المجاهدة؛ يفوت عليك الأسناد العالية من المشايخ الكبار. فكدت أزيغ بوسوسته، فهتف لي هاتف: ومن يسمع الأخبار من غير واسطة، حرام عليه سمعها بواسطة وتذكرت قول الشيخ **محمد بن الحسين السلمي** في آخر عمره:"أستغفر الله تعالى من علومي ومن زخارف الدنيا"، فعلمت أن هذا الخاطر من وساوسه فنفيته، وانتبهت. فانتقل إلى وسوسة أخرى، فقال: ما أحسن ما تعرف حيَّلي ووساوسي! فلو جمعتها كتاباً سميّت **كتاب المدير على المريد**؛ كان ذخراً لك في الدنيا والآخرة، يتمسّك به الطالبون لله تعالى، وينجون به من مكائد الشيطان! فهممت بذلك وبجمعها. فنبّهني الشيخ: أن هذا من مكائده وحيّله، ليقطع عليك الوقت، والذكر، والأنس وحميّة القلب. فانتبهت وانتهيت.

فالحاصل أن الخاطر يأتي المجاهد كسيل العرم، فالواجب عليه في الأول وبداية أمره التقى، وفي آخر أمره التمييز بين الخواطر، وهي خمسة أجناس:

أوّلها: خاطر الحقّ سبحانه، وهو الخاطر الأوّل، وهو الذي لا يكون له سبب سابق يكون مضافاً إليها أو حكماً، بل يقع في القلب إبتداءً من غير سابق، وهو خاطر الحقّ، وهو على نوعين:

أ- نوع تعارضه الخواطر في النقطة، لكن لا يزعجه ولا يزعزعه ولا يحرّكه ولا ينفيه، بل تبقى في القلب مطمئنّة أبداً.

ب- ونوع يقال له الإلهام وهو حقّ، وخاطر الحقّ. قال الله تعالى:﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[1] وحقيقة الإلهام إفاضة الله علماً في القلب.

[1] الشمس- 807 .

والثاني: خاطر القلب، إذا سلم القلب من استيلاء الشياطين وهوى النفس، وهذّبَ بمشاهدة الملكوت وحقائق المعارف، وخلص من الخصال الذميمة الدنيّة، والذنوب التي ترين على قلوب الكفرة والجهلة، كما قال تعالى ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1] وقال في صفة قلوب المؤمنين﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾[2] وقال تعالى﴿ **يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون ، إِلاَ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[3] . وإلى هذا الخاطر أشار رسول الله ﷺ فيما روي عنه: "أستفت قلبك وإن أفتاك المفتون"[4] وقوله ﷺ "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك!"[5]. فخاطر القلب علامته أن لا يظهر على القلب، والنفس والجوارح ضدّه، ولا يعترض عليه كائناً من كان، يستسلم لذلك، ويسترسل وينطلق من قيود الشكّ والرّيب.

والثالث: خاطر الملك، ويترل معه السكينة في قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. وهذا الخاطر قريب من خاطر القلب، إلاّ أن بينهما فرقاً. ونطق الخبر بذلك في ما ورد في الخبر:"إنه كان رسول الله ﷺجواداً فكان أجود ما يكون في شهر رمضان. فإذا نزل جبرائيل ليعارضه القرآن [كان] أجود بالخير من الريح المرسلة".

والرّابع: خاطر الشيطان، فإنه يدعو إلى الضلالة. فإذا دعى إلى [ذنب، دعى إلى] ذنب آخر من الذنوب. وله فنون دقيقة في الإغواء كما أشرنا إليه.

[1] المطفّفين -14

[2] مومنون -60

[3] الشعراء- 88-89 .

[4] الشوكاني،محمد بن علي بن محمد، نيل الاوطار من احاديث سيد الاخيار، دار الجيل، بيروت، ج1، ص636

[5] البحراني، الشيخ يوسف، الحدائق الناضرة في احكام العترة الطاهرة، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة االعلمية، قم المقدسة،ج11، ص29

والخامس: خاطر النفس، وهو بمنزلة [المجنون] الّذي لا عقل له، بل هو بمنزلة الصبيّ الّذي لا عقل له وتمييز، فيشتهي [شيئاً] فيستدعيه، ولا يرضى إلاّ بتحصيل ذلك كالصبي إذا أراد اللعب بالكعاب أو بالجوز مع الصبيان. فإذا دفع إليه العارف مراده لا يرضى بدلاً عن اللعب بالكعاب أو الجوز.

وهذا الخاطر أشد الخواطر على المريدين، لأن النفس كالملك في داخل الإنسان. وعسكره القوى الحيوانيّة والطبيعية المجتمعة في معسكر الرّوح البخاري الحيواني، محل الطبيعة، والهوى، والشهوة والغضب. وهي في نفسها عمياء، لاتبصر المهالك ولا تميّز الحقّ من الباطل، إلاّ أن ينوّر الله بصيرها بلطف حكمته، وجميل صنعته وواسع رحمته، فتبصر الأعداء. فتجد البنيان الإنساني مملوّاً عن خنازير الحرص، ومكالب الكلب، ونمر الغضب، وشهوة الحمار، وهمة الثيران، وحيلة الشيطان، ونيران الحسد، ومرارة الشحّ. فعند ذلك تصير لوّامة تلوم نفسها عن الصبر بالسكنى فالأمن من هؤلاء الأعداء، فيحتال في إخراجها. وقلعها من داخل البنيان. فإذا فرغت من إخراجها وكنّست البيت عن رذائلها وعوراتها، وزينتها بشُعب الإيمان، البضعة والستّين في رواية[1]، فتصير عند ذلك مطمئنّة. فذلك قوله تعالى﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[2].

وهذه النفس ليست شيئاً آخر، بل هي الروح العقلي والقلب المعنوي، لكن لها أحوال متفاوتة يُتصور بها: ففي الحالة الأولى: **نفسٌ أمّارة بالسوء**. وفي الحالة الثانية: **لوّامة** كما بيّناه. وفي الحالة الثالثة: **مطمئنّة**؛ وهي حالة الاستقامة والتمكين حين طلوع شمس اليقين، [و] تسمى**قلباً**، وبعده مرتبة **الروح**، وهي مرتبة ملاحظة الحقائق العقليّة، ومشاهدة المعارف الإلهيّة، وتسمى **ملهمة**.

---

1 الهندي، المتقي،كنز العمال، ج1، ص35 _43

2 سورة الفجر- (27،28،29،30)

فهذه جملة من مجامع علامات المحبّين لله تعالى، نقلتها تلخيصاً من كتب العرفاء ليكون دستوراً لمن أراد أن يعرف حال أحبّاء الله العارفين، والابدال المقرّبين، والمشبّهين بهم، المسخّرين للشهوات، المقيّدين بسلاسل التعلّقات، المأسورين في أيدي جنود الشيطان، والمبعّدين عن جوار أنوار الله وأهل ملكوته المقدسين، إلى طاعة ظلمات القوى الهاوية إلى أسفل السافلين. كم بين حائر في الظلمات يغشاه سحب القوى الحسّاسة والمحركة ومرغوباتها المزخرفة عن أضواء شمس **اللاهوت**[1]، وبين حائر يدهشه أنوار العز والسلاطة في الضوء الأقرب عند بسط **رداء الكبرياء**[2] **والجبروت**[3]. لا يعرف الحبّ إلاّ من يكابده، ولا الصّبابة إلاّ من يعانيها.

واعلم يا أخا الحقيقة أن هذا العالم عالم المغالطة والاشتباه، كما أنه عالم الانعكاس والانتكاس. ففيه يقع الإشتباه بين الصدّيق والزنديق، كما بين العالم النحرير والجاهل الشرير، وكذا بين أحبّاء الله المستغرقين في أنوار العظمة والجبروت، وأعداء الله الهائمين في طلب شهوات **الناسوت**[4]. وإنما يتبين الفرق، وينكشف التميّز بين هذه الاضداد لمن كان

---

[1] اللاهوت: مقام الأسماء والصفات المعبّر عنه عند العرفاء "بمرتبة الواحديّة".

[2] إشارة إلى الحديث المروي عن الإمام الصادق ﷺ: "الكبر رداء الله فمن نازعه رداءه أكبه الله في النار على وجهه" (بحار الأنوار،م.س ، ج1،ص152)

[3] الجبروت: وهو عالم النفوس، سميّ ذلك العالم (جبروتاً) لأن تصرّف النفوس فيما تحتها من المواد إنما هو بالجبر والقهر والغلبة والاستيلاء (القمي، القاضي سعيد، شرح الأربعين، صححه وعلّق عليه نجفقلي حبيبي، ط مؤسسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد، إيران، ص150).

[4] الناسوت: هو عالم الشهادة وعلوياته وسفلياته، وهذه العوالم هي للوجود في سلسلة الطوليّة، قال الشيخ حسن زادة آملي في شرحه للمنظومة بعد قول الحكيم السبزواري: إن للوجود بالإجمال سلسلتين طوليّة وعرضية. أما الطوليّة فبعد مبدئها. وهو مبدأ المبادىء وغاية الغايات، اللاهوت والجبروت والملكوت والناسوت. قال الآملي: واللاهوت: هو الوجود الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا الملزومة للأعيان الثابتات، الكامنات تحت الأسماء والصفات.

والجبروت: عالم العقول الكليّة.

والملكوت قسمان: أعلى وأسفل فالملكوت الأعلى هو النفوس الكليّة. والملكوت الأسفل هو المثل المعلقة.

والناسوت: هو عالم الشهادة وعلوياته وسفلياته. -

له قدم راسخ في استحصال العلوم الحقيقيّة، والمعارف اليقينية، واستكمال النفس بها بعد تصفيتها بالرياضيات الشرعية، وتجليتها بالمجاهدات العقلية، حتى يستقبلها انكشاف الحقائق من كل صوب وجانب، وينكشف عليها جليّة الحال في كلّ شاهد وغائب.

وإيّاك أن تقتصر تصدّيك في الأشياء بالخير والشرّ، والنفع والضرّ، والحسن والقبح، والسّعادة والشّقاوة، على ما يدركه المشاعر الظاهرة، فتكون حماراً ذا رجلين، وبهيمة عديمة الذنب ،مادة البشرة وعريضة الأظفار. لأن البهائم تشاركك في الحواس الخمس. وإنما أنت مفارق لها بسرّ إلهيّ وأمانة مودعة فيك أيام حياتك، عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها[1]. فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس لا يصادف في هذا العالم، بل في عالم هو معدن ذلك السّر الذي به فارقت الحمار وسائر البهائم. فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهله، وقنع بدرجة البهائم، ولم يجاوز المحسوسات؛ فهو الذي أهلك نفسه بتعطّلها، ونسيها بالأعراض عنها **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ...﴾**[2].وكل من لم يعرف إلاّ المدرك بالحواس؛ فقد نسي الله، إذ ليس الواجب تعالى مدركاً بالحواس. وكل من نسي الله فقد أنساه لا محالة نفسه. ومن نزل إلى رتبة البهائم؛ ترك الترقّي إلى أفق الملأ الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعها الله تعالى فيه، وأنعم بها عليه، كافراً لنعمته، ومتعرضاً لسخطه ونقمته. إلاّ أنّه أسوءُ حالاً من البهيمة؛ فإنّ البهيمة تتخلّص بالموت، وأما هذه فعنده أمانة يسترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها.

وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب وغربت منه، وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها أما مظلمة منكشفة، وأما زاهرة مشرقة.

- (الآملي: الأستاذ حسن زادة. شرح المنظومة. نشر ناب، طهران، ج1، ص290).

[1] إشارة إلى قوله تعالى:(إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض..)الآية، الأحزاب 72.

[2] الحشر - 19

والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الرّبوبية. والمظلمة راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكلّ إليه، إلاّ أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليّين إلى جهة أسفل السافلين، كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾[1] فتبيّن أنهم عند ربهم، إلاّ أنهم منكوسون منحوسون، قد انقلبت إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق الأرواح إلى جهة أسفل الأشباح. وذلك حكم الله تعالى، فيمن حرمه توفيقه و لم يهده طريقه. ونعوذ بالله من الضلال والإضلال، والترول في مزائل الجهل.

---

[1] السجدة - 12

المقالة الثالثة

في ذكر صفات الأبرار والعاملين الذين درجاتهم دون درجات المقربين .

فصل

في الإشارة إلى كيفية الوصول إلى منازلهم

واعلم أن طريق التصفية مع تكثّر شجونه وتشعّب أقسامه وفنونه؛ منحصر في إقامة وظائف العبادة، وإدامة مراسم العدالة، وإزالة وساوس العبادة.

وبناء الأول على تهذيب الأخلاق وتقويم الملكات.

وبناء الثاني على إقامة مراسم العبودية، وأداء الشكر على النعم الربوبية والعطايا الإلهيّة.

وبناء الثالث على ترك المألوفات، ورفض المستلذات.

وشيء من هذه الطرق الثلاث لا يتم ولا يكمل سلوكها، إلاّ بسلوك الطريقين الآخرين، كما لا يستقيم الجميع إلاّ بالتشوق إلى المعبود الحقيقى والخير المحض، جلت عظمته وكبرياؤه! ولا يمكن التشوق إليه إلاّ بعد المعرفة.

على أن غاية السلوك والحركة ليست إلاّ المعرفة. فالمعرفة بعينها المبدأ والنهاية والفاعل والغاية. فهو الأول علماً وإيماناً، والآخر شهوداً وعياناً. فكلما اشتدت المعرفة جلاءً وظهوراً اشتدّ الشوق حدّة وقوة ،وازدادت بازائها الحركة والسلوك سعياً واجتهاداً،

وكلما قوي الشوق، وازدادت الحركة؛ كملت المعرفة كشفاً ووضوحاً، وهكـذا إلى أن يتصل أول الدائرة بآخرها، ولم يبق في البين عارف ومعرفة غير المعروف، ومشتاق وشوق سوى المشتاق إليه، وسالك وسلوك سوى المسلوك إليه المقصود. فصار الأول عين الآخر، والباطن عين الظاهر، وانحصر الوجود في الموجود والمعبود، وطابق الشهود لما عليه في الواقع حكم الوجود، لازالة وساوس الوهم المضل والخيال الضّال، الموجب لإثبات الكثرة والإثنينيّة في الواجب الحق المتعال.

فصل

في الإشارة إلى صفة العشق والشوق

واعلم أن هذه الصفة الجليلة بالقياس إليه سبحانه وتعالى، [و] إن أنكرها الخائضون في عالم الأجسام، الراتعون في مراتع الدواب والأنعام، كبعض المنتسبين إلى علم الكلام؛ إلاّ أن الأنبياء والأولياء، صلوات الله عليهم من الملك المتعال! والعلماء المرتفعين عن مزائل الجهّال، جعلوها كعبة الآمال، وقبلة المقاصد وقبلة جميع الأعمال. ولهذا ترى: شريعة سيد المرسلين خاتم الأصفياء، عليه وآله سلام الله الحق المبين! مشتملة على ذكر المحبة والعشق في مواضع كثيرة من آيات وأحاديث عديدة. وكلمات العلماء الفضلاء من ذوي الإعتبار وأولي الأبصار، محتوية على وصف العشاق الإلهيّين، والوالهين المشتاقين إلى جمال ربّ العالمين، والهائمين في عظمة أول الأولين، والحكماء المتألهين قدس الله أسرارهم وأنوارهم! حكموا بسريان محبّة الله في جميع الموجودات، حتى الجماد والنبات، بالحجّة والبرهان، وحكموا القول بأن مبدأ جميع الحركات والسكنات في العاليات والسافلات، في الفلكيّات والأرضيّات، هو عشق الواحد الأحد، والشوق إلى المعبود الصمد[1].

---

[1] را: النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات: ج3، ص141-149.

وأمّا الهائمون في مهوى الجاهلات، والتائهون في تيه الغفلات، المشتغلون باكتساب حطام عالم الأجسام، وجمع ثمار الأشباح وأكمام الإجرام؛ فهم يقصدون في عبادتهم وحركاتهم، لغاية بلاهتهم، إلى مستلذّات الآخرة ومشتهياتها، لكونها أدوم وألذّ وأشهى ممّا يجدون في الدنيا. فليس من شأنهم الوصول إلى عشق المولى، والإنخراط في سلك عباده، الّذين لا يكدّرون برجاء جنّة ولا خوف جحيم، منبع عشق معبودهم الفائض من رشحات نعيمه عين التسنيم[1]. فهم في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ.

طفلان ره نشستهباميّد جوى شير

عارف بجستجوى مى لاله كون رود[2]

أكثر أهل الجنّة البلد[3].

وتوضيح هذا المرام على الوجه الذي يناسب طباع الأفهام، هو أن غاية تكوّن الكائنات، وثمرة وجود الممكنات ليس إلاّ معرفة الحقّ الأول، كما عليه تطابق العقل والنقل. فما من موجود إلاّ وهو واقع في درجة من درجات القوة والضعف بالقياس إلى نيل هذه الغاية، التي ارتكزت في طباع الكل، وإن لم يكن مشعوراً بها في بعض الخلائق، بل أنكرها بعض الناس خاصّة، ﴿**...وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...**﴾[4]. فالواجب الحقّ تعالى بحكمته البالغة مسلّط على جميع الموجودات بحسب طباعها، عشقاً وشوقاً إلى الخير الحقيقي، واللذّة القصوى والغبطة العليا، على قدر ما يمكن أن يفاض على كلّ واحد منها من الوجود، ويسع أناء قابليّته لعين الكمال والجود. وإنما

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ سورة المطففين-27- 28

[2] يجلس الاطفال وسط الطريق على امل الحصول على اللبن والعارف يسير باحثاً عن خمرة حمراء كالورد

[3] تقدم تخريج الحديث ص 120

[4] الإسراء – 44.

ارتكز ذلك في جميع الطباع، وغرّز في جبلّة الأنواع، ليكون حفظاً وإدامة للوجود، وطلباً وحركة منه إلى المقصود، لينتظم دار الوجود ويدوم السعي والطلب للحقّ المعبود. وكل شيء سواء كان كاملاً أو ناقصاً، فله عشق جبلّي، أو شوق غريزي، وحركة ذاتية إلى طلب الحق طبعاً أو إرادةً؛ به قامت السماوات والأرضون، واستقرت السماء في حركتها والأرض في سكونها، سيّان في الغاية. إن الغاية فيهما والمقصد في السّير والسكون هما، ليس إلاّ جاعل الأرض والسماء، والتقرّب إلى مبدع الأشياء، كما أشار إليه بقوله تعالى﴿... **ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**...﴾[1].

فعلم ممّا ذكر أنّ لجميع الأشياء عبادة ذاتيّة، وعبودية خاصّة بوجه من الوجوه، وتبديل صفة نقص بصفة الكمال، وصالح الأعمال وصحيح من الحركات والافعال. وأمّا المسمّى الإنسان، فله شأنٌ آخر وخصوصيّة يُخصّ بها من سائر الأشياء والأنواع من عالم الإمكان. وذلك لأنه قد صحبه دواعي الوهم والخيال، يعارضان عقله وذاته، وصادفته صوارف قوى شهويّة وغضبيّة تتزاحمان في سلوكه الذي جُبل عليه في الأزل، وفطر عليه في العهد الأول الذي له مع الحقّ. فاحتاج لما ذكرنا إلى هداية منفصلة، وإمداد لطف خارج عما في ذاته. ولهذا فضل الله عليه فضلاً عظيماً، وأرسل إليه رسولاً منذراً، وأنزل إليه كتاباً مبيناً، لئلاّ يقع سدى كباقي الحيوانات، أسيراً في أيدي الشهوات، عاجزاً مضطراً عند تزاحم القوى والآلات، ويتذكر لأجل الهداية والتعليم ما ربما نسيّه من **العهد القديم**[2]، وسهى عند تعارض المزاحمات [من] عشق معبوده الحكيم العليم.

---

[1] سورة فصلت- 11.

[2] إشارة إلى آية أخذ الميثاق وهي قوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين} سورة الأعراف-172.

فصل

في توضيح القول بأن مبدأ الأعمال الصالحة في الإنسان هو عشق الباري تعالى والشوق إلى لقائه

اعلم وفقك الله تعالى لرضائه إنّ محبّة الباري سبحانه والشوق إلى لقائه وإن عمّت لجميع الموجودات، حتى الجماد والنباتات، إلاّ أن هذا شأن في بعضها بتوسط بعض آخر، على ترتيب و نسق بين العالي والسافل، والشريف والخسيس. فلكلّ مرتبة، بعضها غاية لبعض، وبعضها مقصود عن بعض، إلى أن ينتهي إلى الغاية القصوى والمقصود الأعلى. فالجماد كان طالباً للحقّ تعالى لكن بتوسط طلب النبات، وطلب النّبات للحيوان، وطلب الحيوان للإنسان، وطلب الإنسان الناقص بالإضافة إلى الإنسان الكامل، وهكذا الأكمل فالأكمل، والأشرف فالأشرف، إلى أن ينتهي إلى طلب الغاية القصوى. وهذا التدرَج في الأشكال، والتجدد في طلب المبدأ الفعّال، معلوم مشاهد في الكائنات، لأجل مشاهدة كون بعض منها غذاءً للبعض، ومعداً لكونه آلة في طلب الكمال، وخادماً يخدمه في مراتب الفعل والإنفعال.

فكلّ من الكائنات مسخّر لعشق مرغوب إليه، مخصوص مقيد بشوق مقصود خاص، إلاّ آخر مراتب الإنسان. فإنّ مطلوبه ليس أمراً سفلياً، ومرغوبه ليس محبوباً دنيّاً. فهو ثمرة الإيجاد من بين الموجودات المتسلسلة إلى جهة المعاد. فلا محالة يجب أن يكون له طلب الحقّ والتقرّب إليه، دون سواها. فيكون حركاته وعباداته منحصرة نحو القصد إليه، والتقرّب منه دون غيره من الأشياء. العمل الصالح عبارة عما يقصد الحقّ الأول سبحانه فيه وبه، دون شيء آخر لطلب مترلة من منازل الدنيا والآخرة. وهو لا يتصوّر إلاّ ممّن أحبّ الله تعالى بالحقيقة. فيكون الحقّ الأول جزاءَ عمله وغايةَ سعيه. وهذا الشخص لابد وأن يميت شهوته عن غير الحقّ أيّ غير كان، ويبطل رغبته عما سوى الله أيّ سواء كان، ولو

كان ذاته ونفسه. فكأن هذا السالك قتل نفسه في سبيل الله تعالى، وجاهد في الله حقّ جهاده، فصار الحقّ غرضاً له عن ذاته، وديّة له عن جنايه وقعت منه على نفسه، كما أشير إلى هذا المعنى في الحديث القدسي[1].

فقد علم أن كلّ حركة وكلّ عبادة ليس الباعث إيّاه عشق الباري والشوق إليه،فهي ناقصة ترى لاتؤدّي إلى غاية حقيقية، بل إلى غاية وهميّة أو خياليّة أو ظنيّة. وشيءٌ منها لا يغني عن الحقّ شيئاً، كما دلّ عليه قوله سبحانه **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾**[2].

فصل

في أنه لا يعبد الله تعالى أحد من خلائق هذا العالم إلاّ العارف بالله بالحقيقة

وغيره من الناس إنما يكونون عبّاداً للكثرات، وطلبة الهوى والمرغبات. فعبادتهم وزهدهم ليست إلاّ مؤاجرة ومعاملة مّا،حيث يعوضون محقّراً بمحقّرٍ آخر، ويبدّلون مستصغراً بمستصغرٍ آخر، بل فانيّاً بفانٍ. فإن كل مرغوب ومطلوب من عالم الممكنات، فهو من حيث ذاته الإمكانيّة باطل دون وجهه الكريم. والعارف لا يقصد بشيء من الأشياء، ولا يطلب بحركة من الحركات، إلاّ وجه الله واقتناء مرضاته.

فهو في جميع أفعاله، وتروكه، وعباداته، وحركاته، وسكناته، وخلواته، وجلوته، وانفراده، واجتماعه، وأخذه، ورفضه، ومؤانسته، ووحشته، واشتغاله وانقطاعه، متقرّب

---

[1] إشارة إلى الحديث القدسي "من أحبني قتلته، ومن قتلته فعلّي ديته، ومن عليّ ديته، فأنا ديته".(النوري، الميرزا، مستدرك الوسائل، ج18، ص419).

[2] سورة يونس – 36.

إلى الله، قاصد نحوه، راغب فيه، متشوّق إليه عاشق إيّاه، وما سواه باطل لدى العارف، لم يكن وجهة قصده ولا نصب عينيه إلاّ من الجهة التي تقرّبه إلى الله الحقّ.

وإنما يحبّ الأنبياء(صلوات الله وسلامه عليهم) لكونهم رسل الله، ومن حيث أنهم سفراء من عند محبوبه الحقيقي. ومن أحبّ رسول ملك من حيث هو رسوله، فإنما يكون محبوبه بالحقيقة في تلك المحبّة هو ذلك الملك بالذات، ويكون محبّة الرسول بالتبع. وإليه أشار بقوله ﷺ:"ومن أطاعني فقد أطاع الله"[1]. كذلك الحال في محبّة الأولياء والعلماء وأهل الإيمان، فإنّ جميعهم محبوبون للعارف، لا من حيث ذواتهم المنفصلة عن ذات الحقّ وهويّته، بل من [حيث] ارتباطهم وانتسابهم إلى جهة معرفة الحقّ الواحد. فمحبّة كلّ أحد من العارف يرجع إلى محبّة الحقّ .

بجهان خرّم ازآنم كه جهان خرّم از اوست
عاشقم برهمه عالم كه همه عالم از اوست[2]

وأمّا غير العارف فيستحيل ذلك في حقّه. فإنه إذا لم يعرف لا يمكنه التشوّق والقصد وطلب التقرّب إليه. فلمّا لم يُتصوّر في حقه المحبة لله سبحانه،فكيف يتصور منه محبّته لأحد في الله. بل إنما يحبّ من يدّعي محبته كأهل دينه ورؤساء نحلته، لأجل غرض آخر غير التقرب إلى الله، من ألف أو عادة أو استيناس بما سمعه أو بلغ إليه منذ الطفولة من المعلمين والآباء، أو عصبيّة فيما نشأت فيه أقرانه أو عشيرته. وأما المحبّة الخالصة لله تعالى من غير شرك فلا يتصوّر لغير العارف. وإليهم الإشارة بقوله تعالى:﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[3]

---

[1] المحلى، ابن حزم، ج1،ص66.
2 نضرة هذا العالم غيض من فيض نضرته واعشق العالم باسره لانتسابه اليه
[3] سورة المائدة -54

فتاد كان ســـــر كـــــوى دوست بسيار است

وليكن از سر كويش جو من فتاده نخواست[1]

فغير العارف سواء كانوا أشقياء طالبين لشهوات الدنيا، أو راغبين في لذّات الآخرة، بالقياس إلى العارف، كالبهائم والحشرات بالقياس إلى البشر. لأنّ همّتهم وهمّهم مقصوران على لذّات لقلقهم وذبذبهم وقبقبهم. وقد قال رسول الـــثقلين، صـــلّى الله عليـــه وآلـــه المصطفين:"من وقى شرّ لقلقه وذبذبه وقبقبه، فقد وقى الشرّ كلّه"[2]. فقد علم مـــن هـــذا الكلام المشحون بالأحكام والإنتظام بوجه لطيف وإيماء دقيق: إن غير العارف لم يتجـــرّد ذاته، و لم يتخلّص بالكليّة من شرور الشهوات وآفات الإجرام.

فصل

في منفعة العبادات في جلب المنافع الروحانية وإصلاح الأمراض النفسانيّة

اعلم أن الصانع العليم القدير، جلّت عظمته! جعل الإنسان، كما أشرنا إليه، مـــن جسم وروح، وظلمة وضياء، وكدورة وصفاء، وظاهر مشهور وباطن مســـتور. ومـــن ساعدته الفطنة والذكاء، وأعانته قوة العقل والدهاء؛ يمكن له بالفراسة الاستدلال من ظاهر الإنسان على باطنه، والإطلاع في منظره على مخبره في كثير من الحالات والصّفات. فكما أنّ لبدن الإنسان حالة مزاجيّة، متى تكون مستقيمة حدّ الاعتدال، غير مائلة مـــن حالـــة الاستقامة إلى الاعوجاج، والانحراف من الوسط الموجب للاعتدال إلى الأطراف، المستدعي

[1] طلاب الورد الى حي الحبيب كثيرون وليس بينهم من هو في حبه مثلي

[2] تاج العروس، الزبيدي، ج7. وروي مثله في كتاب شرح مئة كلمة،لابن ميثم البحراني، ص 147، ولكن بدلاً من قوله:"فقد وقى الشر كله "قال ﷺ: "فقد وجبت له الجنة"

للفساد والزوال؛ تكون الصحّة الطبيعية باقية بحالها والسلامة النّوعية محفوظة على اعتدالها، وقوى الجوارح والأعضاء قائمة بإذن الله تعالى على شؤونها وأفعالها. ومتى انحرفت الحالة المزاجيّة عن الاعتدال، وتعوّجت نسبة أوتار هذا الموسيقار المقتضى للفضيلة الواحدة التأليفيّة عن جادّة الاستقامة؛ أدّت إلى الفساد والاستئصال، لصيرورتها معرضاً للأسقام والآلام ومنشأ للآفات والمحن .

فكذلك حال الرّوح في صفاتها الباطنيّة، وأخلاقها النفسانيّة، فإنها متى مالت عن التوسط في الأخلاق والصفات الشهويّة، والغضبيّة، والفكريّة، إلى أطرافها الافراطيّة والتفريطيّة؛ صارت معرضة للأمراض الباطنيّة، والسيئات والمعاصي، التي إذا استولت على الباطن أفسدت قوام الرّوح، وأوجبت عليها الهلاك الأخروي والعذاب السّرمدي، نعوذ بالله منه!

وكما أنّ الأغذية والأدوية المأكولة والمشروبة التي جرت عادة الإنسان بتناولها إدامة للحياة البدنيّة، وإبقاء للصحة الاعتداليّة المزاجيّة، لا تخلو من خمسة أقسام:

لأنها اما مصلحة نافعة، أو مفسدة ضارة. وكلّ واحدة منهما على قسمين، لأن المفيد أما بحيثيّة يكون تناولها ضروريّاً، وتركها مضرّاً مفسداً مؤديّاً إلى علل وأدواء لا علاج لها ولا دواء يصلحها؛ أو لا يكون كذلك، بل يكون تناولها موافقاً للطبع، وملائماً للمزاج، ومعطياً للقوة، وتركها وإهمالها لا يوجب فساداً ولا ضرراً. والمضرّ إما بحيثيّة يكون تركها ضرورة، واستعمالها موجب للهلاك، ومؤديّاً إلى أمراض لا دواء لها؛ وإما لا يكون كذلك، بل يكون تركها غير واجب، وإن كان تناولها لم تخلو عن مضرّة مّا في أخذها. فهذه أربعة أقسام. والقسم الخامس ما تساوت نسبة تناولها وتركها إلى المزاج والطبيعة، حيث لا منفعة في فعلها وتركها، ولا مضرّة في أخذها ورفضها.

فكذلك الأفعال والأعمال الإنسانيّة في تأثيرها للفطرة الأصلية،[التي] عبّر عنها بلسان ترجمان الشريعة بالفطرة الأصليّة للرّوح الإنسانيّة. فإن للرّوح حالة أصليّة، وصرّح بها في قول القائل الصادق المصدّق، عليه وآله الصلاة والسلام من الواهب المفيض الحقّ! "كلّ مولود يولد على الفطرة"[1]. فما دامت تلك اللطيفة القدسيّة باقية على صفائها وحالها الأصليّ؛ فتكون محلاً لانعكاس اشراقات أنوار الهداية الروحانيّة، ومهبّاً لهبوب نسائم السّعادات القدسيّة، وشمائم آثار العناية الربانيّة، وتكون على الإتصال بملاينها وتوجهها بحسب أمداد الإلهامات الربانيّة، والخواطر الأخرويّة إلى الجنّة العالية والعوالم الملكوتية، وتكون مقصورة الهمة على تكميل ذاها واقتناء ملكاها، لتسعد بذلك للسعادة القصوى ومجاورة سكان الصوامع القدسيّة ومقاعد الصدق من الملكوت الأعلى. و[ان] انحرفت والعياذ بالله عن الفطرة الأصليّة والسلامة الخلقيّة، التي فطر الناس عليها، وفسدت بحسب فساد عقيدته، أو غلبة أغراض نفسانية، أو سبق أعمال قبيحة، أو اغترار بعلوم ناقصة، أو عبادات غير صالحة، إلى الشهوات المزخرفة و اللّذات الباطلة، وأقبلت إلى الدنيا الدنيّة، وأخذت إلى الأرض، حبّاً للجاه الخسيس وتشوّقاً إلى طلب الرئاسة، وتمالكاً على التفوّق والتقدم على الأقران والأشباه في هذا السجن، والمنافسة في التصدّر عليهم في هذا المضيق جهلاً بأن هذا الدّار سجن الأبرار، ووظيفة المسجون طلب الخلاص والتفصّي عن الحبس، لا التصدير على سائر المحبوسين والمسجونين، والمنافسة فيه معهم؛ فعند ذلك تصير مستغرقة في بحار الجهالة، تلطمها أمواج الهواجس النفسانيّة، وتعاقبها أفواج الوساوس الشيطانيّة، منقلبة في أودية الحيرة والضّلالة، مضطربة في بيداء الغباوة والغواية. نعوذ بالله من الخذلان من غير تدارك وغفران! .

[1] مرّ تخريج الحديث في الصفحة 52

فصل

في تفصيل ما ذكر، وكشف ما ستر، في بيان وجوه التناسب في الصحّة والسقم بين الظاهر والباطن، وفنون المشاكلة بين الأغذية والأشربة، الجسمانيّة والروحانيّة

ولا يخفى عليك ممّا أُشير به إليك: أنه كما أن الأغذية والأشربة يتصوّر لها بالنسبة إلى مزاج البدن وسلامة طبيعتها، أحوال خمسة؛ فكذلك أفعال النفس الإنسانية، وأعمالها، وأفكارها التي تقيم لها أو تتصوّر بها سرّاً وعلانيةً، بالقياس إلى فطرتها الأصليّة، بحكم أوضاع الشرائع والنواميس الإلهيّة من الأوامر والنواهي، أو بحسب ذاتها وصفاتها الذاتيّة العقلية، كما رآه بعضهم، لا يخلو أيضاً عن خمسة وجوه. فإن تحقيق ذلك، والتفطّن لمعرفة خواص كلّ منها، والاطّلاع عليها على وجه الكمال، إنما يظهر من مطالعة أقوال أهل القدس والطّهارة من الأنبياء والأولياء، الذين يأخذون علومهم من عالم الوحي والإلهام، ويوصلونها إلى الأمّة لينبهوهم عليها، بناءً على قصور عقولهم للتفطّن عن خاصيّة كلّ فعل، وقول، وفكر ونيّة. فليس كون هذه الخواص، والأحكام، والأفعال، والأعمال شرعيّة إنها موضوعة في الشرائع فقط، من غير أن تكون مطابقة لما في **نفس الأمر**[1]، كما توهّمه جماعة. بل المراد ما ذكرناه من إطلاع الكمَّل عليها دون غيرهم، وخصوصاً الأحكام التي لم يتطرّق إليها نسخ في شيء من الأحوال، و لم تتغير بتغيّر الأزمنة والآجال.

فمن الأعمال والأقوال ما يكون الإتيان بها نافعاً في السعادة الأخروية، ومثمراً للنجاة السّرمديّة. ولا بد للمكلف؛أيّ الانسان المستقيم الخلقة الباطنيّة، البالغ حد السلوك

[1] مرّ معنى نفس الأمر في صفحة ...

المعنوي والسير الأخروي، المعبّر عنه بالعاقل البالغ، أن يشتغل به على وجهه، ولم يتركه لا إلى بدل من غير عذر شرعيّ أصلاً، وهو المسمى **بالفرض**.

ومنها: ما يكون الاشتغال به مستتبعاً للتقرّب إليه تعالى، ورفع المترلة للعبد عند الربّ، وسبباً لكونه ممدوحاً مشكوراً، ولكنّه مما يجوز تركه من غير لزوم ملامة واستتباع مضرّة، وهو المسمى **بالمندوب والنافلة**.

ومنها: ما يكون ارتكابه موجباً لظلمة جوهر النفس، واقترافه مستلزماً لكدورة الباطن، ولا سبيل للمكلف في الاصرار بمزاولته أو الجسارة في مباشرته، وهو **المحظور والحرام**.

ومنها :ما يكون تركه أولى من فعله، والإعراض عنه سببا للمحمدة والثناء، ولا يكون الإتيان به موجبا للمذمة واللوم ،وهو **المكروه**.

ومنها: ما لا يترتب على فعله وتركه نفع ولا ضرر، ولا يتوجّه إلى شيء منه مدحٌ ولا ذم بحسب الشرع والعقل، وهو **المباح**.

وهذه الأحكام المنحصرة في الخمسة بحسب التقسيم العقلي والشرعي، كما يجري في الأعمال والأفعال الظاهرية التي تصدى لمعرفتها وضبط مسائلها الفقهاء، شكر الله سعيهم، ودونوا فيها علماً يسمى **علم الفقه**، كذلك في الأعمال الباطنية، وتحصيل المعارف اليقينية، وإقتناء العلوم الإلهية الكشفيّة، التي تصدّى لها علماء الباطن، وترقوا على معارجها وأظهروا منها شيئاً وكتموا شيئاً.

بل هذه الأقسام الخمسة جارية بحسب الاحتمال في كل تجارة أو طلب مطلوب وتخلّص عن مرهوب، سواء كان في دين أو دنيا، ظاهر أو باطن، شريف أو خسيس.

فمقصود الشريعة الظاهرية تهذيب الظاهر عن الأخباث والأنجاس الجسمانيّة، وإلزام الإنسان بهيئة الأعمال والعبادات التي يكون فيها خضوع الجوارح، وترك المستلذات، وإيتاء

الصدقات للفقراء والمساكين من نوعهم، وتكثير اعداد أهل الإيمان والسداد بالمناكحة، وتقليل أعداء الكفر والنفاق والفساد بالمجاهدة، وإجراء الحدود وإصلاح الظلمة والفسقة الفجرة بالديّات والتعزيزات، وضبط الأمر بحسب السياسة البدنيّة، ليحفظ النظام، ولا يكون هملاً وسدى كالأنعام الهيام.

ومقصود الشريعة الباطنيّة العمليّة، تهذيب الباطن عن الفواحش والظّلام الباطنيّة، وتصفيتها عن الصفات الحيوانيّة الشهويّة والغضبيّة، كطلب المشتهيّات، والترفّع على الغير في تحصيل الرئاسات، وعن الوساوس الشيطانيّة كالمكر، والخديعة، والحيل في اكتساب الفانيات.

ومقصود الشريعة الباطنية العلميّة تهذيب الجنبة العالية من النفس والقوة العقلية عن الإعتقادات الفاسدة الجهليّة، وتخليتها عن الأحكام الوهمية الكاذبة، وتحليتها بالعقائد الحقة اليقينيّة الدائمة الضرورية، أو بالمواعظ الخطابيّة النافعة، إن لم يكن بعدُ من الكاملين في العالم. بل ربما ينتفع أيضاً في بعض الأحايين بالمقدمات المشهورة المقبولة. وقد يسمى الأولى **بالشريعة**، والثانية **بالطريقة**، والثالثة **بالحقيقة**[1].

والغاية القصوى في الجميع سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى، والإنخراط في سلك المقربين إليه. وقد مرّت الإشارة إلى أن الأقسام الخمسة جارية في كل من الطرق الثلاث: أمّا الأولين فممّا لا يخفى، وأمّا الثالثة فالفرض فيه صناعة **البرهان**، والحرام هو **السفسطة**، والمندوب هو **الخطابة**، والمكروه وهو **الشعر**،و المباح هو **الجدل**.

[1] را: الآملي، حيدر، كتاب أسرار الشريعة وأطوار الطريقة، وانوار الحقيقة ، دار الهادي ، ط1، 2003م.

تتميم

اعلم أيّدك الله تعالى: أنه لمّا كان الغرض الأصليّ كما ذكرنا من وضع النواميس الإلهيّة سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى، وإيصالهم إلى معرفة ذاته، وتخليصهم عن ذمائم الصفات، ونقائص الأخلاق الموجبة لتعلق ذاهم بالأمور الخسيسة الدنيّة، ووقوفهم في مرتبة البعد والحرمان، والعقوبة والخذلان.

فيلزم على هذا أن لا يقع خلافٌ في أصول الشرائع الحقّة والأديان الإلهيّة، ولا يتطرق نسخ إلى معظمات الاوامر والنواهي وكلّيات الأحكام، كما يدل عليه قوله سبحانه **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فيه﴾**[1] .وقوله حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام **﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئكَتِه وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾**[2] .

فالاختلافات الواقعة بين أرباب الكلام، والفقه في معظمات الأمور وكلّيات الأحكام، دون التفريعات الجزئيّة التي يمكن التغيّر فيها، إنما نشأت من قصور سعيّهم في طلب الحقائق، وعدم دخولهم في كل باب من جهته.

فإن طريق تحصيل اليقين في كشف الحقائق الدينيّة والرموز النبويّة ليس من جهة الأبحاث الكلاميّة والمجادلات، بل من جهة تحصيل العلوم الباطنيّة الكشفيّة، وترك المأنوسات الطباعيّة، ورفض الملائمات الدنياويّة، وقطع النظر عن استجلاء نظر الخلائق وتحسين النّاس والتفات السلاطين.

وبالجملة. التحقّق بالزهد الحقيقيّ عن الدنيا وأبنائها، ومالها وجاهها.

---

[1] الشورى – 13.

[2] البقرة – 285.

والجاه أعظم فتنة من المال،وجاه المترلة في القلوب بحسب العلم والصّلاح، أشدُ فساداً من جاه السلطنة على الأبدان، بحسب القدرة والحميّة، إذ منه ينبعث أكثر المجادلات والمباحثات الكلاميّة، والمعارضات والمنازعات الفقهيّة، التي منشأها طلب الاشتهار والتبسّط في البلاد، وشوق الترّؤس والتسلط على العباد، وطول الأمل في مرغوبات هذه الأجساد، وتمنّي البقاء في دار الأرض والإخلاد، والرضا بهذه الحياة (بحياة الدنيا)، والبعد عن رضوان الله تعالى في يوم المعاد.

زيادة إيضاح

هذه الطريقة التي أكبّ عليها أكثر أهل الكلام، واستحسنها طباع جمهور الانام، وينبعث منها ألتفات الخلق إليهم والعوام الذين جلّهم بل كلّهم خال عن استعداد الارتقاء إلى العالم الأعلى، حيث لا سبيل لهم إلى طلب المبدأ الحقّ الأول واليوم الآخر، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمئنّوا بها كسائر الأنعام، كما قيل:

دد و دام را ره بمعراج نيست

سرخوك شايسته تاج نيست[1]

لا يؤدي سلوكها إلى غاية أخروية. و[إن] انقضت الأعمار والدهور لاحد في الاشتغال بها، كما ترى من المشتغلين صرف العمر فيها طول الليالي والنهار، من غير طائل، ولا هدم باطل عاجل لبناء حقّ آجل، لا تبديل سيّئة بالحسنة، ولا إهمال ظاهر لتهذيب باطن.

بل كلما أمعنوا فيها واكتسبوا زيادة بضاعة في تحصيلها، وشدة مهارة في ضبط فروعها من أصولها؛ زادهم وحشةٌ على وحشةٍ، ونفاقٌ على نفاقٍ، وأصبحت مؤلفاتهم

1 الحقد والبهيمية لا تعرج بالانسان قدرها فان رأس الخترير لا يناسبه التاج

للجدل والخصام، وميادين لطلب المباهتات والافحام؛ بحيث لا يحصل للناظر فيها لكثرة ما يشاهد من المطاردة، والمصارعة، والمخاصمة والملاعنة، إلاّ زيادةٌ في طلب الدنيا، وحرصٌ على المشتهيّات، ورخصةٌ في المناهي، وجرأةٌ في الإقدام على الشبهات بل المحظورات. ويفرغ منها وقد صار قلبه معدناً للوساوس المفسدة في الاستقامة والسّداد، منقلباً عمّا فطره الله تعالى عليه، لسلوك طريق الهداية والرّشاد.

وقد نرى ذلك عياناً في طلبة هذا الزمان، وذلك لكثرة ما يعتريهم ويزاحمهم من تخلّل أشواك أودية الشكوك والإشكال في قدم أفكارهم، ومخالبة أنياب أفاعي الخلاف والمراء والجدال لايدي أنظارهم، وأغالة أغوال أهل الضلال والإضلال لعقولهم وأوهامهم، وأغواء غواية جهالات [أهل] الجهل لأذهانهم وأفهامهم. فيستحيل على الطالب الراغب لسلوك طريق الحقّ أن يجد خلاصاً من هذه الورطة. إذ قد تخيّل له أولاً، أو سمع من معلّمه أو ناصحه: أن لا علم إلاّ فتوى حكومة يستعين بها القضاة والحكّام على فصل الخصام، أو صنعة جدل يتذرّع به طالب الغلبة والمباهات والإفهام، وإن العلماء الذين قيل فيهم أنهم ورثة الأنبياء، هم هؤلاء المنتسبون إلى المذهب والدين،[وهم] العارفون بطريق سيد المرسلين، عليه وآله أجزل صلاة المصلّين! فيتحيّر عقله ويتوّش ذهنه، فوقع في الحيرة والدهشة والاضطراب، إلاّ أن يهديه الله تعالى بتوفيق خاص ويلهمه طريق الهداية، إن كان من السّعداء بحسب ما قدّره الله في الأزل. وإن كان من الأشقياء الّذين أبعدهم الله من منازل المقربين؛ فيكون بحسب خسّة ذاته وخبث جوهره متورطاً في مراتب البُعد والضلال، مشغوفاً بالتفوّق والغلبة على الأشباه والأمثال، وكثرة القيل والقال، محروماً عن علم طريق الآخرة، الّذي اعتنى بتحصيله علماء الآخرة، والرّجال المقربون، والأبدال والآلهيّون، وهو الّذي سمّاه الله تعالى في كتابه الكريم فقهاً، وحكمة، وعلماً، وضياءً ونوراً.

فصل

في بيان الغرض من الأفعال والأعمال الإنسانية والغاية في العبادات والطاعات الشرعيّة

اعلم أن كلّ نوع من أنواع الموجودات، وإن كان مشاركاً مع غيره في كثير من الأحوال والطّاعات والصّفات، لكن يمتاز عما عداه بخاصيّة تكون بها تماميّة ذاتها من حيث هي هي. إذ الشيء لا يمكن وجوده وتحقّقه بمجرد الأمر العام، ما لم ينضم إليه فصلٌ يمتاز به عن غيره، ويكون مقوّماً لوجوده وذاته في نفسه، ومحصلاً لذلك الأمر العام بحسب حصّة منه[1] ولا محالة يكون مبدأ ذلك الفصل حقيقة وجوده[الذي] يكون مظهراً لآثار مخصوصة. وكمال كلّ موجود يستتبع كمال ظهور آثاره المخصوصة

وللإنسان من جملة أنواع الموجودات وأقسام الكائنات،خصوصيّةٌ ومبدأ فصل يمتاز عن سائر الحيوانات والنباتات والجمادات هي قوة النطق[2]. والآثار المخصوصة المترتّبة عليه

---

[1]يقول الشيخ حسن زاده آملي: " فجملة الأمر أن الفصل له نسبة إلى النوع فهو مقوّم له أي داخل في قوامه، وإن شئت قلت الفصل من علل قوام نوعه. وله نسبة إلى الجنس فهو محصّل له أي من علل وجوده وبذلك التحصيل ينقسم جنسه وجوداً إلى نوع. وبعدم ذلك الفصل أي بوجود فصول أخرى إلى أنواع أخرى".

(شرح المنظومة، م.س، ج1،ص171).

[2]قال العلامة الطباطبائي (قدس)يستعمل لفظ الفصل في كلماتهم في معنيين:

أحدهما: أخص اللوازم التي تعرض للنوع وأعرفها، وهو إنما يعدّ فصلاً ويوضع في الحدود موضع الفصول الحقيقيّة لصعوبة الحصول على الفصول الحقيقيةالتي تقوّم الأنواع، أو لعدم وجود أسم دال عليها بالمطابقة في اللغة. كالناطق المأخوذ فصلاً للإنسان، فإن المراد بالنطق إما التكلم وهو بوجه من الكيفيات المسموعة. وإما إدراك الكليّات وهو عندهم من الكيفيّات النفسانيّة، والكيفيّة كيفما كانت من الأعراض، والأعراض لا تقوّم الجواهر، ويسمى فصلاً منطقيّاً.

والثاني : ما يقوّم النوع ويحصّل الجنس حقيقة وهو مبدأ الفصل المنطقي ككون الإنسان ذا نفس ناطقة فصلاً للنوع الإنساني ، ويسمى فصلاً اشتقاقياً . (الطباطبائي ، محمد حسين ، نهاية الحكمة ، موسسة أهل البيت (ع) ، 1986م ، بيروت ، الفصل السادس ، ص94)

هي إدراك المعقولات، والتصرّف بمقتضى الفكر والرويّة في الموضوعات للصناعات، وتمييز الخير من الشرّ، وتعرف المحمود من المذموم. وتنقسم أفعاله من جهة تأثيرها في أحواله للعاقبة إلى الجميل والقبيح، ويستحق بها الثواب والعقاب. ويرتسم لوح حقيقته: أمّا بالسعادة الدائمة، وأمّا الشقاوة الدّائمة.

وكلّ من كان هذه القوة فيه أتمّ وأقوى،يكون ظهور الكمالات فيه أظهر وأجلى. ومن كان في استعمال المقدمات النّظرية بحسب عقله النظريّ في طريق معرفة الخلق، واستعمال الآلات البدنيّة بحسب عقله العملي في طريق التخلّص عن قيود الدنيا وآفات الهيولىأقوى، وإلى اقتناء الفضائل العلميّة والعمليّة أميَل وأرغب؛ كان ترقيه في معارج الكمال وتحلّيه بالفضائل والأحوال المستتبعة لصوالح الأعمال، وتدرّجه من حال إلى حال، أشدُ وأكثرُ، وظهور الخاصيّة الإنسانية فيه أوفر، وذاته بحسب جوهرها أفضل وأكمل، وهو في نفس الأمر أكيَس من سائر أفراد الإنسان وأعقل. وتفاوت نفوس الآدميين في الشرف والخسّة إنما يُعلم من تفاوتهم في ظهور هذه الخاصيّة وخفائها وكمالها ونقصانها.

واعلم أن مبادىء ظهور هذه الخاصيّة الإنسانيّة إنما يتحقّق في طائفة يأخذون العلوم والفضائل بالتعليم، ويستنبطون الصنائع النافعة برقة أوهامهم، وقوة طبائعهم. وأفضل منهم فيها جماعة يشرعون في طلب الفضائل العقلية، ويخوضوا في المعارف اليقينية، لكمال التعقل وقوة التفكّر والتأمّل. وأعلى من الجميع أناس إلهيّون، ورجال ربانيّون، يأخذون علومهم الكشفيّة بالوحي والإلهام من العقل الفعّال، والملك الملقى للحقائق الموحي للأخبار والأحكام من غير وساطة هذه الأجسام.

فالعاقل بالحقيقة، والكيّس عند ذوي البصيرة: من كان غرضه من الافعال والأعمال، التي أعطاه الله تعالى له أسباباً وآلات لإصدارها منه، طلب الفضيلة التي يخصُّ له من جملة الكائنات، والتحقّق بالكمال الخاص التي به فارق الحيوانات؛ ولم يُحرم عن

السعادة الأخرويّة، ومنادمة الملائكة ومجاورة الرّحمان، بسبب مخادعة الشهوة، وسحر الطبيعة ووسوسة الشيطان.

وليس العاقل عند أولي البصائر وأولي الألباب من تكيّس في الأمور الباطلة الدنياوية، وصرف في تحصيلها غاية المجهود، وبذل في اكتسابها نهاية السعي، وراعى في ترتيب الأسباب البدنيّة شرائط التّيقّظ والاحتياط، ويتحمّل المشاق الشديدة والأسفار البعيدة، ويتعرّض لأنواع المكاره، وأصناف المخاوف من قطع المفاوز المهلكة، وعبور البحار العميقة، وركوب السفائن المضطربة؛ مع ما فيها من منازعة الحسّاد ومخاصمة الأضداد، وتوزّع الخاطر في دفع مكائد أهل العناد، والمباعدة عن الأهل والأولاد والأحفاد. كلّ ذلك، في طلب الأمور الخسيسة الماديّة، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً[1]. وهم مع هذه الشدائد العظيمة والمفاسد، يكون في أكثر الأحايين خائباً خاسراً فيما يعدّه غيره مطلوباً ومقصوداً أحياناً، فالخلل والزّوال والفساد والانتقال والارتحال لاحق على التعاقب عن قريب لا محالة، من غير إمكان مداومة واتصال، لأن الدنيا دارُ افتراق واضمحلال.

فهذا الشخص وأمثاله، وإن كانوا معدودين عند ضعفاء العقول والجهلة والأراذل وسائر العوامّ الّذين هم بمنزلة البهائم والأنعام، من جملة العقلاء والأكياس، لكنّهم عند من له بصيرة باطنيّة وجودة عقلية، يكون من جملة السفهاء والحمقاء من أرذال النّاس. روي عن رسول الله ﷺ:"الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت. والأحمق من اتّبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأمانيّ"[2].

والعالم بالحقيقة وبحسب عرف السابقين الأوّلين، وما يقرب من زمانهم قبل ظهور

[1] إشارة إلى قوله تعالى:﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ النور – 39.

[2] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج6،ص374. من دون كلمة (الأماني)

هذه البدع والأهواء في الدّين، من كان مصروف الهمة في اقتناء العلوم اليقينيّة واكتساب المعارف الإلهيّة، مبتهجاً بالنظر إلى كيفيّة الصنع والإيجاد، مشغوفاً بالاطّلاع على معرفة المبدأ والمعاد؛ وكان أجلّ ابتهاجاته، وغاية سعاداته، في عرفانه للحقّ الأوّل، وملاحظته لدقائق الربوبيّة ومطالعته للحضرة الإلهيّة.

فإن سعادة كلّ احد هو عبارة عن إدراك ما يلائم ذاته، ويوافق طبعه. والملائم لكل شيء ما يكون مقتضى خاصيته، ويكون به كماله. ولهذا يكون لذّة الباصرة في إدراك الصور الجميلة، وبذلك يحصل كمالها؛ ولذّة السامعة في سماع الأصوات، ولذّة [القوة] الشهويّة في طلب اللذائذ الحسيّة، ولذّة القوة العقلية في دفع الكريه الحسي بالانتقام، ولذّة القوّة العاقلة النظريّة في إدراك حقائق الموجودات ونيل دقائق المعقولات، والاتصال بعالم المفارقات[1]. إذ به يحصل مقتضى خاصيتها ويتحقق كمالها وغايتها وتعاملها.

ولا شك أن أجلّ المعقولات وأشرفها ذاتاً هو ذات الحقّ الأوّل، فيكون ألذّ الأشياء عند العقل. وذلك لأن المطلوب كلما كان أكمل ذاتاً وأظهر تحققاً، يكون إدراكه ألذّ وأبهى.

ولهذا يكون إدراك الحقّ ومشاهدة جلاله وجماله عند العرفاء والحكماء الإلهيّين أقصى الكمالات وألذّ السّعادات. وذلك لصفاء نفوسهم، وطهارة ذواتهم عن الخبائث الجسمانيّة، وخلوص ذائقتهم العقليّة عن المكدّرات الطبيعيّة.

وأما الناقصون في العلم والعمل، النازلون في مهوى الأجسام، الخائضون في طلب اللّذات الحسيّة، الهابطون في مهبط الشهوات الحيوانيّة، فيكون ألذّ الأشياء في الواقع أوحشها عندهم؛وذلك لخدر ذائقتهم، ومرض قلوبهم، وانحراف ذاتهم عن صوب إدراك الحقائق على وجهها، لغلبة سكر الطبيعة وسحر عالم الأجسام، وتسلّط وسوسة الشيطان،

[1] - عالم المفارقات : هو عالم يقابل عالم المقارنات ، ويراد به عالم مجرد عن المادة والصورة والاستعداد والحركة ، اذ يكفي في ايجاده أمر الله ولذلك سمي بعالم" الأمر" أيضاً .

وتسخير القوى الوهميّة والخياليّة، واراتها الأشياء كلها لهم على خلاف ما هي عليها. فيحسبون الظلمة نوراً، والوحشة أنساً، والباطل حقاً، والمنافر ملائماً، والشرّ خيراً، والمكروه لذيذاً. وعلى هذا القياس في جميع الأشياء الدّنياويّة الباطلة، والشرور العاجلة.

وبعكس ذلك في الأمور الأخرويّة، والخيرات الآجلة، التي يكون اقتنائها سبباً للسعادة الحقيقيّة، وموجباً للذّة السرمديّة. حتى أن ذات الحقّ تعالى الذي هو أجمل الأشياء وأجلّها واعظمها بحسب نفس الامر، وعند أهل السلامة والأخيار من الأنبياء والأولياء، والعرفاء والحكماء، يكون عند الناقصين والفجّار المنافقين، أوحش الأشياء، قائلين بلسان حالهم عند الموقف الأكبر:

ای نوش لبان جو زهر نابی بر من
وی راحت دیگران عذابی بر من[1]

تسجيل

فالذكي المتحذّق يتيقّن له ما سبق: ان العلم الذي به يحصل للإنسان حقيقة الكمال، ويتحقّق به مقتضى خاصيّته التي يفوق بها على الأقران والأمثال، ويتمّم فضائله النفسانيّة، ويوصله إلى غاية مقاماته العقلية؛ هو ما يتعلّق بالأمور الإلهيّة، والمعارف الرّبانيّة، وعلم التوحيد، وعلم المبدأ والمعاد، وكيفيّة الصنع والإبداع، وعلم النبوّات من إرسال الرّسل، وإنزال الكتب، وملاقاة الملك الموحي، وكيفية الوحي والإلهام، والعلم بالحوادث الجزئيّة والمغيبات، وعلم طريق الآخرة، وأحوال القيامة والحشر الجسمانيّين، اللتين فيهما نعيم السعداء، وعذاب الأشقياء، في عالم الآخرة، التي نشأتها من جنس هذه النشأة الدنياويّة.

فهذه هي العلوم التي تتحقّق بها كمال نفس الإنسان وتمامها، بحسب الجزء النظري

1 يا عذبة الريق ريقك عليّ سم صاف وعذابي أنت وللاغيار راحة

الذي يبقى أبد الدهر، لا بحسب جزئها العمليّ الذي تزول عنها عند ارتحالها من الدنيا إلى الآخرة.

وليس شيء من غير تلك العلوم المتعلقة بكيفيتها بهذه المثابة، بل الحاجة إليها إنما هي لأجل صلاح العيش الدنياويّ، على وجه يلائم الأغراض الأخرويّة ولا يزاحمها.

وأمّا العلوم التي يكون الباعث في اكتسابها، الوصول إلى الأغراض النفسانيّة والمآرب الدنياويّة، والتسبّب بها في المنافع الحسيّة واللّذات البدنيّة، والتوصل إلى التقوّى والتفاخر على الأخرى، والتوصّل إلى الجاه والرئاسة على أبناء النوع، وطلب الشدّة في البقاع،والتبسّط في البلدان، كما يشاهد من أكثر اخساء هذا الزمان؛ فهي علوم ضرّها أكثر من نفعها، وتركها أولى من اقتنائها.

هذا تقرير ما ذكروه، وتفصيل ما أجملوه، ما وجدنا في مسطوراتهم، وبلغنا من آرائهم ومعتقداتهم.

فصل

في بيان كون الأعمال القبيحة موجبة للشقاوة الأخروية

اعلم أن تكرار الأفعال الشهويّة والغضبيّة، وتكثُّر الأعمال الجسمانيّة القبيحة الموجبة لتعلق النفس بالأمور الدنيّة الماديّة، وألفها بالغشاوات الظلمانيّة يحجب بصيرة العقل عن إدراك الحقائق العلميّة، والدقائق العمليّة، الذي به ينوط السعادة الأخروية، وبه يحصل البراءة عن الشقاوة السرمديّة. كما أشار سبحانه إلى المتوغلين في تحصيل اللّذات الكثيفة الجرمانيّة، وحرمانهم عن درك الحقائق العقليّة بقوله تعالى ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[1] . وذلك لأن اشتغال النفس

---

[1] سورة البقرة – 7.

واهتمامها بهذه الأشغال المختلفة، وأعمال قواها في هذه الأعمال المتفرّقة الكونيّة، وصرفها في اللّذات المجحدة والشهوات الناقصة؛ يوجب انصرافها عن عالم القدس، ومحلّ الرحمة والكرامة ومعدن الجمعيّة[1]، وإفاضة الخيرات وإعطاء السعادات، وانكبابها إلى العالم السفليّ ومنبع الوحشة والتفرقة والآفة.

وقد ثبت وتحقّق حسبما قرّرنا في مقامه، وأقمنا البرهان عليه[2]: إن النفس الإنسانيّة مع وحدتها وتجرّدها، يصدر عنها لذاتها جميع الأعمال والتحريكات البدنيّة والحيوانيّة والطبيعيّة، حتى الجذب والدفع الطبيعيّين، كما يصدر عنها كذلك جميع الأفعال والانتقالات العقلية. ولا دخل لقواها وآلاتها في تأثيراتها، بل هي معدّات ومخصّصات لأفاعيلها، وجهات مكثّرات لآثارها الصادرة عن وحدانيّة ذاتها. بل لها نحو تنزّل في مرتبة القوى، وضرب اتحاد بالآلات ومقتضياتها. فهي بحسب كل قول وفعل وعمل، تصير في مرتبة آلة ذلك القول أو الفعل والعمل، فتكون عند فعل الأبصار باصرة، وعند الاستماع سامعة، وعند التحريك قوة محرّكة، وعند الشهوة بهيمة، وعند الغضب سبعاً، وعند إدراك المعقولات ملكاً عقلانيّاً. وعند تحريك القوة العمليّة في الخيرات والمصالح ملكاً عمليّاً، فإذا تمرّنت في عمل من الأعمال؛ صارت بحيث تغلب عليها خاصيّة ذلك العمل، ويصعب

---

[1]"واعلم : أن للهوية الإلهية ثلاثة اعتبارات : الاول: الوحدة الإطلاقية اللاتعينيّة التي لا اسم لها ولا رسم لها ، وهذه هي مقام غيب الغيوب والهوية المطلقة التي ليس الإطلاق قيداً لها ، بل عنوان للسعته وانبساطه وخبر عن عدم محدوديته ونفي تعينه ، وهذا الاعتبار ليس له ربط ولا نسبة بما سواه وهو المعبّر بلسان القرآن بـــ(هو) بقوله : (قل هو الله أحد).

والثاني : مقام الواحدية الجمعيّة المحمليّة الجامع للكثرات والكمالات بوجه الوحدة ، وهذا مقام اسم الله الذاتي المعبّر بقوله : (قل هو الله أحد) .

الثالث : ومقام الاحدية الذي يلاحظ فيه إسقاط الصفات والنسب والإضافات والاعتبارات والاوصاف ، لا بمعنى فقدانه وعدم وجدانه ، بل بمعنى عدم الاعتبار . ولرفع توهّم عدم الاعتبار لا اعتبار الفقدان وصفه بقوله : (الله الصمد) يعني أنّ الذات بلحاظ إسقاط الاوصاف ، هو عين الله الصمد لا غيره ، حتى يلزم كونه غير واجد للكمالات . (تعليقة آقا ميرزا محمود قمي على تمهيد القواعد لابن تركه ، ص217) .

[2]الشيرازي، صدر الدين محمد، الأسفار الأربعة، ج8، الفصل 4، ص221- 230.

عليها الانتقال منه ما لم تكن قبل ذلك بهذه الصعوبة، ويكون حكمها بحسب الآخرة ما تختم به عاقبة أمرها.

فظهر أن انكبابها إلى اللّذات الحيوانيّة والحياة الجسمانيّة، يورث ملكة انجذابها إلى جانب البدن، ونزولها في المرتبة الدنيّا والمرحلة السفلى. وكلّما اشتدّ عشقها وشوقها إلى أمر زائل فإنه يكون تألمها وتحسّرها في المفارقة، وقطع التعلّق به، وترك الالتفات إليه، أشدّ وأدهى، وعقوبتها في الآخرة أدوم وأبقى. فأن من جعل أمراً من الامور مطمع نظره، ومحل قصده، ووجهة قلبه؛ يتصوّر ويتمثّل ذلك الشيء في صفحة خاطره، ويتجلى في مرآة إدراكه بأجمل صورة وأحسن، وإن كان بحسب ذاته وعند أصحاب الإدراك في غاية القباحة والرّكاكة والخساسة. وعلى ذلك القياس فيما هو يضادّه ويخالفه، حيث يتصوّر عنده بأقبح صورة وكسوة، وإن كان في الواقع وعند غيره في غاية الشرف والكمال.

فإذا تقرر ذلك فاعلم: أن هذا المرض المفسد الّذي يغيّر جوهر ذات الانسان عن سلامتها الفطريّة، بحيث يرى الأشياء على خلاف ما هي عليه؛ قد انتشر في هذا الزمان، وعمّ جميع أفراد الإنسان، وأهلك البعض، بحيث لا يتحمّل العلاج، ويصير البعض مشرفاً على الهلاك. ومن يقبل العلاج، فهو على الشذوذ. فليس في وجه الأرض التي هي دار المرض، إلاّ مريض أو هالك. ومرض القلب أكثر من مرض الابدان. وإنما صار مرض القلب أكثر من مرض الأبدان، لثلاث علل ذكرها بعض العلماء:

الأوّل: أن المريض لا يدري أنه مريض.

والثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم. بخلاف مرض البدن، فإن عاقبته الموت، وهو مشاهد، تنفر الطبائع منه. وما بعده غير مشاهد فقلّت النّفرة عن طلب المشتهيّات، وإن علمها مرتكبها. فلذلك يراه يتّكل على فضل الله [فيها]، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالث: وهو الدّاء العضال، فقد الطبيب. فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذا الاعصار مرضاً شديداً، عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض، حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى اغواء الخلق والإشارة بما يزيدهم مرضاً. لان الداء المهلك هو حبّ الدّنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق، استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج، وتنسون أنفسكم! فبهذا السّبب عمّ الــداء، وعظم الوباء، وانقطع الدّواء، وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الاغواء.

فصل

في بيان سبب الاغاليط التي توجب عدم التميز بين الأخيار والأشرار، ورفع التفرقة بين السفهاء والعقلاء، والجهال والعلماء

اعلم أن أكثر الناس لقصورهم عن درجة الكمال، وجهلهم بأحوال الرجال، يشــتبه عليهم الرذائل بالفضائل، فيحسبون السّفسطة حكمة، ويعدّون التّهوّر شــجاعة، ويزعمــون الخمود تواضعاً. وذلك لان أهل السفسطة وأصحاب الغيّ قد يتكلمون بألفــاظ الحكمــاء وكلمات الفضلاء، وقد يحفظون بطريق الأخذ والانتحال أقوال السلف من غير تحقق بمعانيها وتأثر من نتائجها وآثارها، بل للمقاصد النفسانيّة مثل الشهوة والرعونة والممــاراة، وطلــب التّرفع وكسب الجاه الخسيس، والمترلة الدنيّة عند العوام والناقصين، فيتكلمون في المجالس بتلك المموّهات المزخرفة، من قشور بقايا السلف، ويصرفونها في صورة النقود المروّجة على بعــض العميان والكمه الأضاليل، الذين لا خبر لهم عن بضاعة الحكماء وقنية الفضــلاء، ولا يتميّــز عندهم ما يزيّن به الرجال، عما يتحلّى به النسوان من أهل الحجب والحجــال، فيزعمــون الأكاذيب الخياليّة، والأوهام الشيطانيّة نهاية المقاصد العرفانيّة وغاية المطالب الكشفيّة.

والحال أنهم لم يكتسبوا علماً يقينيّاً في شيء من المقاصد الدينيّة، و لم يحصّلوا لأنفسهم طمأنينة علميّة، ولا مرتبة من الذوق العرفانيّ في الحقائق الإيمانية من العلم بالله وبأحوال المبدأ والمعاد. ولا خبر لهم من علم النفس التي معرفتها سلّم معرفة الحقّ، ومرقاة سائر العلوم المتيقّنة والمعارف الحقّة. بل لا اطمئنان لهم بشيء من الأشياء الكلية اوعظائم الأمور الإلهيّة، ولا وثوق ولا اعتماد لهم على اليقينيّات الدائمة، التي لا يحصل العلم بها إلاّ من جهة البرهان، الّذي يعطي اللمّ[1] في الحكم اليقينيّ. وحيث لم يرتق نظرهم عن عالم الخيال إلى عالم العقول، و لم يتعدّ طورهم عن هذه الهاوية المظلمة إلى فسحة الأنوار العقليّة؛ فلا خبر لهم عن ما يرد [على] قلوب السالكين.

وهؤلاء المتشبّهة بالحكماء والعرفاء في سفسطتهم ومحاكاتهم لأقوال أهل الكمال وتشبّههم بأحوال البالغين من الرجال؛ يكونون كالحيوانات المحاكيّة لأفعال الإنسان وأقواله كالقردة و الطوطىّ[2]،وكالصبيان الناقصين المقلّدين للرجال الكاملين.

وليس الميزان الصحيح والمحكّ الصادق والمعيار المستقيم في هذا الاشتباه والالتباس، إلاّ الحكيم العارف بأحوال كل فرقة من الناس والنسناس[3]، والمقسّم بين الملك والكنّاس.

---

[1] باعتبار إنه ثبت في محله إن الذي يقيد اليقين هو القياس ولكن ليس مطلق القياس وإنما القياس البرهاني. ثم هناك بحث هل إن مطلق القياس البرهاني يفيد اليقين أو خصوص القياس البرهاني الذي يكون الحدّ الأوسط فيها علّة لثبوت الأكبر – وهو المحمول في النتيجة– للأصغر– وهو الموضوع فيها–. وبعبارة أوضح السير من العلّة إلى المعلول. تفصيل ذلك في محله.

را: نهاية الحكمة، تعليقة غلام رضا الفياضي، ج1، ص30-32

را:نهاية الحكمة،تعليقة الشيخ اليزدي، ج1، ص 14-16.

[2] كذا في الاصل

[3] النسناس : قيل هم يأجوج ومأجوج ، وقيل : هم خلق على صورة الناس أي أشبهوهم في شيء وخالفوهم في شيء وليسوا من بني آدم ، وقيل : هم من بني آدم .

وفي الحديث عن الإمام الحسين(عليه السلام) جواباً فيمن سئله عن النسناس ، قال(عليه السلام) : واما قولك النسناس فهم السواد الأعظم وأشار بيده إلى جماعة الناس ثم قال(عليه السلام): (ان هم كالأنعام بل أضل سبيلاً)

وكما أن في الكمالات النظريّة يقع مثل هذه المغالطة والغلط الموجب لعدم التفرقة بين الفلسفة والسفسطة، ورفع الامتياز بين الإسلام والزندقة، فكذلك كثيراً مّا يقع الاشتباه والالتباس في الكمالات العلميّة، وطريق التصفيّة وفنون الفضائل النفسيّة.

فأصحاب الشيد والقرمطة، يُشبهون بأهل الله وأرباب الصفاء والتصفيّة. وربّما يُعتبرون في هذا الزمان أصحاب الزّرق، مع خمود نظرهم، وجمود باطنهم من جملة الصوفيّة، وأهل الباطن والمكاشفين.

فغان زابلهى اين خران بي دم و كوش

كه جمله شيخ تراش آمدند و شيخ فروش

شوند هر دو سه روزى مريد نادانى

تهى ز دين خود وخالى از بصيرت وهوش[1]

والعاقل الفهيم، وكلّ من نظر في أوضاع هذا الزّمان وأطوار أهله، نظر اعتبار واستبصار؛ يعلم يقيناً: أن أهل الله وأرباب التصوّف، والكمال والحال، يمتنع أن يكون أحدٌ منهم ظاهراً جليّاً، بل يجب أن يكون مخفيّاً؛ لا بان يكون بشريّته غير مشاهدة لأحدٍ، بل بأن يكون حاله مخفيّة على الخلق، ومرتبته مجهولة عليهم.

وبالجملة. الصوفيّ من حيث أنه صوفيّ مستور عن العقول، وإن لم يكن ظاهر جسده وسائر حالاته مستوراً عن الأنظار.

فكل من ينتصب نفسه للتصوّف والإرشاد، ويتشبّه بأهل الكمال والحال، ويخالط الناس ويشاركهم في لذّاتهم وشهواتهم، ويعاونهم في غفلاتهم وجهالاتهم؛ فهو منافق ملعون،

---

1 -أسفاه لأبله بين حمر لا ذنب ولا آذان كلهم يدعي المشيخة ويتاجر بها

كل يوم يكون مريداً لأحمق خال منار الدين صفر اليدين من البصيرة والذكاء .

عدوّ لله ولرسوله والأئمة عليهم السلام مضادّ ومخاصم معاند لجميع السلاّك والمتألّهين، لأن طوره على خلاف طورهم، فيكون ممقوتاً عندهم، وهم يتحاشون عن الالتفات إليه، ويترّهون بالهم عن أخطاره، ويطهّرون عيونهم وأسماعهم عن رؤيته وإحضاره، وسماع أحواله وأطواره.

وأكثر من يقعد في **الصوامع**[1] ليشار إليه بالأصابع، ويجلس في **الخانقاهات**[2] ليشتهر اسمه بالزهد والكرامات؛ فهو أحمق ناقص ملعون، وفي قيد الشهوات مسجون. فطوبى للتقيّ المجاهد الذي سلم عن إشارة الأنامل، وتعساً لمن قعد في الصّوامع لتحصيل الوسائل للمسائل. خزائن الأنبياء مكتومة، وكنوز الأولياء مختومة. قدس الله تعالى أهل عرفانه، وخواصّ عباده ومحبوبيه، عن إطلاع أهل الدنيا وعبدة الشهوات على أحوالهم، والطمع في إدراك منتهاهم، وجلّت مترلتهم عن أن يصل إليها أفهام الجهّال وطبائع الارذال!

فهم تحت حجب العزّة محتجبون، وفي قباب الكبرياء عن معارفة أهل الشرّ والفساد مستورون، وهم خاصة بعبادة ربهم والتقرّب إليه مشتغلون. وسائر الناس كباقي الحيوانات وجملة الكائنات لخدمتهم قائمون، لأنهم غاية الكون وثمرة الايجاد. وغيرهم معدّات وآلات لوجودهم، وخدم وأعوان لتحصيل معرفتهم بالله وشهودهم.

كما انتظم في تلك المأثورات النبويّة وانخرط في نظم الأخبار الإلهيّة، حيث قال صاحب الفضيلة الربانيّة، المشار إليها بقوله تعالى﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا...**﴾[3]،

---

[1] الصوامع: يراد بها صوامع الأذكار، وهو ما يصون الذاكر عن التفرقة عن مذكوره، وعن المواطن المعنويّة والحالات السريّة، التي يصح معها للذاكر أن يتمكن من التفرّغ عن كل ما يشتغل عن المداومة على ذكره لمذكوره ظاهراً وباطناً بلا ممانعة شيء يوجب تفرقة همة أو نقصان في كمال توجهه في ذكره إلى مذكوره، فإن صومعة الذكر إنما تراد لذلك.

(لطائف الأعلام في إشارات الإلهام، م.س، ص360)

[2] الخانقاهات: الخوانق كلمة فارسيّة تعني دار أهل التصوّف ومكان سكنهم وتعبدهم، وحيث يلقون العلوم الدينيّة ويمارسون طقوسهم..

وكان لكل خانقاه شيخ يشرف على حسن سيرها، وهذه الشيوخ كانت ترتبط بسلطة شيخ الشيوخ.

(التصوّف الاسلامي، م.س، ص633)

[3] سورة سبأ 10

المتوّج بتاج الخلافة في بسيط﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[1] ، المرتدي برداء الحكمة وفصل الخصاب، في مملكة ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[2] المتحلّى بحلية الذّكر الجميل؛ والقوّة، والأيد، والأربة إلى الحقّ، المكتسي بكساء الزلفى عنده وحسن مآب، سائلاً عن حكمة الإيجاد وغاية التكوين من حضرة رب العالمين، سؤال متضرّع خاشع على نهج الابتهال: أي ربّ لم خلقت الخلق؟ فنودى له من وراء سرادقات العزة:(كنت كتراً مخفيّاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف)[3]

فعلم من هذا الكلام: ان العرفاء من حيث كونهم عرفاء محبوبون لله تعالى، وأن من سواهم إنما خلقوا ورزقوا لأجلهم، كما وقع في المثنوى المولوى:

قطب شير و صيد كردن كار او

باقى اين خلق روزى خوار او[4]

---

[1] سورة ص- 26

[2] سورة ص- 20

[3] ورد هذا الحديث القدسي في الكتب العرفانيّة، كفصوص الحكم، وشرح القيصري، وكذلك في كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار للسيد حيدر الآملي ص159.

4-القطب أسد والصيد عمله وسائر الخلق يعيشون على فتات موائده

المقالة الرابعة

في مواعظ حكميّة، ونصائح عقلية، ومخاطبات روحانية في ذمّ الدنيا وأهلها ينتفع بها من له قلب سليم وعقل مستقيم دون من لا قلب له ولا حياة عقليّة كالبهائم والحشرات

فإن المواعظ والنصائح لا تحيي الموتى، بل تنبّه الناعسين وتوقظ النائمين، كما في قوله تعالى مخاطباً لرسوله النذير المنذر: ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ... ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2] فلنذكر جملة من النصائح والآداب المستنبط من كلام الله تعالى، والأحاديث النبويّة المنتقلة من طريق أهل بيته الطاهرين- صلوات الله عليهم أجمعين- مع ما يطابقهما و يوافقهما من كلمات المتألهين، وخطابات الحكماء الرّبانيّين في فصول عديدة يختم الرسالة بها.

---

[1] النمل – 80.

[2] سورة ق – 37.

فصل

قال الله تعالى ناصحاً لرسوله وحبيبه، هادياً له طريق العلاج ليهدي أمّته هداه، ويتنوّر باطنهم بنور سلوك طريق ورعه وتقواه، مخاطباً إيّاه ﷺ :﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].
فنهى سبحانه رسوله عن النظر إلى متاع الدنيا، وزهرة حياتها الفانية كيلا يتلوّث طهارة ذاته المجرّدة، وعينه المقدّسة بكثائف مستلذّاتها وخبائث مشتهياتها،مع أنه ﷺ في غاية قوّة اليقين الّذي لايلهيه شيء عن ذكر الله،كما هو مصرّح به في القرآن المجيد في حق جماعة هو سيدهم ورسولهم، حيث قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[2] . فذلك الخطاب : امّا من جهة الأمّة، كما هو المتعارف من خطاب السيّد وإرادة قومه، واما من جهة احتمال تغيّر ما في قلبه الشريف وقليل انحطاط مّا عن مرتبته التي تليق بشأنه ﷺ .

فالعاقل لا بد أن يتفطّن بان النظر إلى طيّبات الدنيا، التي هي خبائث خبيثات العالم الأعلى، متى كان مؤثّراً في حالة الرسول ﷺومغيّراً لقلبه عما هو عليه من التقدّس عن الدّنيا، والاشتغال بعالم الملكوت ومجاورة الحق؛ فكيف يكون مباشرتها والتوغّل فيها بالقياس إلى آحاد النّاس، وصرف أعينهم عن صوب الآخرة وطريق الاستقامة !

كفت حق بارها به بيغمبر
كه بدنيا وأهل او منكر [3]

---

[1] سورة طه- 131.
[2] سورة النور — 37
3-قالها الرحمن مراراً لرسوله لا تمل عينيك إلى الدنيا وأهلها

ثمّ إن الآيات والنصوص التي تدل على ذمّ الدنيا وهجين أهلها، ومدح الآخرة وتحسين أهلها، أكثر من أن تحصى. والعجب أن ليس الحثّ والتحريض الوارد منه تعالى في الكلام البديع الانتظام، في شيء من الأحكام والمسائل التي في الحلال أو الحرام، أشدّ وأكثر من الأمر بترك محبّة الدنيا وعدم الالتفات إلى ساكنيها وذويها، مثل قوله تعالى:﴿**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ...**﴾[1] وكقوله تعالى:﴿ ... **وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾[2] إلى غير ذلك من النصوص القاطعة.

ومع ذلك فانك قد ترى النّاس والمنتسبين إلى العلم لا يبحثون عن آياتها،ولا يتوجهون إلى النظر فيها بعين التدبّر والاعتبار، والاعتناء بملاحظتها، والعمل بمقتضاها، والتفطّن لغايتها ومنتهاها. وتراهم يسوّدون مجلدات في أبواب آخر من الإحكام، ومسائل الحلال والحرام، والبحث عن آيات أحكامها، واستنباط الفروع والدقائق في فنونها وأقسامها. كل ذلك كان لكونه موجباً لرجوع الخلائق في الفتاوى والاقضية، وسبباً للتقرّب إلى الحكام، والتوّصل إلى الحطام.

وصية إلهيّة

أوحى الله تعالى إلى **داود**ﷺ (يا داود! احذر القلوب المتعلّقة بالشهوات، محجوبة عنّي) ورأيت في بعض مجلدات **الفتوحات المكيّة** يقول الله تعالى: (يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين! يعني: سيّدنا محمدﷺ لا تدخلوا بيتاً من بيوتي، إلا بقلوب سليمة وألسن صادقة، وأيد نقيّة، وفروج طاهرة!)

---

[1] سورة النجم -29-30

[2] سورة الكهف -28

فصل

في وصايا نبوية في الزهد عن الدنيا وأهلها

قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، في بعض خطبه (وكذلك من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها في قلبه؛ آثرها على الله تعالى، فانقطع إليها، وصار عبداً لها.

ولقد كان رسول الله ﷺ كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذمّ الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوى عن زخارفها.

وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه السلام إذ يقول: ﴿... رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] والله ما سأله إلاّ خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض. ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه.

وإن شئت ثلّثت بداود عليه السلام صاحب المزامير، وقارىء أهل الجنّة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه. ودابّته رجلاه، وخادمه يداه.

فتأسّ بنبيك الأطيب الأطهر ﷺ فإن فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى. وأحب العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتص لأثره، قضم الدنيا قضماً، ولم يُعرها طرفاً. أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم بطناً. عرضت عليه، فأبى أن يقبلها. وعلم أن الله سبحانه أبغض

---

[1] القصص – 24.

شيئاً فأبغضه، وحقّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره. ولو لم يكن فينا إلا حبّنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله؛ لكفى به شقاقاً ومحادّة عن أمر الله. ولقد كان يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويُردف خلفه. ويكون الستر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول لإحدى أزواجه: يا فلانة، غيّبه عني! فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها. فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه،لكيلا يتّخذها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر. وكذلك من أبغض شيئاً؛ أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده.

ولقد كان في رسول الله ﷺ ما يدلّك على مساوى الدنيا وعيوبها. إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها، مع عظيم زلفته. فلينظر ناظر بعقله! أكرم الله محمداً ﷺ بذلك أم أهانه؟! فإن قال: أهانه؛ فقد كذب، والله العظيم! وأتى بالإفك القديم، وإن قال: أكرمه؛ فليعلم أن الله قد أهان غيره، حيث بسط له الدنيا، وزواها عن أقرب الناس منه. فتأسّى متأسٍّ بنبيّه وأقتصّ أثره، وولج مولجه. وإلاّ فلا يأمن الهلكة. فإن الله جعل محمداً ﷺ علماً للساعة، ومبشراً بالجنّة، ومنذراً بالعقوبة، خرج من الدنيا خميصاً، وورد في الآخرة سليماً. لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه. فما أعظم منة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه، وقائداً نطأ عقبه. والله لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال قائل: الا تنبذها عنك؟! فقلت اغرب عني! فعند الصباح يُحمد القوم السرّى)[1]. انتهى كلامه، عليه من الله سلامه وإكرامه!

واعلم أن الأحاديث في ذمّ الدنيا، وطلب الشهرة عند الخلق، والاستئناس بالناس، كثيرة مشهورة في كتب الحديث وغيرها، كما أنّ الآيات الدّالة على ذلك كثيرة غير

[1] نهج البلاغة، ج2،خطبة 160 ص392 – 398.

محصورة. إلاّ أنّ أرباب الحديث والمسمّون بعلماء المذهب والشريعة، لا يلتفتون إليها، ولا يبحثون عن إجمالها وتفصيلها، للعلّة التي ذكرناها.

وقد يستفاد من قوله تعالى:﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ..**﴾[1]. **إلى قوله تعالى:**

﴿ ...**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ**...﴾[2] بطريق المفهوم: إن العلماء في الحقيقة هم الزّاهدون. حيث نسب الزّهد في قصة **قارون** إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم. وقال في وصف الكفّار:﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**...﴾[3]، فمفهومه أن المؤمن هو الّذي اتّصف بنقيض ذلك: وهو أن يستحبَّ الآخرة على الحياة الدنيا.

فمن الأحاديث من طريق أئمتنا صلوات الله عليهم أجمعين ما في كتاب **الكافي** عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يجد الرجل حلاوة الإيمان في قلبه حتى لا يبالي من أكل الدنيا) ثم قال أبو عبد الله عليه السلام :(حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان، حتى تزهد في الدنيا)[4].

وعنه عليه السلام قال:(من زهد في الدنيا، أثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا: داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السّلام)[5]

وعنه عليه السلام قال:(خرج النبيّ صلى الله عليه وآله هو محزون، فأتاه ملك، ومعه مفاتيح خزائن الأرض. فقال يا محمد! هذه مفاتيح خزائن الأرض، يقول لك ربك: افتح وخذ منها ما شئت! من غير أن تنقص شيئاً عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :(الدنيا دار من لا دار له، ولها

---

[1] القصص 79

[2] القصص 80

[3] النحل- 107.

[4] أصول الكافي، الكليني، ج2،ص128،ح2

[5] بحار الأنوار، ج70،ص48،ح19

يجمع من لا عقل له. فقال الملك: والذي بعثك بالحق نبيّاً: لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين أعطيت المفاتيح)[1]

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(إنّ في طلب الدنيا إضراراً بالآخرة، وفي طلب الآخرة إضراراً بالدنيا. فأضرّوا بالدنيا، فإنها أحقّ بالإضرار)[2] وروى الشيخ الجليل أمين الإسلام محمد بن يعقوب الكليني رحمه الله[3]! في الكتاب مسنداً إلى جابر رضي الله عنه عن أبي جعفر عليه السلام حديثاً طويلاً في باب ذمّ الدنيا والزهد عنها، ذكر فيه:(ياجابر، الآخرة دار القرار، والدنيا دار الفناء والزّوال، ولكن أهل الدنيا أهل غفلة، وكان المؤمنون هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يصمّهم عن ذكر الله جلّ اسمه! ما سمعوا بآذانهم، و لم يعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم، ففازوا بثواب الآخرة، كما فازوا بذلك العلم)[4] .

---

[1] أصول الكافي، ج2، ص129، ح8.

[2] م.ن، ج2، ص131، ح12.

[3] الكليني. هو محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، ولد في كلين فشابويه بالريّ. قال العلامة الحلي:"الكليني مضمون الكاف، مخفف اللام، منسوب إلى كلين قرية بالريّ وإن هناك رأي آخر في مكان مولده باعتبار إن اسم قرية (كلين) تشترك فيه عدّة قرى في العراق وإيران.

وكان هو شيخ الشيعة في وقته بالريّ ووجههم، ثم سكن بغداد، وقد انتهت إليه رئاسة فقهاء الإمامية في أيام المقتدر، وقد أدرك زمان سفراء الإمام المهدي عليه السلام

وقد ترك آثار وتآليف عديدة، منها:

1- كتاب تفسير الرؤيا.

2- كتاب الرد على القرامطة.

3- كتاب الرسائل، رسائل الأئمة عليهم السلام

4- كتاب ما قيل في الأئمة عليهم السلام من الشعر

5- كتاب الكافي.

ويعدّ كتاب الكافي من أهم آثار الشيخ الكليني، وقد يسّر الله له تأليف هذا الكتاب الكبير في عشرين سنة. قال الكليني: وقلت: إنك تحبّ أن يكون عندك كتاب كاف، يجمع من جميع فنون علم الدين، ما يكتفي به المتعلم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين، والعمل به بالآثار الصحيحة، عن الصادقين عليهم السلام

مقدمة كتاب أصول الكافي، الدكتور حسين على محفوظ.(باختصار)

[4] الكافي، ج2، كتاب الإيمان والكفر ص132- 134

وفيه إشعار بأن المعنيّ بالفقه في عرف الأئمة(عليهم السلام) ليس صناعة يعرف بها مثل دقائق الخلافات، وتفريعات الطلاق والرهان، ونظائرها من أحكام المعاملات؛ بل العلم الذي يوجب الاستغراق في أمر الآخرة، وأحوال الباطن، والإعراض عن الدنيا بالكليّة.

يؤيد هذا ما رواه الشيخ الجليل ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني، مسنداً عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام) :(الا أخبركم بالفقيه حقّ الفقيه؟ من لم يقنط النّاس من رحمة الله، و لم يؤمنهم من عذاب الله، و لم يرخص لهم في معاصي الله، و لم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره. ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيه تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر)[1] انتهى الحديث.

فتأمّل فيه بعين الإنصاف! حتّى يظهر لك أن أيّ العلوم هو المنعوت بهذه النعوت.

وما رواه أيضاً عن هشام، أنه قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) في حديث طويل كان في آخره: (يا هشام! نصب الحقّ لطاعة الله، ولا نجاة إلاّ بالطاعة، والطاعة بالعلم والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل يعتقد، ولا علم إلاّ من عالم رباني، ومعرفة العلم بالعقل. يا هشام! قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود. يا هشام! إنّ العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، و لم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا. فلذلك ربحت تجارهم)[2].

ثم قال(عليه السلام)فيه:(واعلم يا جابر! أنّ أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم لك معونة تذكر يعينوك وإن نسيت ذكّروك، قوّالون بأمر الله، قوّامون على أمر الله تعالى، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربهم، ووحشوا الدنيا لطاعة مليكهم، ونظروا إلى الله عز وجلّ وإلى

---

[1] الكافي، ج1 – كتاب فصل العلم،ص36.

[2] أصول الكافي ج1، كتاب العقل والجهل، ص17.

محبّته بقلوبهم)[1] ثم قال(عليه السلام) :(فانزل الدنيا كمنزل نزلته، ثم ارتحلت عنه، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء. إني إنما ضربت لك مثلاً، لأنها عند أهل اللبّ والعلم بالله كفيء الظلال)[2]

وفي خبر أيضاً من طريق أهل البيت(عليهم السلام):(الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء، أقاما فيه، وإلاّ ارتحلا)[3]

وعن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر حديث روي عنه:(ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود والسّرور[4]، والتزوّد لسكني القبور، والتأهب ليوم النشور)[5]وروى عن أبي ذرّ رضي الله عنه! عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:(من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام)[6].

---

[1]أصول الكافي، ج12، كتاب الإيمان والكفر، ص133

[2]ن.م.

[3]تذكرة الموضوعات، الفتني ص190.

[4] وفي نسخة بحار الانوار من دون كلمة السرور.

[5] بحار الأنوار،م.س، ج74،ص 176.

[6]بحار الأنوار، م س، ج74، ص176.

فصل

في وصايا بعض الأنبياء والأولياء

قال عيسى عليه السلام لبعض أصحابه: "صم عن الدنيا، واجعل فطرك الموت"[1]! وقال له الحواريون ذات يوم: "يا روح الله! نحن نصلّي كما تصلّي، ونصوم كما تصوم، ونذكر الله كما ذكرته، ولا نقدر [ان] نمشي على ذات الماء كما تمشي أنت. فقال: أخبروني كيف حبّكم للدنيا؟ قالوا: إنا نحبّها. فقال عليه السلام : إن حبّها يفسد الدين، لكنّها عندي بمترلة الحجر والمدر"[2].

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك! فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء!

أجتاز بعض العارفين في سياحته براهب، فقال: كيف الطريق إلى الله؟ قال الراهب: في خلاف الهوى. قال: فما خير الزّاد؟ قال: التقوى.

وقال بعضهم: مثل العالم الراغب في الدنيا الحريص في طلب شهواتها، كمثل الطبيب المريض نفسه المداوي غيره، فلا يرجى منه الصلاح، فكيف يشفي غيره!

سأل بعض الأولياء لله: ما سبب الذنب؟ قال سببه النظرة، ومن النظرة الخطرة. فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله، ذهبت، وإلاّ امتزجت بالوساوس، فيتولّد منها الشهوة.

وقال بعضهم من أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه، أظهر نفاقاً على نفاق.

واستوصى بعضهم بعضاً، فقال آمرك بخمس، وأنهاك عن خمس: آمرك باحتمال أذى الخلق، وترك أذى الخلق، وإدخال الراحة على الإخوان، وأن تكون أُذناً لا لساناً، وأن

---

[1] بحار الأنوار، المجلسي، ج70، ص48، 19.

[2] ميزان الحكمة، ج1، ص404.

تكون مع الناس على نفسك؛ وإهاك عن معاشرة النّساء، وحبّ الدنيا، وحبّ الرئاسة، وعن الدعوى، وعن الوقوع في رجال الله.

قال بعضهم: الذي قطع العباد عن رهم، وقطعهم عن أن يرزقوا حلاوة الإيمان، وعن أن يبلغوا حقائق الصدق والعرفان، وحجب قلوهم عن النظر إلى الآخرة وما أعدّ الله فيها لأوليائه وأعدائه، حتى يكونوا كأهم مشاهدون له؛ هو يهاوهم عن أحكام ما فرض عليهم في قلوهم وأسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وبطوهم وفروجهم. ولو وقفوا على هذه الأشياء وأحكموها؛ لرزقهم الله من حسن معونته، وفوائد كرامته، ما يعجز أبداهم وقلوهم عن احتماله.

سئل بعض أهل الله عن أعون ما يجده العون على تسكين الشهوة؟ فقال: الصيّام بالنهار، والقيام بالليل، وخوف الشهوات، والتغافل عنها، وترك محادثة النفس بذكرها.

فصل

في وصايا فيثاغورس نقلتها من الرسالة الذهبية [1]

ان مهلكات النفوس ثلاثة أجناس:أولها، الشرك وسائر أنواعه، والظلم وسائر أنواعه، والتلذذ وسائر أنواعه. ولجميع هذه الأجناس وسائر أنواعها كلها أصل واحد وهو حبّ الدنيا.

فتحرّزي يا نفس من الدنيا، وأعرضي عنها، وانظري إليها بعين الخائف الوجل منها؛ وكوني منها كالطائر الذي عرف الفخ المنصوب، وفطن له، فانحرف عنه وحذره [2].

[1] تم مراجعة وتصحيح نص الرسالة من كتاب الأفلاطونية المحدثة، باعتبار ان الموجود في المتن الذي ذكره صدر المتألهين فيه أختلاف كبير مع الموجود في كتاب الأفلاطونية المحدثة للدكتور بدوى

[2] بدوى، عبد الرحمن، الأفلاطونية المحدثة، ص 56.

يا نفس إن مبدع الأشياء ومبدئها ومنشائها، جلّ جلاله تقدّست أسماؤه صنعك وأبدعك وجعلك ذات التصوّر والتمثّل: فأمّا التصوّر، فتصوّرك الشيء على حقيقة ما أبدعه مبدعه. وأمّا التمثّل، فتمثّلك ما خفي عنك معناه من عالم العقل بما شاهدته في عالم الحسّ، مثلاً بمثل، ومعنى بمعنى. كما أن تدلّ ذات الصور المطبوعة في الشمع على معناها وحقيقتها في الطابع، وكما تدلّ الصورة الممثّلة في الطابع على معنى حقيقتها في نفس ممثّلها ومصوّرها، وكما يؤثر الماء في الرمل والطين معاني حركاته وتموّجه.

فاكتفي مني يا نفس بحقيقة ما أوردته إليك، واعلمي أن جميع ما أنت مشاهدة في عالم الكون والفناء من الصور والصنع، إنما هي تمثيلات وتشكيلات معان، هي في عالم العقل بالحقيقة غير زائلة ولا بائدة. وما في العالم الروحاني فملاحظته بالمشاهدة العقلية. فيجب على كل روحاني وجسماني عند بلوغه الكون الجزئيّ أن يتيقن بالعقل أنه حقيقة غير زائلة. وإنما يصوّر العقل لذاته في الهيولى، ثم ينظر بذاته إلى معاني ذاته وصورها، فيلتذ بذلك إعجاباً منه بذاته. إذ اللذة العقلية هي مما يناله العقل من ذاته بذاته لا بشيء خارج عنه ولا بعرض عارض بل من ذاته لذاته. وهذه هي اللذة الحقّ الدائمة الأبدية.

يا نفس تيقني، واقتني معرفة الأشياء بآنيّاها وماهياها، ولا تحتفلي بمعرفة كيفيّاها وكميّاها! لأن المطلبين الأولين بسيطان أزليان، ولا وسيط بين النفس وبينهما، وأن المطلبين الآخرين مركّبان زائلان زمانيان ومكانيان

واعلمي يا نفس أن علم التركيب لن ينفصل معك مجرّداً محمولاً في ذاتك عند مفارقتك الحسّ. فخذي علم البسيط، وذري علم المركب[1].

يا نفس إنما رتّبت الدنيا على هذه المعاني المختلفة التي هي خير وشرّ، ونعيم وبؤس، وشدّة ورخاء، تنبيهاً للنفس وإيقاظاً لها، ومثالات تعمل عليها. فتكتسب بذلك العقل

[1] ن. م.، ص56- 57.

المضيء المنير، والعلم الثابت الذي هو الحكمة والمعرفة بحقائق الأشياء. وإنما وردت إليها النفس لتعلم وتخبر. ومن ورد إلى محل من المحال، ليعلمه ويخبره ويعرف حاله، ثمّ ترك العلم، والبحث، والاختبار، وتشاغل بالنعيم والتّلذّذ؛ فقد ضيّع مطلبه، ونسي أربه الذي قصد له[1].

يا نفس! إنما هذه الدنيا دار علم وبحث واختبار للمتأملين فتأملي يا نفس جميع معانيها وصورها وصنيعها وتشكيلاتها المحسومة السائلة البائدة الأعراض والأشخاص واعلمي إنما هي مثالات الصور الخفية والصور والتشكيلات الحقيّة الدائمة الأبدية.

وبالجملة، يا نفس فإنه ليس في عالم العقل نوع إلاّ وشكله ظاهر في كيان جريان الطبيعة. وكذلك جميع ما هو موجود في عالم الكون إنما هي دواعٍ ومثالات: فلذاته الكاذبة الزائلة تدل على اللذّات الصادقة الدائمة؛ وصوَره المنحلّة الزائلة السائلة الهالكة تدل على الصور الثابتة الباقية؛ وإن اختلاف جميع ما في الحسّ وزواله يدل على اتفاق جميع ما في العقل وبقائه وثباته.

فما دمت يا نفس في عالم الطبيعة فلا تطلبي منه لذّة، ولا تشاغلي بمحسوس عن التعلّم والتصور والتمثل والبحث والاستكشاف لجميع ما قصدت له من مطالبك وآرابك، لتكفي العودة والرجوع إلى اكتساب العلم.

فإذا تشوّقت يا نفس إلى اللذّات والسرور الدائم فانزعي لباسك الكدر، وهذّبي أوزار جسمك، وتنقي من الأشياء المخالفة لجوهرك، ثم صيّري إلى عالم اللذّات الحقيقية والسرور الدائم، والبسي حللك الذاتية، وتصوّري بصورك الجوهرية الدّائمة الباقية التي انت مشاهدة لتشكيلاتها، ومثالات أنواعها وأنت في عالم الكون والفساد[2].

[1] ن. م. ص60.
[2] ن. م. ص 61- 62.

يا نفس إن المبدع جلّ اسمه كالناطق الفائض بما عنده من المعاني والجواهر كلها للمستمعين منه. وليس كل المستمعين يفهمون عن المتكلم، بل منهم من يحتاج إلى ترجمان يؤدّي إليه، ووسيط يتوسط بين الناطق والسامع. وذلك لضعف تصوّر السامع عن فهم القول. فلا تكوني يا نفس، من الجواهر المحتاجة إلى الوسائط: فإن الترجمان ربما خان في تعبير الكلام، وغيّر القول وحرّفه.

فاخرجي يا نفس من رتبة العجوميّة إلى رتبة الفصاحة، وأفتني يا نفس العلم قبل العمل، ومعرفة الثمرة قبل غرس الشجرة، ولتحققي بالقول الثبوت على العلم قبل العمل، فإن لك في ذلك راحة كبيرة وفائدة عظيمة[1].

واعلمي أنك راجعة إلى مبدئك الذي هو أصلك، فتهذّبي من أوساخ الطبيعة وأوزارها المبطئة بك عن سرعة الرجوع إلى عالمك وأصلك.

يا نفس إنّ عالم الطبيعة وهو محلّ الفقر والخوف والذّل والحزن، وهذا عالم العقل وهو محلّ الغنى والأمن والعز والسرور. فقد شافهتهما جميعاً وشاهدتهما فتخيّري على خبرة منك![2].

يا نفس متى أعطتك الدنيا شيئاً فلا تأخذيه منها، فإنها ربما تطربك لتضحك قليلاً، وتبكيك كثيراً. وهذا الفعل منها فيك إنما هو بالطبع، لا بالتكلّف. ولن يقدر الشيء الطبيعي أن يكون غير ما هو. فأمّا النفس فلأنها حيّة عاقلة مميّزة فلها الاستطاعة على أن تنخدع، وعلى أن لا تنخدع. فإذا شافهت أفعال المخادع لها ثمّ انحرفت عن خداعه وحذرته. فقد نجت من سوء العقاب. وإذا قبلت المخادعة والمحال، فإنما ذلك بهواها وشهواتها. وكما أنه يمكنها أن تقبل الخداع. فكذلك يمكنها أن لا تقبل ذلك، فهي مالكة الاستطاعة إن شاءت تحرّزت من الهلكة، وإن شاءت دخلتها.

---

[1] ن. م. ص 64.
[2] ن. م. ص 66- 67.

فانظري يا نفس إلى هذه الوصايا، وتدبّري ها، لتفوزي بالنجاة إلى دار البقاء، ومحلّ النّور والصّفاء، مع السّادة الأخيار الأنبياء الأبرار[1].

يا نفس تطالبين بالاستقرار وأنت في عالم الكون؟ واي استقرار يوجد في عالم الكون! إن الزق[2] ما دام على ظهر الماء فلا قرار له، ولا طمأنينة ألبتة. وإن استقر وقتاً ما، فإن ذلك بالعرض، ثم يعود الماء إلى اضطرابه وتموّجه بما على ظهره، وإنما يستقر ذلك الزق إذا أخرج من الماء، وأُعيد إلى الأرض التي هي ينبوعه وأصله المشاكلة له بالكثافة والثقل، فحينئذ يستقر به القرار. وكذلك النفس ما دامت في جريان الطبيعة فلا قرار لها، ولا راحة ولا طمأنينة لإتعابه إياها، وخذلانه إياها، وقطعه لها. فإذا عادت النفس إلى ينبوعها وأصلها استقرت وظفرت بالراحة، واستراحت من شقاء الغربة وذلها[3].

يا نفس إنّ هذا المركب الذي قد ركبته مَن في هذا البحر العظيم إنما هو أمياه [مياه] تجمد، وبالعَرَض تركّب. ويوشك أن تطلع عليها الشمس فينحلّ إلى عنصره، ويتركك جالسة على وجه الماء، إن أمكنك الجلوس، تطلبين مركباً، ولا مركب تجدين إلاّ ما اكتسبته من جودة السباحة وحسن التهدّي[4].

يا نفس أن هذا المركب الصافي النقيّ يؤدي البصر إلى سائر ما في ذاته. وإذا شابه الكدرُ والوسخ حجب النظر عن إدراك سرائر الأشياء المستكنّة فيه. وكذلك نور الشمس إذا أشرق على الأشياء كان البصر [النظر] مدركاً لها بالحقيقة. فإذا عرض فيه البخارات والدخان والغبار حيل بين البصر وبين إدراكه تلك الأشياء. وكذلك أنوار العقل اللطيفة الشريفة إذا امتزجت بالأشياء الجلفة [الخلقة] الكثيفة المظلمة كدّرها أعاقتها عن إدراك ما

---

1 ــ ن. م. ص 111.

2 ــ في نسخة أخرى: الزورق.

3 ــ ن. م.، ص 68.

4 ــ ن. م.، ص 69.

في ذاهّا من الصوّر والأشكال، وأعدمتها التصوّر العقلي. فحينئذٍ تبقى النفس فقـيرة مـن مقتنياهّا، جاهلة بعلوماهّا، عادمة حُسن التهدّي إلى طريق نجاهّا.

يا نفس ليس الزهد في الدار ترك تزويقها وإصلاحها مع الرضا بالمقام فيهـا. وإنمـا الزهد التّام الرّضا بالتحول عنها، والإشتياق إلى النقلة منها.

وكذلك يا نفس: ليس الزهد في عالم الطبيعة، ترك لذاته وشهواته مع الرضا بالمقـام فيه. وإنما الزهد بالحقيقة شدةُ الشوق إلى مفارقته والراحة منه، ومن معاندتـه ومضـادته، واختلافه وضلمه.

فينبغي لك يا نفس أن تعتقدي الشوق إلى الموت الطبيعي. والرضا بـه، وتحـاذري الفشل عنه. فبالخوف منه تكون الهلكة، وبالشوق إليه تكون السلامة.

أليس تعلمين يا نفس أن بالموت الطبيعي تنتقلين من الضيق إلى السعة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الحزن إلى السرور ومن الخوف إلى الأمن، ومن التعب إلى الراحة، ومـن الألم إلى اللذة، ومن المرض إلى الصحة ومن الظلمة إلى النور[1].

يا نفس إنّ القمر نيّر ما دام يرد إليه نور الشمس، فإذا عرض له أن يحول بينهما ظلّ الأرض انخسف و؟لم. فكذلك النفس نيّرة مضيئة ما دام يرد إليها نور العقل، فإذا توسطت أسباب الكون والفساد حيلاناً بينهما عدمت النفس نورها فانكسفت وأظلمت. وكما انه ما دامت الأرض في وسط العالم لن يعدم القمر الخسوف، فكذلك النفس ما دامت ملازمة الطبيعة لن تعدّم الظلمة والأذى. فتبيّن من هذا الشرح أن راحة النفس في مفارقتها للطبيعة[2].

يا نفس إن العقل ليس هو شيء غير التصور والتمثل. واي نفسٍ عـدمت التصـور والتمثل فقدت ذاهّا، ومَنْ فقد ذاته فهو ميّت.

---

1 ــ ن. م.، ص 70 ــ 71.
2 ــ ن. م، ص 73.

يا نفس إن التصور والتمثل هو العقل الذي هو الحياة الدائمة والتلّذذ، والتنعم بالدنيا هو الموت الدائم. فلا تؤثري مزايلة الحياة الدائمة على مفارقة الموت الدائم فتهلكي.

يا نفس ما بال سائر الجواهر الطبيعية غير العاقلة متحركة بـالطبع إلى عناصـرها ومواضعها الخاصة بها؟ وبحقٍ أن كل جوهر إنما شرفه وعزّه أن يرجع إلى عنصره ويكـون ينبعه ومحلّه وأهله[1]. فإذا كانت هذه الأشياء التي ليس لها عقل ولا تمييز، وإنمـا حركتـها حركة هيام وطبع به يتحرك كلّ واحدٍ منها إلى حيث شرفه وعزّه وقوّته، ويـأبى الغربـة والبعد عن وطنه ومحله.

فما بالك أنت يا نفس، وأنت ذات العقل والتمييز، تـأبينَ الرجـوع إلى وطنـك وعنصرك الذي هو شرفك وعزّك، وتكرهين ذلك، وتحبّين البعد عـن أصـلك ونبعـك، وتختارين اللبوث في الأرض الغريبة، ومقاساة الذل والهوان[2].

يا نفس إني تأملتُ اللذات كلها، فلم أجد ألذّ من ثلاثة أشـياء، وهـي: الأمـن، والعلم، والغنى. ولكل واحد من هذه الأشياء، أصل وينبوع يحرّكه: فمن طلـب العلـم فليذهب إلى معنى التوحيد، فإنه بالتوحيد تكون المعرفة والعلم والتحقيـق، وبالإشـتراك [وبالإشراك] تكون النُكرة، والجهل والشكّ. ومَن طلب الغنى فليذهب إلى رتبة القنـوع، فإنّه حيث لا قنوع لا غنى. ومَن طلب الأمن فليعتقد التمني لمفارقة عالم الطبيعـة، وهـو الموت الطبيعي[3].

يا نفس أن النور يأتي من قِبَل العقل، والظلمة تأتي من قِبَل الجسد. فينبغي لك يـا نفس ألاّ تأسفي على فراق الجسد. لشدّة إضراره بك، وخذلانه إياكِ، وإعاقته لكِ علـى

1 ــ ن. م، ص 73 ــ 74.
2 ــ ن. م، ص 74.
3 ــ ن. م، ص 75.

إدراك معلوماتكِ الدائمة الحقيقية، بل ينبغي لك يا نفس أن تأسي على مفارتكِ عالم العقل النوري لكثرة منافعه لكِ، ومساعدته إيّاك على نيل مطلوباتكِ.

فانصرفي، يا نفس. عن الطبيعة زاهدةً فيها، قالية لها، خائفة منها. حذرةً من عواقبها فازعة إلى عالم العقل الذي هو أصلكِ ونبعك ومعدن شرفك وعزّك، تحيي بذلك الحياة الدائمة، وتستكملي السعادة التامة الكاملة[1].

يا نفس إني أرى كل شكل يحنُّ إلى شكله، وكل نوعٍ ينضاف إلى نوعه. فينبغي أن تكوني بهذا المعنى عارفة!.

يا نفس أنت صافية فلا تصحبي كدراً، وأنت نيّرة مضيئة فلا تصحبي مظلماً، وأنت حيّة ناطقة فلا تصحبي ميتاً أبكم، وأنت عالمة عادلة فلا تصحبي جاهلاً جائراً، وأنت طاهرة نقيّة فلا تصحبي دنساً، وأنت متصرّفة بالتمييز والإرادة العقلية فلا تصحبي المتحرك حركة الهيام والإلتباس والتشويش[2].

يا نفس ما أشغل الغريق في الماء عن صيد السمك! وكذلك ساكن الدنيا ما أشغله عن مقتنياها ولذّاها بخلاص نفسه إن فطن لسوء وقوعه فيها!.

يا نفس يكفيك وأنت في عالم الحس ما تقاسينه من آلاتك وأضدادها وأوساخها، فلا تضيفي إلى آلاتك شخصاً آخر، فتكوني كالغريق المرهن في البحر قد حمل على عاتقه حجراً، وما أرى أن غريقاً ينجو من البحر مجرداً بنفسه، فكيف إذا حمل على عاتقه آخر غيره[3].

وأعلمي يا نفس أن كل شيء يذهب وينتقل إلى العُلاَ ينبغي أن يكون خفيفاً صافياً

---

1 ــ ن. م، ص 76 ــ 77.

2 ــ ن. م، ص 78.

3 ــ ن. م، ص 79.

نقياً ليكون أسرع لممرّه إلى غايته، وأن كل شيء يذهب نحو السفل ينبغي أن يكون ثقيلاً كدراً، وعلى حسب كدره وثقله تكون سرعة ممرّه إلى غايته[1].

يا نفس إنما لك أخاب، وإياك أشير، وإياك أريد! إنما الطبيعة زوجتكِ، والعقل أبوك. وإنّ لطمة من أبيك خيرٌ من قُبلةٍ من زوجتكِ...

يا نفس: إنه بطاعتك للعقل تحيين وتشرفين، وبعصيانك إياه وطاعتك للطبيعة تموتين وتُنحسين. فتصوري يا نفس حقيقة هذه المعاني وتمثلي بها توفقي للسعادة وتستكملي الرشاد[2].

فما بالك يا نفس تؤثرين أن تسكني في المساكن المظلمة الخربة الوحشية، وتتركين المساكن النيّرة المضيئة الآنسة؟! فحتى متى تكونين من عُمّار الخرابات الوحشية، وتكون منازلك الأولى الحقيّة معطلة منك خالية؟!

يا نفس! تيقّني ما أقوله وتدبّريه: إن كنتِ متحققة لشيءٍ غير ما تدركينه بالحواس الخمس فقد توجّهتِ إلى طريق نجاتك. وإن كنت لم تتحققي شيئاً من الأشياء إلاّ ما شاهدته ببصر الجسد وسمعه وذوقه وشمّه ولمسه، فأنت إذن مُوقَفة على طريق العطب ومقاساة العذاب[3].

يا نفس! إنّ من أصعب الأشياء وأشدّها امتناعاً أن تعمل صناعة الصياغة بأداة الفلاحة، أو صنعة التجارة بأداة الخياطة. ولكل صنعة آلة [أداة] لن يستوي عملها إلا بها لا بغيرها. وإذا كان الإنسان عارفاً بجميع الصنائع ويستعمل آلاتها جميعاً فقد ينبغي له إذا أراد أ يعمل الخياطة أن يرمي من يده أداة الفلاحة، ويأخذ للخياطة آلاتها [أداتها] التي تصلح

1 ــ ن. م، ص 80.

2 ــ ن. م. ص 82.

3 ــ ن. م، ص 88 ــ 89.

لها... وكذلك يا نفس ينبغي لمن أراد أن يدرك عمل الخير أن يترك من يده آلة الجهل والشر، وهو حب الدنيا والرغبة فيها. فمتى هممتِ يا نفس بطلب العلم والخير فدعي من يدك آلة الشر... وخذي للعلم والخير آلاهما...

واعلمي أن حب الدنيا والخير لا يجتمعان في قلبٍ أبداً. فتصوري يا نفس حقيقة هذا وأدركيه ببصر عقلك.

يا نفس! إنه بالعلم الحقيقي تدركين ببصرك اتصالك ببرائك، ومناسبتك إياه، فتلتذي بذلك لذة الحق. وأنه بالجهل تعدمين ذلك وتنكرينه، وذلك بعماك وظلمتك[1]...

يا نفس! إنّ هذا عالم الطبيعة قد وردتِه واختبرته. فهل اختبرت منه شيئاً غير مبصرات موحشة، ومسموعات مفزعة مُبهِته، وطعوم مؤلمة مضجرة، وروائح كريهة منتنة، وملموسات نجسة دنسة؟ فلمّا وردت إلى هذه الأشياء اغتبطت بها إعجاباً، وهوى وعشقاً، ونسيت معانيك الذاتية الشريفة. فلما عرفتِ خطاك وزللكِ أردتِ أن تشركي معك في خطئك غيرك، وتحيلي الذنب على سواكِ. هيهات! هيهات!.

يا نفس! ليس الذنب إلاّ ذنب مَنْ جَناه، وليس الخطأ إلاّ خطأ من أخطأه. فتلاقي يا نفس خطأك وزلَلَك، فإنك كما وقعتِ فيما تكرهين بهواكِ وشهوتكِ، فكذلك تتخلّصين منه بهواكِ وشهوتكِ[2].

يا نفس! إن النّار تُطفَأ ونار الشهوة لا تُطفأ. والأوجاع تعرض للبدن. ثم تزول [فتزول] فيستراح منها، وأوجاع الشهوة لا يُستراح منها. إلاّ أن تداويها بالعقل، ودواؤها تركها، واقتناء الصبر عنها، لأن حياة الشهوة مواصلتها، وموتها مقاطعتها والصبر عنها[3].

يا نفس! إنّ مَنْ عَفَّ عن شهوات الدنيا عَفَّت مصائب الدنيا عنه، وخرج من الدنيا

1 ــ ن. م، ص 91 ــ 92.
2 ــ ن. م، ص 98 ــ 99.
3 ــ ن. م، ص 101.

سليماً رابحاً، وربحه قربُه من الله. ومَنْ أسرع إلى شهوات الدنيا أسرعت مصائب الدنيا إليه، وخرج من الدنيا سقيماً خاسراً، وخُسرانه بُعْدُه من الله[1].

يا نفس! ينبغي أن تتيقني معرفة ذاتك وما لها من المعاني والصور، ولا تتوهمي (تتوهي) أن خارج ذاتك شيئاً مما يجب أن تطلبي علمه، بل جميع معلوماتك كلها معك وفيك، فر تتوهي [تتوهمي] بطلبتك ما هو معكِ، فإن كثيراً من الناس يكون معه شيء وينسى أنه معه فيطلبه خارجاً عن ذاته ويتوه ثم يأتيه الذكر فيذكره، ويجده مع نفسه لا خارجاً عنها.

فتيقني يا نفس: أنه لا شيء من الأشياء المعلومة والموجودة وجوداً دائماً أبدياً خارج عنكِ البتة. وإنما الشيء الخارج عنك هو ما امتاز من كدرك وثقلك في الابتداء الأوّل وهو الشيء القابل للأعراض الجاري مع الكون. ولا شيء آخر يوجد البتة غير هذا.

فارجعي يا نفس إلى ذاتكِ، فاطلبي جميع معلوماتك فيك لا خارجاً عنكِ، ولا تخرجي عن ذاتك فترجعي إلى كدرك تطلبين علم ما فيه فتقعي في تيار الاختلاف، وتتلاعب بك الأعراض كتلاعب البحر الهائج بما فيه من السفن[2].

فصل

في ذكر طرف يسير من وصايا الحكماء ومواعظهم

إن الذي يجب على كل إنسان يريد النجاة من العذاب الدائم، والعقاب الأليم،

هو أن يترع عن نفسه القشور التي تتعلّق عليها من صحة البدن، ويخلع اللباس الذي أحاط بها من الأمور الطبيعة والصفات الجسمانية، وتجلوا عنها الصدى التي تركب عليها من أخلاط البدن من سوء الأخلاق، وتراكم الجهالات، وفساد الآراء، ويمحي عنها هذه

1 ــ ن. م، ص 101 ــ 102.

2 ــ ن. م، ص 103 ــ 104.

الأشياء، ليصفو له اللبّ والمخ. وهو جوهر نفسه النيّرة الشفافة الروحانية، التي مدحها الله تعالى بقوله:﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[1]. وقوله تعالى:﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** ﴾[2].

يعني به روح المؤمن إذا فارقت الجسد، وقطع تعلّقها بسبب أعمالها الصالحة عن الأعراض الكثيفة الدنياوية، واللّذات البدنيّة؛ صعد إلى منازل رفيعة جنانيّة، فتكون سائحة هناك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأما أرواح الكافرين والفاسقين، لأجل تعلّقها بالأمور الكثيفة الدّنسة الظلمانية، فلا يصعد بها إلى هناك، بل تهيم وتهوى في هاوية البرزخ إلى يوم يبعثون. وإليها الإشارة بقوله تعالى:﴿... **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾[3]. لأنه لا يليق لتلويثهم بالنجاسات الدنياوية، والقاذورات المادّية، ذلك المكان المطهّر المقدّس العالي الشريف، الذي هو محل الصادقين والمطهرين، كما لا يليق بالأوساخ من الناس مجلس الملك والسادة الكرام.

فمن أراد أن يعرج بروحه إلى عالم المقدسين ودار الصادقين، فليجتهد قبل ذلك، ويغسلها من دون الشهوات الرديّة، ووسخ الآراء الكاذبة، والعقائد الباطلة في حق الله وملكوته، ويخرجها من ظلمات الجهالات المتراكمة، ويجنّبها الأعمال السيئة، ويلبسها لباس

[1] ابراهيم 24
[2] فاطر - 10
3 ــ سورة الأعراف، 40 ــ 41.

التقوى والمعرفة، ويمنعها عن الانهماك في الشهوات الجرمانية، والاغترار باللذّات الجسمانيّة.

ومما يجب أن يُعلم ويعتقد به كل واحدٍ: أن الإنسان لما كان جملة مجموعة من بدن جسماني ونفس روحاني، وهما جوهران متضادّان في الأحوال، متباينان في الصفات، مشتركان في أفعال عارضة وصفات زائدة؛ صار الإنسان من أجل بدنه المشارك به سائر البهائم والحشرات، مريداً للبقاء في الدنيا، ومتمنيّاً للخلود فيها؛ ومن أجل نفسه الروحانية التي تشاترك بها الملائكة المقدسين، طالباً لمعرفة الله. واللذّات الأخروية، متمنيّاً للبلوغ إليها والخلود فيها.

وهكذا أكثر أمور الإنسان، وتصرّف أحواله، متباينة متضادة، كالنفع والضر، والخير والشر، والعلم والجهل، والإيمان والكفر، والشهوة والعفّة، والكرم والبخل، والشجاعة والجبن، وما شاكلها من الأفعال، والأقوال، والأخلاق المتضادة المباينة، التي يظهر من الإنسان لهذين الجهتين، أي جهة الجسد وجهة الروح.

فمن غلب عليه الجسمانية والسفل، ظهر منه الميل على الدنيا والشرور المختصة بالكون والفساد فيها؛ ومن غلب عليه الروحانية، ظهر منه الرغبة إلى الآخرة وحب معرفة الله، والخيرات المختصّة بالكون مع الله، وللاستعداد للكون في الدار الآخرة.

فمن الصفات المختصة بالبدن المجرد، هو أنه جوهر ظلماني ثقيل كدر ذو طبائع ممتزجة متفاسدة، وشهوات مختلفة فانيّة منحلّة، ولذات خسيسة دنيّة متزائلة، راجع إلى العناصر بعد انحلاله واضمحلاله، وترك النفس استعماله الذي هو موته وزواله.

وأمّا الصفات المختصة بالروح المجّردة، فهي أنها جوهرة روحانية سماوية نورانية، وأمر رباني بالذات، علاّمة بالقوّة، قابلة لمعرفة الله تعالى ومجاورة المقدّسين المقرّبين، فعّالة في الأجسام، ومستعملة لها، ومتممّة إيّاها إلى وقت معلوم.

ثم أنها تاركة لها، راجعة إلى عنصرها ومعدنها، كما كانت بديًا، أما بربح وغبطة، أو بندامة وخسران، وحسرة وحرمان؛ كما في قوله تعالى:﴿ ... **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ**﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿... **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾[2].
وقال سبحانه:﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾[3].

وكفى بهذا لمن كان له حياة عقلية زجراً، ووعيداً، وتهديداً، وتوبيخاً، وتذكيراً فاذكر وتنبه يا حبيبي! إن كنت ذا قلب يفقه المعاني من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وأعيذك أن تكون من الذين ذمّهم ربُ العالمين بقوله تعالى: ﴿... **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[4] ولما تحقق وتبين إن أكثر أمور الإنسان مثنويّة متضادة من أجل انه جملة مجموعة من جوهرين متباينين، يكون حكمه في الآخرة لِمَا يغلب عليه؛ صارت البقية أيضاً نوعين: جسمانية كالمال ومتاع الدنيا، من أكل الشهوات، وطلب الرئاسات، والجاه في أعين الناس، والشهرة عند الخلق؛ وروحانيّة كالعلم، والديّن، والتقوى، والورع من محارم الله.

ومعظم النوع الأول المال، لأن به يتمكن الإنسان من تناول الشهوات، وتحصيل الترفعات في الحياة الدنيا.

ومعظم النوع الثاني العلم والدين، إذ بهما يصير ذا منزلة عظيمة عند الله في الآخرة، ويتمكن من المآرب الأخروية والسعادات الآجلة. فقنية الروح العلم، كما أن قنية الجسد

1 ـ الأعراف، 29 ـ 30.
2 ـ الأنبياء، 104.
3 ـ المومنون، 115.
4 ـ سورة الأعراف، 179.

المال. وبالعلم والدين تضيء النفوس وتزيد صفائها وإشراقها. كما أن بالأكل والشرب ينمو الجسد، ويسمن، ويغني من جوع. فلما كانت كذلك صارت المجالس اثنين: مجلس الأكل والشرب، واللهو واللعب، والغناء والرقص وطلب الشهوات، والمقاصد الخسيسة والمآرب الخبيثة، كمجالس متصوفة هذا الزمان، ومجمع رقصهم، وصفقهم، وتغنّيهم وتلذذهم؛ ومجلس العلم والحكمة، وسماع روحاني، ونقل معاني عرفانية، وكلمات حكميّة، ومواعظ دينية، وخطابات إلهامية، وأسرار إلهية، وأشواق عقلانيّة، من الأغذية الروحانية، والأطعمة النفسانية للأرواح والنفوس المتألّهة، التي لا تبيد جوهرها، ولا تقطع سرورها في الدار الآخرة. كما في قوله تعالى:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. وتلك الأطعمة والأغذية الروحانية، غير مدركة بإحدى الحواس الظاهرة، بل هي أسرار لا يمكن نيلها إلاّ بضمائر القلوب الزكيّة، كما في قوله جلّ ذكره: أُعدت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ[2].

ولما كانت المجالس اثنين، صار السائلون اثنين: واحد يسأل حاجته من غرض الدنيا، وإصلاح الجسد، وجرّ منفعة إليه أو دفع مضرّة عنه؛ وآخر يسأل مسائله من العلم والصلاح، وأمر النفس وخلاصها من جهالات الظلمات، ومنفعة للدين، طلباً لطريق الآخرة، واجتهاداً في الوصول إلى مجاورة الرحمان، وفراراً من العذاب الأليم، وفوزاً بالنعيم المقيم، وصعوداً إلى الملأ الأعلى، والسيحان في درجات الجنان، وحظائر القدس والروح والريحان المذكور في القرآن.

1 ــ سورة الزخرف ــ 71.

2 ــ ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي، ج4، ص 101.

خاتمة:

اعلموا أيها الأخوان السالكين طريق النجاة! إن هذه الرسالة ليس توبيخاً لرجل معين أو رجلين، أو تعرّضاً بحال واحد بعينه أو اثنين، من المتشبّهين بأرباب الكمال، المتزيّين بزي أهل الوجد والحال، المحاكمين عن تورّطهم بالشهوات، وقصور نظرهم كالنسوا والصبيان على اللذات، حكاية البالغين من الرجال، المقلّدين مع تحليّهم بحلية الناعمات في الحجال أقوال الأبطال.

بل غرضي التّنبيه والاعلام لمن له ذوق سليم وقلب صحيح، على فساد الزمان وانحراف أكثر الناس عن حالة السلوك إلى طريق العلم والعرفان، وفشوّ داء الضلال في القلوب والأذهان، إلى غاية يعدون البطالة والتعطّل في أمور الآخرة والدين، نهاية وجدان التقرّب في السلوك إلى رب العالمين؛ ويحسبون دعابة الشيطان، وغلبة الوسواس، واستيلاء الوهم بالأفكار الباطلة والخيالات الفاسدة، الناشئة من صرف العمر فيما لا يعني، من باب إلهامات الحق، وإشارات عالم الملكوت.

فذكرت جملة من مقامات السالكين طريق الآخرة، وصفاتهم وملكاتهم، وجملة من أوصاف أضدادهم البّطالين الطالبين للدنيا؛ ليكون المريد الصادق على بصيرة في اتّباع من يسلك سبيل الحق وطريق الصدق، ويتميّز عنده العارف الكامل المكمّل، عن الجاهل الضال المضلّ، وينفصل لديه العمى المنافق، عن البصير المدقق، والحبر الخبير عن العامي النكير. لئلا يضلّ في الطريق، ويؤدي أمره إلى الخسران المبين، بسبب اتباع الشياطين المفسدين، وطاعة المضلّين المعطّلين؛ الذين يجعلون الإنسان الذي يتبعهم حيناً من الأحيان بريئاً من أشغال الدنيا، واكتساب المعيشة، الذي فيه نوع إعانة للخلائق، و[حيناً] عريّاً من فرائض الدين، وتحصيل العلم واليقين، الذي به يحصل الفوز بالدرجات الأخرويّة، والقرب عند الخلائق.

وليكون فيما كرّرنا بيانه، من مذمّة الجهل وحب الدنيا، ومحمدة المعرفة وطلب الآخرة؛ حثٌّ للطالبين وترغيبٌ للسالكين، في تحصيلهم واكتسابهم للمعارف الإلهية والمعالم اليقينية، المنوّرة لقلوبهم في استكشاف الحق واليقين، ورفضهم واجتنابهم عن اللذّات الدنياويّة، والشهوات الجسمانية المكدّرة لنفوسهم، المظلِمة لقلوبهم، المترلة لأرواحهم مترلة البهائم والحشرات، المردية لها إلى أسفل السافلين، ومهوى المردة الشياطين.

[ومن تأمل] في فصول هذه الرسالة تأمّلاً شافياً مُمعِناً، وتفكّر في مقاصده وأصوله تفكّراً كافياً مشبعاً، ينبعث لا محالة منه، أن كان ذا فطرة صافيّة صحيحة خالية عن أمراض الجسد والفساد، وقريحة ذكيّة مستقيمة خالصة عن أقسام الجهل والعصبية واللداد؛ شوقٌ قويٌّ إلى إمعان الفكر والنظر في المعارف الحقة والإلهيات، والمطالب العاليّة والمعاني الكشفيّة الربوبيّة، التي بها يبلغ الإنسان من جهة تكميل القوّة العلمية إلى مرتبة الملائكة المقرّبين، وأهل الولايات والكرامات من أصحاب الدّين؛ ويحدث له حرصٌ شديد على تطهير القلب عن الدنيا والميل إلى زهراتها، وتغسيلُ الباطن عن درن الصفات الذميمة والملكات الرذيلة؛ التي بها يتيسر له من جهة تكميل القوة العملية، النجاةُ من مترل الشياطين، والخلاص عن درجة النازلين في مهوى السافلين، فيطير نفسه المتقويّة بجناحي العلم والعمل إلى جوار رب العالمين.

أما طريق العلم فبيّنا كيفية سلوكه مجموعة في الكتاب المسمى بالحكمة المتعالية الملقّب بالأسفار الأربعة، ومتفرقة في مواضع من كتبنا ورسائلنا.

وأما طريق العمل فتفاصيل الأعمال مستنبطة من كتاب الله وأحاديث نبيه وأوليائه الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين من اليوم إلى يوم الدين! استنباطاً بالأفكار العقلية والأنظار العلمية، كما أن تفاصيل العلوم مستنبطة من الكتاب والأحاديث، استنباطاً بالأطوار السرية، والأذواق التألهية، [التي] هي فوق طور الفكر والنظر بمقدمات المجاهدة، وأوضاع السلوك لسبيل الرياضة.

وإذا بلغ الكلام إلى هذا المقام فلنختم هذه الرسالة ببيان شروط الإرادة، وفرائض المريد، ومقدمات سعيه واجتهاده.

اعلم أن من شاهد حقارة الدنيا وفنائها، وعلم عظم الآخرة وبقائها، اما بحسب تقليد إيمانيّ، أو بحسب عرفان قلبيّ برهانيّ، أصبح بالضرورة يريد حرث الآخرة، مشتاقاً إليها سالكاً سبيلها، مشتهيّاً بنعيم الدنيا. فإن من كان عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبقَ له رغبة في الخرزة، وقويت رغبته وإرادته في بيعها بالجوهرة. فمن ليس يريد حرث الآخرة طالباً للقاء الله، فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر إيماناً قلبياً، دون تحريك اللسان بالكلمتين، أو حديث القلب بهما. فإذن المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع منه عدم الإرادة، لاستيلاء الهوى والشهوات، وغلظة الحجب، وتراكم الظلمات، وعدم الهداة المذكّرين لأحوال المبدأ والمعاد، وفقد العلماء بالله واليوم الآخر، الهادين إلى طريق اليقين، والمنبّهين على حقارة الدنيا وانقراضها، وعظم أمر الآخرة ودوامها.

فالناس حيث أنهم غافلون قد انهمكوا في شهواتهم، وغاصوا في رقداتهم، وليس في علماء الدين من ينبّههم. فإن طلب أحد طريقاً إليهم، وجدهم مائلين إلى الهوى، عادلين عن نهج الآخرة ويوم الدين. فصار ضعف الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق العلماء بالهوى، أسباباً قاطعة لطريق الله عن السالكين.

ومهما كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً، والهوى غالباً، والطالب غافلاً، امتنع الوصول وتعطلّت الطرق، فإن تنبّه متنبّهٌ من نفسه أو من غيره، وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها؛ فينبغي أن يعلم إن له شروطاً لا بدّ من تقديمها في بداية الإرادة، وله معتصمٌ لا بدّ من التمسك به، وله حصنٌ لا بد من التحصن به، ليأمن من الأعداء القطّاع لطريقه. وله وظائف لابدّ من ملازمتها في وقت سلوكه.

أما شروطه فهو رفع الحجاب والسّد الذي بينه وبين الحق. فإن حرمان الخلق عن

الحق بسبب تراكم الحجب، ووقوع السد على طريقهم. قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[1].

والحجب أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية.

فلا بد أن يرفع عن نفسه:

الأوّل: بالتفريق والإحراج عن ملكه، إلاّ قدر ضروريّه، لئلا يكون قلبه مشغولاً ولو بدرهم، لأنه بقدره يحجبه عن الحق.

والثاني: بالبعد عن مواقع الجاه، وبإيثار التواضع والخمول، والهرب من أسباب الذكر والشهرة.

والثالث: بأن يترك التعقيب لمذهب دون مذهب، ويصيب حقيقة الأمر في اعتقاداته التي تلقنّها تقليداً من المجاهدة لا من المجادلة.

والرابع: بالتوبة والخروج من المظالم، وتصميم العزم على عدم العود، وتحقيق الندم على ما مضى، وردّ المظالم، وإرضاء الخصوم. لنه ما لم يرفع حجب المعاصي بما ذكر، فيستحيل أن يفتح للسالك باب المكاشفة.

فإذا قدّم هذه الشروط؛ كان كمن تطّهر، وتوضأ للصلاة التي هي معراج المؤمن، فيحتاج إلى إمام يقتدي به، وأستاذ يتأسّى به، ليهديّه إلى سواء السبيل. وهذا المعتصم للمريد بعد تقديم الشروط المذكورة، فليتمسك به تمسّك الأعمى على شط البحر بالقائد، بحيث يفوّض إليه أمره بالكلية، ولا يخالفه في صدوره وروده، حتى قيل: "إن المريد بين يدي الشيخ، كالميّت بين يدي الغسّال، بقلّبه من حال إلى حال، كيف يشاء، وهو لا يتكلّم معه، ولا يردّ عليه" وذلك لأنّ خطأ شيخه أكثر نفعاً في حقه من صواب نفسه.

---

1 ـ يس، 9.

فإذا وجد مثل هذا المعتصم؛ فيجب عليه أن يعصمه بحصن حصين، يرفع عنه قواطع الطرق، وهي أمور خمسة جمعها الشاعر في قوله:

صمت وجوع وسهر وعزلت وذكرى   بدوام نا تمامان جهان بكند كار[1]

أما الجوع: فلتنفيض دم القلب وتبييضه، وفي تبييضه تنويره، ولإذابة شحم الفؤاد، وفي إذابته رقته التي هي مفتاح المكاشفة، كما أن قسوته سبب الحجاب.

وأما السهر: ففيه جلاء القلب، والسهر أيضاً نتيجة الجوع، فإنّه مع الشبع غير مقدور. والنوم يفني القلب ويميته إلا بقدر الضرورة. وقيل في صفة الابدال: أنّ أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة.

وأما الصمت: فلأن الكلام يشتغل القلب، وشره القلب للكلام عظيم، فيتروّح إليه. فالصمت يلقح العقل، ويجلب الورع، ويعلّم التقوى.

وأما العزلة والخلوة: ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب. فلا بدّ ن سدّ الحواس إلاّ عن قدر الضرورة. وليس ذلك إلاّ بالجلوس في مكان مظلم، فيلف رأسه في الجيب، أو يتدثر بكساء أو أزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلالةَ الحضرة الربوبية. ألا ترى أنّ نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هذه الصفة. فقيل له:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[2]

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[3].

1-الصمت والجوع والسهر والعزلة والذكر الدائم   تكمل الناقصين في هذه الدنيا

2 ــ المزمل، 1.

3 ــ المدثر، 1.

فهذه الأربعة جنة المريد، وحصن يدفع عنه القواطع والعوارض القاطعة لطريقة. فيشتغل بعد ذلك لسلوك الطريق، ويقع عليه اسم السالك.

والسلوك عبارة عن قطع العقبات بين العبد وبين الله. وليست هي إلاّ صفات القلب، التي عمدتها التعلّق بالدنيا، وهو رأس كل خطيئة. وبعضُ تلك العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها الاشتغال بالأسهل فالأسهل.

وهذه الصفات الذميمة أسرار العلائق التي قطعها في أوّل الإرادة، وآثارها الباقية، فلا بدّ أن يُخْلِيَ الباطن عن آثارها، كما أخلى الظاهر عن الأسباب الظاهرة. وفيه يطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال.

وطريق المجاهدة في كل صفة غالبة ذميمة، مضادّة الهوى، ومخالفة الشهوة، بترجيح ما يقابلها ليضعف، و لم يبقَ تعلّق القلب بها.

فإذا فعل المجاهدة؛ شغله الشيخ بذكر يلزم قلبَه على الدوّام، ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الرواتب والفرائض، ويكون ورده ورداً واحداً، وهو لباب الأوراد وثمراتها، أعني ملازمة القلب لذكر الله، بعد الخلوّ من ذكر غيره. حتى يكون في صورة العاشق المشتهر الذي ليس الهمّ له إلاّ همّ واحد، فليتزم زاوية يتفرّد بها، ويأكل من قوت الحلال قدراً يسيراً.

وعند ذلك يلقنه الشيخ ذكراً من الأذكار، الذي يراه مناسباً له، حتى يسقط حركةُ لسانه، ويكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك.

ثم لا يزال يواظب حتى يسقط الأثر على اللسان، ويبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك، حتى ينمحي عن القلب حروف اللفظ وصورته، ويبقى معناه وحقيقته لازماً للقلب، حاضراً معه، غالباً عليه.

ويعتريه عند ذلك خواطر، يفتح عليه باب. وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر أو بدعة. ومهما كان كارهاً ومُشمِّراً لإماطته عن القلب، لم يضرّه ذلك.

وهي تنقسم: إلى ما يعلم قطعاً ان الله تعالى متزّه عنه فلا يبالي به، ويفزع إلى الذكر، ويتعيذ باله وليدفعه عنه. كما في قوله تعالى:﴿ **وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1]؛ وإلى ما يشكّك فيه، فيعرضه وسائر ما يجده في قلبه من الأحوال ويستره عن غيره.

ثم ان شيخه يترر في حاله، ويتأمل في ذكائه أو كياسته. فإن وجده ذكياً أمره بالتفكر ليتنبّه من نفسه على حقيقة القلب، ويقذف في قلبه من النور ما يكشف له، وذلك ان علم أن مثله لا يقوى عليه؛ ردّه إلى الاعتقاد الصحيح، بما يحتمله قلبه من وعظ أو ذكر دليل قريب من فهمه.

ولا بدّ للشيخ أن يتأنّق يوتلطّف. فإن هذه مهالك الطريق، مواقع أخطارها. وكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيالٌ فاسد، لم يقوِ على كشفه، فانقطع علىهي طريقه، واشتغل بالبطالة، وسلك طريق الإباحة. وذلك هو الهلاك العظيم. والبلاهة المحضة، أدنى إلى الخلاص من التجرّد للفكر.

فإن من اشتغل بالكفر، ودفع الشواغل والعلائق عن قلبه؛ فقد ركب سفينة الخطر. فإن سلم كان من ملوك الدين، وان أخطأ كان من الهالكين. ولذلك قالﷺ:"عليكم بدين العجائز"[2].

ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح ،مما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات .ومهما ألتفت الى شيء من

---

1 ــ الأعراف، 200.

2 اورد هذا الحديثالشيخ المجلسي في بحار الانوار ج66،ص 135، ونسبه الى احد المعصومين عليهم السلام

ذلك،وشغل به نفسه ؛كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفا .بل ينبغي له ان يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا يرويه البحار ولو أفيضت له، ويدوم عليـــه. ورأس مالـــه الانقطاع عن الخلق

والخلوة، فاذا داوم على ذلك وحصل قلبه مع الله ؛ انكشف له جـــلال حضـــرة الربوبية ،وتجلى له الحق ،وظهر من لطائف رحمة الله ما لا يجوز انيوصـــف ،بلـــلا يحـــيط الوصف به أصلا.

فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج الى لقاء الله ،ولخصناه من بعض كتب أهل العرفان ،

فلنختم به الكلام حامدا لله العزيز المنان ،ومصليا على رسوله المبعوث لهداية كافـــة العقلاء من الأنس والجان، وآله الهادين الى طريق الجنان، المطهرين عن أدنـــاس الرذائـــل والنقصان.



الفهرس

ألمقالة الأولى:

في أن لا رتبة عند الله أجلّ من المعرفة بذاته وصفاته وأفعاله

وأن العارف هو العالم الرباني

وأن كل من هو أعلم فهو أعرف وأقرب عند الله

المقالة الثانية

في ان الغاية من العبادات والمجاهدات

هي تحصيل المعارف الالهية.

المقالة الثالثة

في ذكر صفات الابرار والعاملين

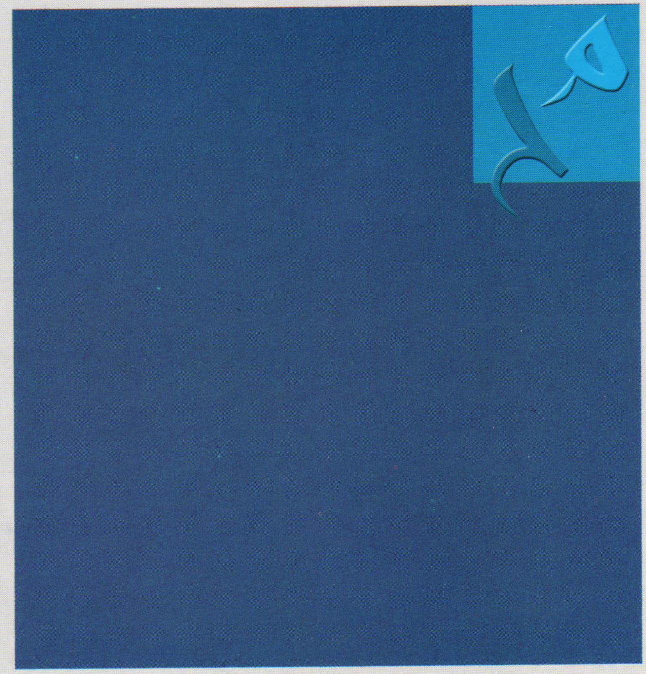
الذين درجاتهم دون درجات المقربين.

المقالة الرابعة

في مواعظ في ذم الدنيا واهلها.

كسر أصنام الجاهلية في الرد على الصوفية

صدر المتألهين الشيرازي



توزيع: دار المحجّة البيضاء

بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

ت:٠٣/٢٧٨١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧